محمد الدمرداش بدر

زمير طائر النعام

رواية

فاقصص القصص لعلهم يتفكرون

إهداء..

إلى تلك «الحقيقة» التي أوّلها «الرّب»..

«قبعت طائفةٌ من الناس في كهف مُكبَّلين بالسلاسل داخله مُنذ ولادتهم، تقابل ظهورهم مخرج الكهف، وراءهم نار مُشتعلة، وأمامهم جدار، فتُلقي النار ظلالها على جدران الكهف أمام عيون السجناء، فتظهر تلك الظلال لهم على أنها اليقينيات الوحيدة، وبينما حُلَّ أحد السجناء من أغلاله، وصعد إلى ضوء النهار، وآلف بالتدريج رؤية ما حوله، فقد تسنَّى له وقتها إدراك الحقيقة، وقرر أن يخبر بها بقية الرفقاء، فطفق يخبر بها واحد تلو الآخر، فكان في أول الأمر موضوع هُزء لرفاقه، بيد أنه إذا أرغم رفاقه، بطريقة ما، على رؤية الحقيقة التي وَعيها بمحاولته تحريرهم من الباطل، إنما يعرض نفسه للخطر كما قال أفلاطون: وإن أمكنهم الإمساك بإنسان كهذا، فسوف يقتلونه. فمتى كانت الحقيقة تُعرض بقاء المدينة إلى الخطر، فسيعيش هؤلاء في ذلك الكهف في هُدوء وسكينة، مُشاهدين لصورٍ وأشباح على الجُدران، ليسوا منخرطين في أي عمل، ومن ثم فإنهم ليسوا مُهددين من قِبل أحد، وهذه هي غايتهم الوحيدة؛ التضحية بالحقيقة في سبيل أمان زائف.. فحقيقة لا تتعارض مع أي مصلحة ولا مع أي مُتعة بشرية، هي وحدها التي تلقى الترحاب والقبول من البشر أجمعين، كما قال هوبز».

أسطورة الكهف لأفلاطون

- ماذا عليَّ أن أفعل لأفوز بالخلاص؟

- قبل كل شيء، لا تخدَع نفسك أبدًا.

«الأخوة كرامازوف، ديستوفيسكي»

احتمالٌ أولٌ

- فصلٌ أول -

«١»

تُمثِّل الأجزاء المُشار أسفلها من المخطوطة، النص الكامل الذي كتبه الدكتور «خالد يحيى» على رُقع ورقيَّة في زنزانته، وتوَّلى تحريرها وتدقيقها فريق خاص بـ«بنك تأريخ الثورة» بجمهوريَّة النِّعام، والذي يحتفظ بتلك الأوراق التاريخيَّة حتى وقتنا الحالي..

***

من المؤسف أن قرار الكتابة على تلك الرُّقع الورقيَّة جاء متأخرًا إلى حدٍّ ما، ومع ذلك، يبدو قرارًا ضعيفًا، مع وقف التنفيذ، أمام اختيار خيط الأحداث الذي سأتبعه، الصعوبة تكمنُ هنا، لا يمكنني سرد قصتي الشخصيَّة بدون أن يكون لديَّ هويَّة واضحة، الأمور معقدة، وخيوط الأحداث

متباينة، خيط أحداث «خالد»، يختلف غاية الاختلاف، عن أحداث «زائد»، ولعلَّ ما أتذكره من حياة خالد، (والذي هي من المفترض أن تكون حياتي)، هو الأكثر وضوحًا في رأسي إلى تلك اللحظة..

ولذلك، سأفترض، أنني الدكتور «خالد يحيى»..

ساورتني الحيرة كثيرًا قبل أن أكتب تلك الجملة السابقة، أودُّ أن أستعمل الكلمات المناسبة كلما قدرت..

فكَّرت مليًّا قبل كتابتها، هل يجب أن أكتب بالصيغة التأكيديَّة:

«أنا - أُدعى - خالد يحيى»...؟!

لا، ليس من الُملائم أن أستعمل صيغًا تأكيديَّة في «محجر ديجور»، حتى ولو كُنت على علم بأنني خالد يحيى، يبقى داخلي شك في ذلك. ولذلك، سأفترض، مجرَّد افتراض، أنني «خالد يحيى»، فقط، لأستطيع كتابة قصتي الشخصية مذ قفزت إلى هنا، يبدو لي أنَّه المستهل الأقرب إلى الصواب.

يجب قبل كل شيء الاعتراف بأني على درايةٍ كاملة، بأن قراءة آخرين لتلك الأوراق هي المستحيل بعينه، لن يقرأ تلك الأوراق شخص يمكنه مساعدتي، وإذا قرأها أحدهم، فعلى الأرجح سيكون المستشار «آشر» أو «مَطيع» أو ذلك الضابط ذو النياشين المُذهبة، وحتمًا سأكون حينها في مأزقٍ مأساوي.

أقول ذلك لأبين لنفسي أولًا، بأنني لن أستفيد شيئًا من تلك الكتابة، سوى الحفاظ على هويَّتي الآخذة في التلاشي، تنفيذًا مُتأخرًا لمقترح السجين القزم، والذي بدا لي الآن أنه على حق. ذكرياتي تنمحق، وكياني ينسحق، يذهب خالد وحياته إلى اللاشيء ويحل مكانه شبيهًا في السحنة بحياةٍ غامضة. في تلك اللحظة تختلط الذكريات، وتتداخل الأكوان، تتخطفني الأزمنة، وتتكالب عليَّ الأقدار، لا أملك تأكيدًا واحدًا على دقة كل ما سأرويه وأكتبه، سواء أكان مضمونًا أو ترتيبًا، ولعلَّ أفضل طريقة سرد وأقلها تعقيدًا، هي البداية منذ لحظة قفزي إلى ذلك العالم، وحتى يلتقي منعطف الماضي بالحاضر، وحينها سأكتب كل يوم بيومه، مع أن الأحداث تأخذ في منتصفها منعطفات حادة لا يسعني الانتظار لأرويها، وتتزامن من أحداث أخريات لا مفر أبدًا من ذكرها، ويزيد على كل تلك التعقيدات، اعتقادي بأني لا أملك أدوات السرد الحرفيَّة وظروف حُسن القص، التي يملكها الأدباء والروائيون لأكتب ما مررت به بطريقة صائبة، يلزم الأمر أديب له حس روائي عميق، يجلس على مكتبه في غرفته المليئة بالمعاجم، يرتشف رشفة وراء رشفة من الشاي الذي أعدَّته له زوجته بعد العشاء، لا سجين في «معتقل حربي»، لا علاقة له بالقصص والروايات، قابع في زنزانة ضيقة، تظهر له كأنها فسيحة وبيضاء، يمسك بين إبهامه وسبَّابته سنًّا يابسًا صغيرًا من الجرافيت القاتم، ويكتب على رقعة ورقيَّة سكنت أمعاءه

منذ ساعات، حتى غالبتها صهبة تعبر عن تلطخها بأحماض معدته.

ولكنني ومع ذلك أتعهد بأن أبذل ما بوسعي وسط كل تلك الظروف لأكتب ما رأيته وما أتذكره مُستخدمًا مفردات كلمات عالمي الذي أتيت منه، تاركًا لمؤرخي ومحرري جمهورية النَّعام مهمة فكّها وتحريرها وإكمال الناقص بها من بعدي.

أوَّد أخيرًا أن أستفيد من الجزء الفارغ من تلك الرُّقع الورقيَّة الأولى، وأتبع العُرف السائد في العالم الذي أتيت منه، وأهدي تلك الأوراق المهترئة، إلى حبيبتي..

داليا.. وأمي.. وأبي..

أوقِّع: د. خالد يحيى..

معتقل ديجور، بجمهوريَّة النَّعام

***

رفعتان ورقيتان مرقمتان برقم «١»، إحداهن نصف حجم الأخرى، وفيهن ذكر خالد قراره بكتابة تلك الأوراق حفظًا لهويَّته.

«٢»

الحرم الجامعي بالعاصمة الإداريَّة، مصر.

صُبْح أول ثلاثاء من تموز.

مثل أيِّ صباح مَشوب بميول إنتحاريَّة، يرتادني ذلك السؤال المُتهالك من التكرار؛ هل هُناك ما يستحق اللعنات أكثر من «الداتري» وكثافاته المرورية...؟!

أركض جارًّا بلهاث الكون في الممرات، نظارتي الطبيَّة تنزلق بفعل العرق، ألاحقها بدفعات متقطعة خوفًا من سقوطها الوَشيك، لم أجْتز لحيَّتي منذ أسابيع، وشعري صوبة حراريَّة تلفح جمجمتي بالكامل، أهرول متأخرًا في ساقين ناحلين على وشك التداعي، أتفادى النظرات، تلوح في الوجوه غُربة، أعلم أنَّ جزءًا من القميص خارج البنطلون، لا أعلم متى إرتديته، ولستُ متأكدًا ما إذا كنت إرتديته، أم هو من إرتداني، تذكرت تلك المرَّة التي إرتديت فيها ذلك القميص مقلوبًا وأنا غارق في الشطط الأسبوع الماضي. لم يكن الدُّش البارد كافيًا لأنكفيء من سكرة النوم، يومٌ آخر

وصباحٌ آخر، أستيقظ من جديد مُشتمًا الغُبار المكمم والبائت في أنفي من المعارك الحياتية ليومٍ مضى. لو لم أكن معروفًا بين طلبة القسم وأساتذته، لكُنتُ مَرميًا خارجه رمية «كلب بلديٍّ» ضال، خَشية مَنظري الشاذ، أو ظنًا بأني شحاذ أو بلطجي.

سألت الـ«TBF» [1] عن الساعة بنبرةٍ بها تهيج تَهتُه لساني، كررت سؤالي مرتين حتى توَّضح الـ«TBF» كلماتي وبصمة صوتي، أجاب بصوته الآلي: الساعة تسعة وتسع دقائق يا خالد.. ٩:٠٩.

تسعة مُكررة مرتين، تأففت، لاحت لي «داليا» وأرقامها المتشابهة، لعنتها التي أحلت بساعتي البيولوجية، لعنتها التي زجت بي داخل متاهة مُعلق على بابها: «لا خروج»، تأخرت تسع دقائق عن ميعاد المحاضرة، سبَّبتُ الدائري وكثافاته المرورية مرَّتين، زدتُ من سرعة الركض، سال المزيد من العرق، تأخرت عن أولى محاضراتي وأنا الذي أستفيض في أحاديث مكررة بتفاخر حد الملل، عن بغداد، وإقامتي بها لدراسة الماجستير، بغداد...! يمكن أن نقول إنها مدينة الله للعلوم

١ - نظام تشغيل، بالإنجليزية «(Operating System)»، وهو مجموعة من البرمجيات المسؤولة عن خدمة البشر عن طريق ذكاء اصطناعي حاد، صُمم عن طريق ممارسات الشخص على مواقع التواصل الاجتماعي واهتماماته وبحثه على الأنترنت من سن ٦ أعوام حتى ١٨ سنة، يستطيع بعد البلوغ تسلم نظام تشغيل خاص به من أقرب سجل مدني، وسُميَ TBF، اختصارًا لـThe Best Friend، وهو الاسم الذي أطلقته شركة HAL للبرمجيات لغرض تسويقه، كان خيالًا علميًا حتى عام ٢٠٧٠ بعد ميلاد السيد المسيح.

والعلماء.. المدينة التي تحولت في أقل من قرن إلى المدينة الأهم للمجتمع العلمي! طلاب أعظم دولة في العالم، الصين، يأتونها زاحفين، تبدلت الآيات.. ليس على الجميع طلب العلم ولو في الصين.. الصين هي من تطلب علم بغداد... عندما كُنت هناك.. لم أر طالبًا يتأخر على المحاضرات أبدًا.. الجميع هناك مهندم تمامًا.. أرسْتقراطيَّة أوروبية مستحدثة على أراض عربية.. السترات السوداء مصبوبة على الأجساد كما لو كان الجميع يحضرون حفل تتويج جائزة بابل.. متى نكون مثلهم...؟!

دفعت باب القاعة، كدتُ أسقط على وجهي بسرعة هرولتي، برَّقت نحو المُدرَّج الممتلئ عن آخره، توَّترت أوصالي من المشهد، تجمهُر طلابي عريض، تلك المرَّة الأولى التي ألقي فيها محاضرة بعد إعطائي الدكتوراه، زاد عدد ما أقف أمامهم من مئات إلى آلاف، ومن حجرات وجلسات «أونلاينْ» إلى قاعات شاسعة.. إنطوائيتي تمقتني.

أحرجها مرَّة تلو المرَّة ولا أتعلم، نظراتهم تجاهي كلاسيكيَّة الصُنع، تقتل أي أمل لي بالتفوه، تلوي لساني الضعيف ليَّ الـ«أناكوندا» لضحيتها.

تخرقني كطلقات عيار ٩مم، ذَوَات المخالب السوداء «SXT Black Talon».. إنتاج أمريكي مُنقرض مع محو الدولة العظمى بالكامل، سلاح مُسدَّس جدِّي العتيق لم يُعبأ بسواها، شاهدتها صغيرًا في أرشيف جدِّي المصوَّر لدى أبي.

لساني مُتيبِّس، فكرة أن ذلك الحشد ينتظر من شفتيَّ التزَمزم، فكرة قاتلة، سأُدفن دون غُسلٍ قبل أن أتفوه، غَرست قدمي في المنصة، جسدي يبصق عرقًا كجمرة متشققة تنزف حممًا، تكفيني «داليا» التي أجبرتني بألا أفكر سوى بأرقامها الملائكيَّة المتشابهة، أختلس النظرات نحو ساعة كبيرة بآخر القاعة، دِيجِيتَال، مصنوعة من التنْجستين الأسود الراقي، أُقلب النَظرات، أفتِّش في أركان الحشد، أصطدم بذراع عارٍ عليه وشم صغير على شكل حرف «A»، رَمز قديم معروف بـ«Atheist»، مُلحِد، أي مُنكر لوجود إله.

هُناك، أمام الدرج الأول، علكة مرميَّة صُكت فيها ثقوب أو شبه ثقوب أثر أسنان مغروزة.

في الركن الأيمن أرى فتاة بنظاراتٍ طبيَّة سميكة، تبدو مُستعدَّة، تنتظر شيئًا من علمي الذي عَهدتهُ عني في الجلسات صغيرة العدد، أُقلِّب مزيدًا من النظرات، ألمح شابًا وفتاةً في أعالي الشبق، تلتحم شفاههم في حركة بطيئة، يبدو أنهما لم يعلما بوصولي بعد، أو علما ولم يَعْبأ أحدُهم بالأمر.

أرى شغفًا مَحميًا في عيون المعظم، تأهَّب على القدر اللازم لأورجازم المعرفة الحميميَّة، تجاوزت بشغف المعظم رهبة الموقف، عبرته، خاصة أني أعرف حُبهم لمن يمزج الفيزياء النظرية البحتَّة بالفلسفة..

فَوضى الـ«Pop science» المُنتَشرة منذ القرن الماضي. علوم الأرصفَة.

حذرني رئيس القسم ومُشرفي على أبحاثي «د. منصور» منها بطريقةٍ مُباشرة، يَخاف أن ينتهي بي مطاف المحاضرات إلى مُناقشات دينيَّة وفلسفيَّة حادة، الكلية في غنى عنها وسط سياسات قوى العالم العُظمى المُعاديَّة للدين هذه الأيام، لكنها، ومع ذلك، تبقى طريقتي المفضلة في الشرح، كم عانيت من الملل أطنانًا حينما كنت طالبًا مع قُصور وعُقم الفيزياء البحتَّة، لم يملأ شهوتي المعرفيَّة اختزال العلم إجاباته على سؤال «كيف»، لابد لها دائمًا من أن تكتمل بـ«لمَ»..

لماذا أنا هنا...؟

لما انفجرت ذراتي والكون من اللا شيء...؟

لماذا صُنعت الكعكة...؟!

لا أريد أن أعلم كيف عُجنت وخبزت فقط. هو مبدأ أؤمن به، ولا يمكن أن أتحدث به، أعتقد بأنني أقول «نعم»، وأفعل ما أريده بطريقة جيدة، لا أوَد أن أوقع على استمارة «٦١» قبل أن أكمل غُرفتي المُدللة على كل حال.

ولَّيتُ ظهري للمدرج، وضعتُ إبهامي على الماسح[٢] بجانب الشاشة العملاقة، قرأ الماسح العرض التصويري الذي أعددته البارح، أدخلت القميص في البنطلون وما زال ظهري للآلاف المؤلفة، أرفعهُ بسرعة في حركات ربع دائرية متضادة، ألتفت مُسرعًا، ضحك الجمع، مرَّرت ابتسامة رافعًا ذراعيَّ بوضعٍ أفقي وباسطًا كفيَّ مُتعجبًا، أبدِّد التوتر، حركة كوميديَّة عتيقة، كليشيهات رماديَّة مُنتهيَّة!

لحظات وصمت الجميع، بالسبَّابة دَفعت النظارة نحو وجهي في حركة تَمثيليَّة أخرى، هذه المَرة دراماتيكيَّة أكثر، ابتسمت مجاملًا، وتنهدت بصوتٍ خافت، ثم تنحنحت وبدأ العرض:

- «الأرض.. الكوكب الوحيد المعروف عندنا في الكون القريب الذي يحتوي على ماء وغلاف جوي في وقت واحد، الظروف الضروريَّة لنشأة الحياة. الأرض المكان الوحيد المعروف في الكون القريب بالظروف الملائمة لإشعال نار، والنار تعني الطهي، تعني معدة أصغر ودماغًا أكبر، قدرنا بالنار نهضم الدهون والبروتينات والكربوهيدرات قبلما تدخل معدتنا أصلًا.

٢- قارئ لقشرة توضع على الإبهام كمخزن للبيانات، استبدلت بالذاكرات المادية، والفلاشات عام ٢٠٦٢م من قبل شركة صينية، صنع الماسح ثورة كبيرة قلبت موازين القوى الإلكترونية في العالم.

ومع مرور الوقت، أدمغة البشر استطاعت أن تستوعب وتحلل وتستنتج.. كان (آدم).. ونحن أصبحنا (بني آدم).. استطعنا أن نزرع ونصطاد.. سيطرنا على كل كائن حيّ على الكوكب.. استعمرنا القمر.. وصلنا بلوتو.. بنينا مستوطنات على المريخ.. والآن يوجد أكثر من ربع سكان الأرض على المريخ.. ولكن ثمن كل ذا كان غاليًا جدًا».

نظرت نحو الأرضيَّة ثم أعدت النظر نحو الحشد، الشاشة خلفي تعرض صورًا ومقاطع من حروب وثورات بالتسلسل التاريخي من القديم للحديث.

- «قتلنا ودمرنا بعض.. الأرض.. والدين.. والبترول.. والسيطرة.. لم تكن سبب نزاعاتنا فقط.. دخل في الأحداث حسبة الفضاء.. تنازعنا على تقسيم المريخ والقمر.. جيلنا هو أكثر جيل عانى ويلات ومجاعات.. انقرض أكثر من ٨٠٪ من كائنات الكوكب نتيجة الحرب النووية الأخيرة، إنشق القمر ونصف المريخ تقريبًا أصبح لا يصلح للحياة إطلاقًا.. ومن وقتها.. والطبيعة تُعاقبنا.. فيضانات وسيول.. براكين وزلازل مُدمرة ومجاعات.. قلت مواليدنا وكادت تصل للانعدام.. العشر سنين الماضية فقط مات ٢٣ مليار إنسان بسبب غضب الطبيعة منَّا.. وبعد ما تسببنا في كل هذا الدمار وأحسسنا قُرب النهاية.. أصبح خيط النجاة الوحيد في يد العلم، لا في السياسة، لا في التسلُّح والعسكرة..».

أنظم أنفاسي.. أبدد التوتر أكثر فأكثر.

– «كان الحل الوحيد عندنا هو التفكير في الهروب خارج المجرة كلها.. بل خارج الكون كله إن لزم الأمر! ولكن كيف...؟! وإلى أين...؟! قديمًا، وحتى أوائل القرن الواحد والعشرين، المجتمع العلمي كان قابل على نفسه داخل فقاعة الكون بداعي أن ما بخارجه لا يخضع للقوانين الفيزيائية المعروفة عندنا.. كان كل عالم يُسأل عن خارج الكون.. لا يعرف الإجابة على السؤال لكونه خارج فُقاعتنا الكبيرة.. بما يعني أننا في سجن كبير جدًّا إلى الأبد...! إذن، هل نحن فعلًا في سجن كبير عمره ١٣ مليار سنة...؟! السجن يتمدد ويتمدد صحيح.. ولكنه في الأخير سجن! إن لم نخرج منه، الكل يعلم أننا سنهلك جميعًا هُنا، سينهار الكون علينا في لحظة ما! هل كُتب علينا فعلًا الاعتقال هنا حتى الممات...؟!

قلب مُعظمهم رأسه يمنة ويسرة معبرين عن إجابتهم.

– «فعلًا، لا، في قديم الزمان، وفي وقت محاكم التفتيش بأوروبا، قيس اسمه «برونو» اتهم بالهرطقة حين صرح علانية بوجود كون لا نهائي.. كان مُتبعًا فكرًا من أفكار أحد الكُتب القديمة التي كان مُحرمًا قراءتها وقتها.. برونو فُصل من الكنيسة فور إكتشافهم قراءاته المحُرمة.. برونو كان يقول إن هناك إمّا غير محدود.. وبالتالي سيخلق كونًا غير محدود.. طُرد برونو من الكنيسة وهو يخبرهم بأن إلههم صغير جدًّا..

واحد غير برونو كان سينسى قضيته خوفًا من الشنق أو الحرق.. لأن برونو كان يعيش في زمن لا فصل فيه بين الدين والسياسة.. الأوضاع لم تكن مثل الآن.. إذ كانت حرية الكلام تتعارض مع الاعتقاد السائد في الدولة يُقتل صاحبها فورًا أو يُنفى.. حتى وإن كان التعارض نظرية رياضية.. السلطة وفقط هي صاحبة القرار في تمرير النظرية للعوام أم لا.. إذا قالت السلطة أن بالمربع ثلاثة أضلاع فيجب على الشعب تقبل الأمر وإلا سيواجه الجميع نهايات مأساوية.. وعلى الرغم من ذلك.. استمر برونو في التبشير بكونه اللا محدود وبإلهه غير المحدود.. قُبض عليه.. وبعد ٨ سنوات من الحبس.. قرروا إعلان ذنبه للعامة خوفًا من تأثر الشعب بمعتقداته.. وحُرق حيًا لاتهامه بالتشكيك في الثالوث المقدس... والاعتقاد بأن الجميع سيدخل الجنة، والإيمان بلا نهائية الكون وبوجود عوالم متعددة..».

قلت بنبرة بطيئة متقطعة:

– «وجود.. عوالم.. متعددة.. The multiverse»

استرسلت:

– «نظرية العوالم المتعددة فرضيَّة قديمة جدًّا، أقصد أنها كانت فرضيَّة أيام برونو وما أبعد منه أيضًا.. أبعد بكثير.. ذُكرت في رسائل هيرودوت.. وفسر البعض ذكرها أيضًا في

الكتب السماويّة؛ في القرآن مثلًا.. تكرر مُصطلح السماوات السبع كثيرًا.. تاريخ النظريّة طويل جدًّا يمكنكم البحث عنه وإعداد تقرير سأتسلمه منكم المحاضرة القادمة.. المهم هنا معرفة أننا شغوفون بذلك التخيُّل من قديم الأزل.. جائز لأننا نكره واقعنا كثيرًا.. كرهناه كلنا على مر التاريخ.. جائز أيضًا لأننا كائنات تبحث دائمًا عن التغيير.. هروب نفسي من وجود مُجبرين عليه.. التفكير في عالم لا يوجد فيه حروب.. عالم فيه الحلم الأمريكي مُستمر على خريطة العالم.. عالمٌ.. أو كون.. فيه القاهرة على عكس ما توجد عليه الآن.. عالمٌ أو كون نظيرك فيه أخذ مسارًا أفضل مما أنت عليه الآن.. كلها تخيلات.. ولكن العلم علمنّا أن المستحيل غير موجود.. من ٨٨ سنة أثبت عالم الفيزياء النظريّة العراقي «عَدنان جروان» فرضية وجود العوالم المُتعددة.. وأصبحت أخيرًا نظريّة مثبتة رياضيًّا.. ووسط كثير من اللغط حَصد عدنان.. بابل والتي أُستبدلت الآن بجائزة نوبل الجائزة القديمة..».

عرضت الشاشة صورًا لعدنان جروان وهو يتسلم الجائزة.

– «المهم.. البعض شكك في أحقيته للجائزة بدعوى أن النظريّة لا تفيد البشرية بطريقة مباشرة.. ولكن اللجنة بررت ذلك بأن عدنان أعطى أملًا للبشرية في الفرار من الهلاك المَحتوم.. ومن وقتها وإلى الآن لا جديد يُذكر فيما يخص العوالم الأخرى.. حتى منذ ما يقرب الخمس أعوام».

نَصبتُ ياقتي مازحًا وابتسمت ابتسامة فاخرة، فضحك الجميع.

– «قررت أن تكون رسالة الدكتوراه خاصتي عن البث في إمكانية السفر للأكوان أم اُستحالتها.. وما زلت أبحث حتى وصلت إلى واحد من أهم اكتشافات القرن كما عنونت الصحف العالمية.. والذي أخذت عليه الدكتوراه من الشهر الماضي فأستطيع الآن إلقاء المحاضرات أمامكم الآن.. من مرات عديدة.. لاحظت أن الوصول لدرجة حرارة الصفر المطلق داخل غرفة مغلقة مع تسريع الجسميات من ذرات أو إلكترونات، تتخذ مسلكًا عجيبًا.. تختفي وتظهر لحظيًّا ولكن بأعداد أكبر.. الذرة تصبح عشر ذرات وأحيانًا سبعًا وأحيانًا تختفي كليًّة.. حالات لا نهائية من الاحتمالات...!».

ازدرت لعابي ثم أكملت:

– «طبقًا لقوانين الديناميكا الحراريّة العتيقة كما تعلمون.. هذا غير ممكن.. إلا إذا كانت الذرات الإضافية تأتي من مكان آخر.. عالم آخر.. ولكن هذا ليس إثباتًا أننا من الممكن أن نسافر عبر الأكوان مثلما تفعل الذرات.. لا أحد يعلم تأثير السفر على الخلايا العضويّة حتى وقتنا الحالي..».

تختطفني لمحة نحو الساعةِ السوداء بآخر القاعة.

..:..

أربعة أصفار مصطفون كهيئة عسكريّة، بين كل صفرين نقطتان، واحدة فوق الأخرى، داليا من جديد، إستعرت عَدواها بداخلي!

- «هناك غَلط في الساعة..؟!»

أوْمَأتُ برأسي رافعًا إشارة نحو الساعة، فرَددَ المعظم أن نعم مصدرين ضجيجًا، سَألت الـ«TBF» عن الوقت.

أجاب: إنها العَاشرة يا خالد..

يجب ألا تَتعدّى المحاضرة الساعة إلا رُبع.

- «تمام.. لا أريد تأخيركم، كما تعرفون الشهر الماضي أجرت الجامعة إحصائية بسيطة على الطلبة كلهم.. وكانت عبارة عن سؤال واحد فقط.. هل تعتقد بإمكانية العبور إلى الأكوان الأخرى؟ النتيجة حتى اللحظة هي: ٩١٪ منكم يعتقد بإمكانية العبور، و٣٪ لا يعتقدون، و٦٪ لا يعرفون أو لا يهتمون، نُكمل الأسبوع القادم.. إنتهينا من المقدمة النظرية، الآن حان وقت الفيزياء..».

صوت تأفّفهم طَرق أذنيّ مُتعجلًا، فضحكت ثم أردفت مُبديًا شيئًا من قَبيل العجز.

- «هذه الصيحات قد تغضب د. منصور.. أي أسئلة قبلما أمشي...؟».

أشار أحدُهم بيده فسمحت له بالحديث، قام كاشفًا عن جسدٍ ناحلٍ، عيناه رماح مُضطربة تدحجني، بينما «١١١» صارخة، تتربع على جبينه، مُتلازمة داليا للأرقام المتكررة تَتلألأ حتى في جبهات طُلابي، أشتم رائحة هجوم كاسح.

فتح مُكبر الصوت القابع أمامه.

- «لا، هو الحقيقة ليس بسؤال، هو تَحفُّظ.. وأعتقد أن كثيرًا من هنا معي في الرأي».

خفقان قلبي يزيد، تتزايد فوبيا الخجل من أن يُنتقد، دَمِث الأخلاق أمام الجميع.

- «أسمعك.. تكلّم».

- «طبعًا أنت عارف إن المُعظم هُنا غير مُتدينين».

- «عارف».

- «إذن، لِمَ الإصرار على ذِكر أساطير مثل الـ.. الـGod.. أو الإله والكتب التي نزلت من السماء والأشياء القديمة هذه؟! لا يوجد تفسير لذلك غير أنك...».

قلب عينيه حوله بتعجرف.. ثم أكملها:

- «غير أنك مجنون.. هل أنت مجنون...؟!».

إعتقدت حينها أني أخطأت السمع.. علا صوت الجمع.. الجميع يَهمس ويفرُّك مكانه من الصدمة.

- «ليصمت الجميع!» أصيح.

ثم أردفت:

- «نعم...؟! تقول ماذا...؟!»

- «أسألك... هل... أنت... مجنون...؟!»

كان يُقطع الجملة إربًا للتأكيد، فيُقطعني معها كشاه مسلوخة.. تعقَّد لساني.. أتمنى أن تتداعى القاعة علينا.. أحاول استجماع ثقتي التي بُعثرت.

- «مجنون...؟! لِمَ تقول ذلك...؟!»

- «ألم تسمع يا دكتور بإدراج الدين تحت بند الأمراض النفسيَّة والسلوكيَّة من قبل المُنظمة العالميَّة للصحة...؟! أنا لا أسُبك.. أنا أصفك كما يقول العلم.. ألست رجل علم...؟! دعك من استغرابك هذا.. الكل هنا يعرف أنك مُسلم.. لم لا تدع تدينك المرضي هذا بعيدًا عنَّا...؟!».

علا الهرج ثانيةً، صحتُ بضعفٍ شديد، أتعرق كثيرًا وأشعر برعدةٍ خفيفة.

أشهق وأزفر.. هدأت قليلًا..

- «ما اسمك...؟»

- «ما شأنك باسمي...؟! هل ستتعمد رسوبي...؟!»

- «لا لن أتعمد رسوبك، أريد فقط أن أُدافع عن نفسي».

- «لا.. لن أخبرك به» لم أرُد.. نظرتُ في اللا شيء.. وبعد لحظة:

- «نادر، اسمي نادر».

تجمع شمل ثقتي حين أحسست خوفه.. تمتمت بعضًا من الكلمات التحفيزيَّة لنفسي كمادةٍ أحفظها..

- «جيد يا نادر، إذا كُنت أريد أن أشرح لطلابي كيف تبوَّل نادر صغيرًا لا إراديًا في حدث مكرر ومعتاد.. كيف يجب أن أذكر ذلك بدون ذكر اسمك يا نادر...؟».

إنفجرَ وابل من الضحك فاحمرَّ وجهه.. لا أعرف كيف تفوهتُ حتى بتلك الكلمات، أمرتهم بالصمت من جديد.

- «ذكري لأحداث تاريخية يُحتم عليَّ أن أذكرها لكم كما هي بدون خوف من المُسميات المَمنوعة، وإذا كانت المُنظمة العالمية للصحة صنفت الدين مرضًا نفسيًّا.. فيبدو أنك لا تعلم أن الإلحاد يعتبر دينًا أيضًا، ثم إن المُنظمات تقول ما تقول.. أنا هنا لألقي ما أريد إلقاءه فحسب.. فإذا أردت أن تدخل معي في نقاش عقائدي فأعتقد أن هذا ليس المكان المناسب».

ساد الهدوء المكان، بدا لي أن نبرتي كانت صادمة نوعًا ما.. أبعدت نظري عنه ثم سألت مرة أخرى:

- «هل من أسئلة...؟»

مكتبة بيت الحصريات

لم يُجب أحدُهم، فتأسفت عن تأخيرهم، ثم رَحلت تعبًا وأنا أشم فنجانًا من القهوة سيصلح ما دَمره نادر، أتحسس لفَّة البُن الصغيرة في جيبي، أُقلِّبها، كافية لفنجان واحد فقط..

فكَّرت.. هل أستحلب بودرتها في سطرٍ...؟! أم أعطيها لـ«عربي» سرًّا فيصنع منها فنجان «إسبريسو» واحد...؟!

***

«٣»

قدماي كسيلٍ جرَّافٍ في مجراه، لا تخلو من الحتميَّة، تعرف طريقها، ترفض إرادتي الحُرَّة وتسلبني دائمًا حق الاختيار حين يهجم الصداع، نادر ما أطلق الوحش.. قيل إن الصُّدع مجهول المصدر، والذي يختص بجزء دون آخر هو من وسوسة الشيطان لابن آدم، صدقت المقولة لو اعتبرت نادر نسخة من حَفَدَة إبليس، تصدق أيضًا لو اعتبرته وإبليس تكاتفا ضدي، تاركين الصراع الأبدي اللامتناهي، من أجل ألم مُميت فوق عيني اليسرى، صُداع نصفي لا تُذلله مُسكّنات الشركات الـ«عهرمالية»، تلك اللفة التي لا تتعدى حجم رصاصة والتي يحتضنها جيبي، هي من تتكفل به.

حبات الرُّوبوستا الهندي النادرة.

بعد الانقراض الكبير للحبوب الاستوائيَّة، لم تعد الخيارات الكثيرة متاحة، ندرت حبوب القهوة من العالم كله، الأمر كان أشبه بأي حدثٍ مار يُذاع على الفضائيات، قيل إنَّه لن يُشكل أي تأثير مباشر على عامة البشر، وستقف الخسارة على

الدول والشركات المستثمرة في البُن، كَذب! لاحظ الناس ندرة حبات القهوة بعد أسبوعين من تداول خبر انقراضها، نفدت من أسواق العالم، تداولته الأسواق السوداء بأسعار خرافيَّة، أغلقت كافة المحلات القائمة على شرب وبيع القهوة أبوابها، ولم يفت إلا شهر واحد، حتى لاحت تجاويف العيون بهالات سوداء واضحة، زادت معدلات الجريمة في العالم، تنامت نسبة المنتحرين عما سبق أضعافًا مضاعفة، افتقد الناس أعظم متاع الدنيا بعد المال والبنين والنساء، وبدا للجميع كم كنَّا مُسكنين بالقهوة أكثر من أي مخدر عرفته البشريَّة!

لم يفت الكثير حتى ظهرت عصابات تُهرب القهوة، وتصبح مع الوقت موردًا مُربحًا لتجار المخدرات وقراصنة الأدغال في إفريقيا. لم تجد حكومات العالم حلًا إلا اعتباره مخدرًا، وتجريم حمله وتداوله وتعاطيه.

وهذا ما لم يقتنع به مزاجي.

إلى متى ستتحمل أمزجة البشر غباء البشر أنفسهم؟!

لحظات سير في هدجان طويل نحو «الخلاص»، أقطع الكلية التي تشبه معبدًا قديمًا، صُمِّمَت على الطراز الفرعوني، لمسة من العمارة العتيقة، تزداد الحرارة، تركت البناية الثالثة وتقدمت نحو الرابعة حيث يربُض مكتبي، ومن قبله «حاوية الخلاص»، أوزِّع بسمات مُزيفة، الملاطفة المصطنعة التي أتكلَّفها

يوميًا في إلقاء التحيَّة هنا وهناك يكشفها الكل، الجميع يعرف إنزوائي الذي أخفيه، محاولاتي بأن أكون إجتماعيًا أشبه بحُفرٍ في اللا شيء. وصلت الحاوية، بوفيه صغير في أحد حمامات الكليَّة، توفيرًا للجهد، تدع الكلية عمالها يرزقون من الطلبات السريعة للطلبة وهيئة التدريس، هَاهو مُنقذي، لم أره منذ مدَّة.

درجة الحرارة في الحمَّام تكاد تصل ٥٥٠درجة.

- «كيف الحال يا رجل يا طيب...؟!»

- «أهلًا.. كيفك أنت يا دكتور.. ألف مبروك..!» ومدَّ حرف الـ«لام» بحرارة في كلمة «أهلًا».

- «الله يبارك لك يا عربي.. خير...؟! أقلقتنا عليك..!»

- «الحمد لله سليمة، غيبوبة سكر من جديد، دَعك مني أنا، انظر ماذا شربت» أتى بها في لهفة مُتصافية من على نمليَّة البوفيه، جريدة ورقيَّة، عشقي الأبديّ، قرار عدم التخلِّي عن الورق أفضل قرار أقرَّته البشريَّة [٣] قلَّبت عيني سريعًا، اصطلي من الحر.

٣-انتهت تعاملات البشر مع الورق كليًا في أوائل القرن الحالي، حتى حدوث الهجمات الإرهابية لجماعات التراث على ارشيف السجون في أكثر من ١٩ دولة. ولدت هجمات القرصنة آنذاك إلى محو بيانات أكثر من ١٠٠٠٠ مجرم، منهم من قضى مدة حبسه ومنهم من ظلَّ في السجن دون هويَّة، مما أجبر ادارات السجون لإطلاق سراحهم لعدم امتلاكهم أي إثبات لما ارتكبوه من جرائم.

مصري على أعتاب بابل في الفيزرياء.

«يعد العالم المصري خالد يحيى، أستاذ الفيزياء بجامعة... على أعتاب كتابة تاريخ مصري غير مسبوق في العلوم الطبية.. هذا وقد تعاقبت الأنباء.. حول احتمالية اقتناصه بابل في الفيزياء إثر إثباته إمكانية السفر لأراضٍ أخرى... وقد علمت مصادرنا...».

لم أكمل سطرًا آخر، أذوب، الحر فاق حد إحتمالي، تنبض العروق مكان الصَّدع.

- «أنا لم أثبت شيئًا حتى الآن! لن يتوقفوا عن الهراء أبدًا.. ما علينا.. عم عربي.. كُنت مفتقدك جدًّا».

أخرجت اللفَّة من جيبي ولوَّحت بها مُبتسمًا، ضحك عربيّ ثم التقطها، فهمني.

- «عيني يا دكتور خالد.. ثواني أُحضِّرها».

- «لا.. سأنتظرك في مكتبي، لديَّ ما أقوم به».

لا أنوي القيام بشيء قبل شُرب القهوة، فقط أختنق من الحر، لا أطيق الوقوف لحظة أخرى في ذلك الحمام، لا أعرف كيف يتحمَّله...!

- «تمام حاضر» أعقبها بـ «هواء» ولم ينطق الهمزة.

رَبت على كَتِفه مُمتعلًا التَبسُّم:

- «أغليها جيدًا يا عربي، لا تنسَ».

- «تمام يا دكتور.. حالًا».

دَسَستُ المُفتاح حيث يشتهي، ودفعت الباب في أملٍ كاذب بأن ألقى هواءً مُنعشًا، نظام التكييف لا يعمل، صحت:

- «عربي..! عربي..!».

فَزِعًا حضر.

قُلت بغضب: «نظام التكييف ما له..؟!»

- «والله يا دكتور الصنايعية كانوا شغالين فيه البارحة بالليل.. أنت عارف إن مواسير الدَكْت بعافية منذ أعوام.. وبيني وبينك الكلية أخيرًا تحركت ورسَّت المناقصة على شركة من الشركات الناشئة.. أصل الميزانية واقعة.. وأنت سيد العارفين.. الكل لازم يُرزق.. سيطول الأمر كثيرًا.. الصنايعية بدأوا من هذا المبنى.. يعملون فقط بالليل».

تأففت.

- «ماذا...؟! وكيف نحتمل هذا الحر...؟ تهريج..! من يتحمَّل هذا في ذلك الزمن...! أنعيش في عشرينيات القرن الماضي..؟!»

وعيت أنني أهنته عندما قُلت، «من يتحمل هذا»، ولكنه لم يلحظ.

– «والله يا دكتور معك حق.. أنا لا أعرف ماذا أقول لك.. ولكني سأتابع العمّال بنفسي.. سأجعلهم يسرعون قدر الإمكان..».

– «طيب يا عربيّ روح أنت أعمل القهوة».

التف ثم لاحقته:

«اِسمع، دكتور منصور في مكتبه...؟»

– «حضرتك لا تعرف..؟!»

ارتسمت على وجهه دهشة مُهجنة بقلقٍ ما.

– «ماذا...؟!»

– «دكتور منصور تعب منذ يومين، ونقل إلى المشفى في حالة حرجة.. زوجته نشرت الخبر على «Eterni me» – آبدي[4]، قالت إنه اشتباه في جلطة في المخ.. ربنا يحفظنا.. لابد أنك من كارهي النت يا دكتور».

– «لا حول ولا قوة إلا بالله، لا يا عربي.. ولكني لا أتابع».

4- Eterni me.. - آبدي، موقع يقوم على الذكاء الاصطناعي، يجمع الأفكار والذكريات أثناء حياة الشخص عن طريق المحادثات الإلكترونية والمنشورات والصور ثم ينشأ له بعد موته بديل دجيتال يستمر في التفاعل مع المحادثات كتابةً وصوتًا ويعبر عن أفكاره ويتفاعل تمامًا كأنه حي.

– «يعني لا تملك حساب على آبدي..؟!»

– «أملك يا عربي، لكني لا أفتحه.. مشغول هذه الأيام قليلًا»

– «تحب تشوف كلامها..؟!»

– «لا يا عربي شكرًا.. روح أنت».

سقطتُ في كرسيَّ فالتصقتُ به، دفعتُ أليتيَّ المعرقتين فيه يمينًا ويسارًا، بركَ ظهري للأسفل باحثًا عن راحةٍ، أعلم أنها مستحيلة، أعطيتُ عقلي مِساحته من التفكير الصامت، عليَّ أن أصمُد ما يقرب من النصف ساعة لأتعاطى قهوتي وأرحل، الحرارة العالية تصنع من الغرفة برَّادًا مغليًا قابعًا في قعر سقر. وقعت عيناي إلى سطح المكتب، تركيزي يكاد يكون مُلامسًا لصفرٍ خامد، لمحتهما، مظروفان يتوسطان أعلى مكتبي، وضعا بعناية حتى ألمحهما بمجرد جلوسي على مكتبي.

لا شيء موجب الحدوث في تلك الغرفة غير تفحصهما، العازفان الأخيران بمدينة الموتى، شجرتا الخلد وسط صحراءِ الفناء الجرداء.

فتحت أولهما.

الباصق كريمًا نوعًا ما، لا يدَّخر سوائله لحرب مياهٍ أُخرى وَشيكة..

إخطار..

«السيد الدكتور/ خالد يحيى كامل... بعد النظر في الطلب المقدم في آذار عام ... بخصوص مد فترة أبحاثك عامًا إضافيًا ... فقد قرر مجلس الكلية بإجماع الـ... نظرًا للعبء المادي الكبير الذي تتكلفه الأدوات والمعدات من شحن ونقل وتركيب... رفض الطلـ...».

مُزِّق خيط الهواء الرفيع في حلقي.

رفض...؟!!

اللعنة على الراء والفاء والضاد...!

فزِزتُ والخطاب في يدي المرتعدة يهتز، إجتاحني يأس يكفي العالمين، فكَّرت في أن كل مساعيَّ في سنوات عملي آنت لها النهاية، أهملتُ أحشاء الورقة المُترسة بتسويدٍ مُعتاد، تسارعت نظرة مني فوق الديباجة النهائية في آخر سطرين:

«الرفض جاء بتوصية مباشرة من د. توفيق حامد المشرف الثاني على رسالتك، وعليه فيجب الانتهاء من أبحاثك عن العوالم المتعددة بآخر العام كما تنص المادة المؤشر عليها برقـ...».

خَدِرَت أعضائي، فتجمدتُ حيث أقف، إمتدتَ صدعُ الدماغ أطرافه. قانونيًّا، العام الحالي هو آخر عام لي بأبحاثي، لم أُكمل غُرفة القفز بعد، ولم أعرف معادلتها الجامعة، أنا في ورطة.

صُدمت من رفض طلب التمديد الذي حمل توصية من د. منصور رئيس القسم نفسه، لمسني شك تجاهه سرعان ما أخمدته، د. منصور يراني دائمًا كابنٍ صغيرٍ له، الأمر كله عند توفيق، بدا لي أنَّه أستغل تعب د. منصور للتوصية بالرفض!

هرعت إلى الخطاب الثاني.

يداي لا تزال ترتعدان، جبيني يقطر عليه قطرات من العرق.

فتحته.

الباصق أكثر كرمًا.

إخطار..

«السيد الدكتور/ خالـ... نظرًا الحالة الدكتور منصور الصحية، فقد تقرر وضع د. توفيق حامد كمشرف أول على أبحاثك إلى حين يعود د. منصور بالسـ...» تحت على الشمال ختم الدولة: رمز نبالة قديم مُكون من نسر يرتدي سُترةً واقيَّة وخوذة عليها شعار الحزب الحاكم، وفوقه ختم المجلس الأعلى للجامعات..

زعقت هامسًا إلى نفسي: لم يجدوا إلا توفيق...؟!

دخل عربيّ المسكن، إستقبلته على الباب، خطفت القهوة وتَمَزَّزت بَشيشَها الثقيل.. صارت النشوة البدنيَّة في سائر جسدي.

- «عربي، دكتور توفيق هنا...؟».

- «كان هنا، انتهى من محاضرته ومشى».

- «متى محاضرته القادمة...؟»

- «المفترض بعد الغد.. هناك شيء يا دكتور..؟»

رَبت على كتفه، وقُلت وأنا استشعر يأسًا:

- «لا شيء يا عربي.. تسلم يدك على القهوة.. سآتي له بعد غد».

شربت القهوة سريعًا، أتيت بالإخطار الأول من على المكتب وطويتهُ على الثاني ورحلت، فكّرت في أنَّ الحياة تُعاندني كما تحب أن تفعل، ولكنها تجود عليَّ بعبثٍ غاشم قليل هذه مرَّة.. إنفجرت دَاخلي رغبة شديدة برؤيتها على الرغم من خلافتنا الدائمة.. «داليا».. السَكَن، الحالة التي تداهمني أينما ذهبت، الأعماق النائية لحلاوة الدنيا، موجات تحمل السمك والطير، تحمل الشمس والقمر، تحملني وتحمل البحر، سَألت الـTBF عن رسائل منها بينما أشغِّل محرك السيارة، آسف، لم تصلني رسائل من زوجتك دكتور خالد.. انطلقت إلى البيت من وسط القاهرة، لاعنًا الكلية، وتوفيق، ونادر، ويوم الثلاثاء، ولم أنسى بالتأكيد الدائري وكثافاته المروريَّة التي لا تنتهي.

***

- فصلٌ ثاني -

«١»

ما أن تخطفني الوجود داخل تجاويف الزمن، المُشكَّلة هندسيًّا، على شكل مثلثات ودوائر ومربعات متداخلة ومعقدة، حتى يصفني من فوره إلى جمهوريَّة النَعَام، قُذفت في لحظتها كنطفةٍ أُجبرت بلا خيار نحو السعي إلى عالمٍ مجهول، كنت في كبد السماء، من قوة الدفع، معلقًا فوقَ الأرض ببضعة أمتار، بُسِطَت أطرافي كطيرٍ صافاتٍ، تخلل رئتيَّ كمٌّ من هواء جديد، تناقصت قوة دفعي سريعًا وأدركت بداية سقوطي، صرخت صرخة طائر مذعور، ولو رأيت سحنتي وقتها لضحكت بهستيريَّة فمي الصارخ المَفتوح على مصرعيه، ولِسقوطي الذي يحمل أطنانًا من الكوميديا السوداء.

أدركت فشلي، يبدو أنني لست محظوظًا مثلما كنت في قذفتي الأولى من ظهر أبي، وعيت أني أخوض سقوطًا حرًّا نحو مركبة بثلاثة إطارات تجبو على استحياء، هبطت على ظهرها هبوطًا عنيفًا، تكاثف عفرها، وتناثرت أجزاؤها الصغيرة من هشيم الزجاج والبلاستيك، شعرت بكامل الاصطدام، بدا لي أنَّه لم يُغشَ عليَّ إلا لحظة.

بذلة القفز، «الرداء والخوذة والنظارة»، أدوا أدوارهم بتفانٍ، باستثناء بعض الكدمات في أنفي.. وجانب فمي، وأماكن مُتفرقة في جسدي لم تصلها معدَّلات الأمان، تأذت العربة أكثر مني، تهشَّم سقفها وقُدر (مع الأسف) لي النجاة لمواجهة مصيرٍ محتوم.

الإحداثيات المكانيَّة التي رسوت بها هي نفسها التي انطلقت منها، صعيد الأرض المنخفض في جمهوريَّة النَّعام وتباينه عن صعيد الأرض في جمهوريَّة مصر، هو ما أدَّى إلى ذلك الاصطدام.

لم تكتنف جمهوريَّة النَّعام بذلك الترحيب الحار، بل دعَّمت كرم ضيافتها الجوَّاد، بأمطار، وليلٍ حالك، ورعد مُفزع، أجواء مناسبة لدراما رعب رديء!. نهضت أزيح الرُّكام، أحاول حث أوصالي نحو إخراجي من سقف العربة التي انحنى معدنه، تفحصت محيطي، زحام ومارة وأناس كُثر،

كأنها ساعة ذروة ليليَّة، تجاهل الجميع الحادثة وما أحدثته من جلبة، إلا ثلاثة أو أربعة وقفوا موجهين أنظارهم نحوي في هدوء تام وبرود أعصاب لا متناهٍ، عجبت من منظرهم في أوَّل الأمر، كادوا يكونون عرايا إلا مما يستر العورة وبعض الأجزاء المتفرقة من أجسادهم، يرتدون أسمالًا ممزقة ومتربة، لون بشرتهم أمهق بلا حمرة دم. صرصر شيء، أدركت أنَّه باب العربة، خرج السائق ودمه يسيل بين عينيه، يرمقني بلا حراك، كان صنمًا هو الآخر، يتراءى لي في عيونهم ثقة غامضة بلا مبرر تتطاير من صفحات وجوههم البائسة المتسخة، هيئتهم العشوائيَّة جعلتني أعتقد من أوَّل وهلة في كونهم بشرًا بدائيين، لكنهم ليسوا كذلك، تتضارب الوقائع وتلطمني المشاهدات، تسود المدنيَّة، وتسير العربات، وترتفع البنايات، وإن دبَّ فيها البُهتان والقِدم، وكانت في معظمها أطلالًا مدمرة، كما لو مرَّت على المدينة قاذفات دكتها دكًّا مُنذ زمنٍ بعيد.

نهضتُ مُترنحًا، أُعاني من دوار وأبعاد غير طبيعية في الرُّؤية. نزلت من أعلى العربة المهشمة وسط حذرٍ من هؤلاء البشر الغريبين، وطئت بركة مياه عكر تكونت من وابل المطر الكئيب، اقتادتني قدماي في هرولة، بأنفاسٍ غير منتظمة، إلى زُقاقٍ ضيق عند أول عَطفة. لم أكن أصدق نفسي، لقد عبرت بنجاح، نشأت نشوة في خلاياي تُعادل عظمة الإنجاز، إرتميت تحت سقفٍ بجانب طللٍ ردَّ عني المطر، تُطوقني أكوام من

الصخور بقايا إنهيارٍ ما، وبعضٌ من إطارات السيارات الغريبة التصميم، ألمح قطعًا من الخُرْدَة تعلوها حمرة الصَّدأ، أرتعد من البرد، تكوَّمتُ على نفسي، يستمر البرق في برقه والرعد في رعده، تتابع رعود السماء، وتتكوَّم نفسي أكثر فأكثر.

استلقيت على ظهري وأسندت رأسي إلى الأرض، إن صحَّ أن أكتبها بلفظة «الأرض»، لاح لي وسط السماء الداكنة المُلبدة بالغيوم، ثلاث أقمار تشفها السحاب.. أي أرضٍ تلك التي تمتلك ثلاثة أقمار...؟! لا أعلم، لقد بدو لي صغار الحجم، يشكلون معًا مثلث متساوي الأضلاع تقريبًا. الأقمار الثلاثة صَغيرة نسبيًا بالنسبة للقمر الذي اعتدت رؤيته من قرانيدة شقتي بالقاهرة، حجم الواحد منهم لا يتعدى حبة عدس كبيرة، قد يكون كلٌّ منهم معلقًا على مَسافة بَعيدة، فرأيتهُم صِغار الحجم، لا أستطيع الجَزْم، في غالب الظن، وفي اعتقادي الخاص، كانت تلك الأقمار عتيقًا، في أثناء تشَكَّلهم كتلة واحدة، وانقسمت تلك الكتلة إلى ثلاث كتل منصهرة، بردت وصنعت ثلاثة أقمار، لا قمرًا واحدًا، قد يكون الفارق بين قمر الأرض وذلك القمر المنقسم إلى ثلاثة تغيرًا طفيفًا.

منذ هبوطي العنيف وإلى لحظة رؤيتي للأقمار فترة لم تَتَخطَ تقريبًا الخمس دقائق، عانيت خلالها من صخبٍ غير مفهوم، استكنتُ على التراب فاستكانت حواسي قليلًا، وعيت

الصخب شيئًا فشيئًا، لا يَتوقف، بارد، مُكرر، كانت نداءات تصدح من مُكبرات صوت ضخمة معلقة على البنايات، كنذير حرب دائم أو أذان موحد لا يصمت في سماء جمهوريَّة النَّعام بأكملها. وابل المطر لم يتوقف عن الهطول وأنا أسمع بوضوح الصوت الآتي من المُكبرات يتزامن مع الشاشات العملاقة في أعالي البنايات، كانت بنايات معدنيَّة ذات إرتفاع شاهق، سليمة على عكس البقيَّة، تكادُ تلامس السحاب، ولانهيار ما حولها بدت الشاشات المعلقة عليها مُستجلية للأزقة النائية والبعيدة عنها بعشرات الشوارع، يَظهر على الشاشة مصدر النداءات فتاة حليقة الشعر..

كانت أول فرد في كتيبة الصُّلع التي رأيتهم منذ أتيت إلى هنا، ترتدي حلقًا دائريًا وواسعًا، يتدلى من أنفها الصغير، بيضاء بلا حمرة دم كالبقيَّة، ترتدي جلدًا من الأبيض الخالص الملوكي، يغطيها بأكملها عدا بطنها، وكامل ظهرها حين تلتف، تمَعَّنتُها بوقاحة في نزوة بصريَّة عابرة لأتأكد ما إذا كانت أنثى أم يهيأ لي ذلك، قسماتها لا تحمل أي امتيازات أنثوية، لا التواءات، لا انحناءات، لا شيء غير أنني لم ألحظ زغبة شعر واحدة علت الظاهر منها، بالإضافة لشيءٍ من صوت رفيع يخرج من حلقها، إعتبرتها أنثى بالظن، وكانت تسرد أخبارًا وتفاصيل وتكررها كمقطعٍ مُسجَّل سئم من تكرار نفسه: مرحبًا بكم أبنائنا.. أبناء جمهورية النَّعام.. معكم «مادلين»..

المتحدثة الإعلامية لجمهوريتنا العظيمة.. بزغ الصبح.. هلمُّوا بنشاط إلى أعمالكم بتفانٍ وحب.. مباركين من هماسنا الأعلى حفظه الرَّب لنا.

صدحت مقطوعة غنائية حماسيَّة، ثم تضاءل صوت المقطوعة حتى انعدم فأكملت:

قبل أن أوافيكم مواطنينا المخلصين بجديد المستجدات.. أتمنى لكم يومًا هادئًا في أمان بلا شغب.. وأذكركم بتناول الإفطار وشرب مياه كافية ثم قراءة وردكم اليومي.. لا تنسوا أيضًا أن تتنبهوا لأي نداء كان.. كالذي تسمعونه الآن.. إليكم أخبار طليعة اليوم.

• أسفرت غاراتُنا عن مَقتل ٣٣ من أفراد «الأندَرويَنْت» في الشرق المشاغب إثر اشتباك من قوَّات أمن الجمهوريَّة.. تنعي الحكومة بخالص الأسف أهالي الضحايا الذين ذهبوا ضحية أفكارهم الكافرة.. ويهمنا كما تعرفون أن نحيطكم علمًا بأن هذه الغارة أتت بعد دعوات من أفراد المجموعة المَذكورة للشغب والثورة وتخطيهم حدود مُقدساتنا وأعرافنا التي شرعها لنا أجدادنا وبذلوا دماءهم وتضحياتهم من أجلها.. وتعد هذه العمليات خطوة هامة كما صرح «الهمَّاس الأعلى» (حُفظه الرَّب لنا وتعاليمه) للقضاء على الإشاعات التي تهدد

سلم جمهوريتنا.. خصوصًا بعد إستجابة فئات كثيرة من الشعب لهذه الألاعيب بعد انخفاض مواردنا من الكذب لأسباب اقتصاديَّة تعسفيَّة.. وفي إطار بيانه عشيَّة البارحة دعا «همَّاسنا الأعلى» (حُفظه الرَّب لنا وتعاليمه) كافة الأطراف إلى ضبط النفس والوقوف بجانب جمهوريَّة النَّعام حتى لا نعود لعصور الظلام والخراب من جديد.. ووجب تنبيهكم أن الحكومة تبذل قصارى جهدها لتحقيق مطالبكم المتمثلة في إنجاب جيل جديد من كُتَّاب ومُؤلفين جدد لكتابة أكاذيب وخدع جديدة تقنعكم وتريحكم.. كما تعمل الدولة على زيادة عدد مصانع اللقاح الوطني ومصانع الأكاذيب والشاشات المرئية والصحف.. ونريدكم أن تعلموا بأننا نعترف بنقص مواردنا من الكذب، ونقص نسبة اللقاح في الطعام والماء والدواء.. ونُقدِّر غضبكم جدًّا.. هذا وقد أصدر «الهمَّاس الأعلى» (حُفظه الرَّب لنا هو وتعاليمه) فرمانًا بمحاسبة المقصرين من العمَّال والموظفين والكُتَّاب والأطباء مُنتجي اللقاح وتَطعيمه للطعام وكل ما هو قائم عليه.. ويدعوكم (حفظه الرَّب) بألا تسمحوا لأحد بالتدخل بيننا وبينكم.

ونُذكركم بأن التضحية بالحقيقة في سبيل البقاء والأمان هو ما أجمع عليه أجدادنا، هذا لأننا وجدنا «حَقيقتنا الحقيقية»، لن ننسى كم الخراب التي حلَّ بنا كلما تمردنا على أكاذيبنا، لن

ننسى حقنا في حياة جديرة بأن تعاش بأمان وسلام وسعادة، ومن أجل ذلك الحق تغلبنا على أنفسنا يوم جعلنا الخداع أساس حياتنا الذي أراحنا من النزاعات والحروب ومُشكلاتنا الأسريَّة والاجتماعيَّة، يوم وجَّهنا لأنفسها ما يرضيها وليس ما يخدعها، كما يشاع من قبل الشرق المشاغب. هذا وقد أنهى «الهمَّاس الأعلى» (حُفظه الرَّب لنا هو وتعاليمه) حديثه بتحذير قوي للباحث والقائل عن أي شيء غير حقيقتنا، بأن كل بحث عن الحقيقة سوف يدمر نفسه بنفسه، ولا عزاء ولا تهاون في ذلك.

صدحت صوت المعزوفة ثانية ثم انخفضت.

- ثانيًا، الاقتصاد، إرتفعت حجم صادراتنا من مواد الكذب في الشهرين السابقين ٢٠٠٪.. وقد يكون ذلك هو ما سبب نقصه لدينا.. هذا وقد أدت تلك الزيادة إلى رفع دخلنا القومي أضعاف ما كانت عليه.. نريدكم ألا تقلقوا.. أنتم في أمان.. أنتم مواطنون في غاية السعادة.

صوت معزوفة قصيرة.. ثم..

- وأخيرًا مع أحوال الطقس، يسود اليوم طقس مُعتدل على كافة أنحاء الجمهوريَّة.. السماء صافية.. ولا وجود لأمطار.

إستمتعوا بالأجواء.. يومٌ سعيد.

وقتها لم أفهم شيئًا مما قالت غير أن البلاد في حالة شغب، وأن هناك من قتل، وَعيت خطأ ما، هي قالت السماء صافية ولا وجود لأمطار، وقالت إن الصُبح بَازغ، فمددتُ يدي إلى خارج السقف وأنا مستلقٍ، أتحسس قطرات الماء مكذبًا عَينيّ.

هُناك مطر لا ينقطع، ولم أرى صُبحًا، ولا أثر لشمسٍ، ولا أحد هُنا يكلف نفسه بالبحث عنها.

لم أعبأ، فانتزعني بغتةً نومٌ عميق.

***

ثلاث رقع ورقيَّة مرقمة برقم «٢»، وذكر فيهن خالد أوَّل يوم جاء به إلى جمهوريَّة النِّعام. دقق صحة نشرة الأخبار المذكورة اللواء «ت.أ»، أحد قادة وزارة الأعلام وقتها، ورفض بدوره ذكر اسمه.

***

«٢»

استيقظت، رمقت السماء المَليئة بسحابٍ مُدلهم وقد اصْطَبَغ بلون أصفر معتم كحال تُربة مُكفهرَّة، لا تختلف كثيرًا عن سماء «القاهرة» التي لا تكاد ترى بها وميض النُجوم ليلًا، ولا قرص الشمس نهارًا. مازلت مستلقيًا وقد انبلج الصبح، فرمقتُ الشمس رمقةً عابرة وَاضعًا يدي على عيني اتقاءً؛ ظنًا بأنها قد تؤلمني، ولكنها أبت أن تفعل، لاحت نجمًا صغيرًا نسبيًا، ما فسَّر لي بُعمق الضوء الضعيف (دائمًا) لجمهوريَّة النَّعام أثناء النهار، فسَّر ذلك أيضًا لون بشرتهم الأمهق التي لا يكاد يلامسه شعاع حارق، ومصابيح الإضاءة التي لا تُغلق ليلًا أو نهارًا.

أخرجت نظارتي الطبيَّة من جيب البذلة، وضعت مكانها الواقيَة. النداءات الصادحة في المكبرات لم تمل ولم تنقطع، ومع ذلك، كُنت في نوم عميق بلا أحلام، يُقال إن الإيقاع المكرر لا يوقظ النائم الطَّبيعي من نومته، فماذا عن شخص غارق في الإرهاق قطع كمًّا مهولًا من السنوات الضوئيَّة مُنذ ساعات..؟! حتى وإن كان ذلك الانتقال في لمح البصر...!

استيقظت فزعًا حين ارتجت الأجواء بصخبٍ جديد، بإيقاع مُغاير عن برودة الإيقاع الدائم في مُكبرات الشاشات العملاقة، صوت غاضب ومحتج.. تَسللتُ بخطى لصٍ بارع خارج الزُّقاق، يسترق فضولي النظر إلى مصدر الصوت، الشارع الذي هبطتُ فيه وكان مزدحمًا عن آخره ليلًا، كأنه وقت ذروة، أصبح صباحًا خاويًا إلا من قلة قليلة يمكن عدُّهم بأنامل اليد.

الصوت الغاضب قادم من عربةٍ وحيدة تسير ببطء، تصميم العربة يشبه إلى حدٍّ كبير تصميم التي سقطت عليها، فعلمت أنه تصميم موحَّد من مصدر موحَّد، الملاحظ الطبيعي يرى اليأس لائحًا على سائق العربة، لحيته مهملة، عيونه عابسة شبه مُغلقة، جفونه المنتفخة أحاط بها السواد والإعياء، وضع على سقف العربة مُكبر صوت صغير، وثبته في إهمال جلي بحبال مُهترئة، منظر المكبر والحبال والعربة يبدوا كصاحبهم، في حالة يرثى لها، يُمسك بميكروفون صغير كالموجود في سيارات الشرطة في عالمي، ما زلت أتذكر يديه الممسكتين بالميكرفون والمقود لما لاحظته فيهما من هزَّة ارتعاش سقيمة.. كان يزعق مُحتجًا.

يزعق بحشرجة، يزعق كالمجنون: لا! لا! لن أيأس من هذا..! لن أيأس من هذا..! هل تسمعونني..! لن أيأس..! لن ندعهم يتحكمون بحياتنا..! اسمعوني..! اسمعوني..! الحقيقة

موجودة أمامكم يا عالم..! أنت لا تستطيع أن تمنع الحقيقة أيها الأحمق.. لن تستطيع.. اتركوا عبوديتكم لأنفسكم.. لقد جاء الوقت المناسب.. لقد جاء الوقت المناسب..! لا تسمعوا لهم.. فقط أغلق أذنك بامعتوه.. أغلقه.. غض بصرك يا مغفل.. لن أستعمل منتجاتهم.. لن أكل.. لن أشرب.. لن أضاجع فتياتهم.. أتسمعونني...؟! سأموت هنا.. الأندروبوست يعيدون لنا حريتنا الحقيقة.. وأنتم تثورون من أجل مزيد من الأكاذيب...؟! ألا تفقهون...؟! كنا معهم.. كفانا خداعًا.. توقف عن استعمال منتجاتهم.. فقط توقف.. استيقظ.. انظر إليَّ واستيقظ.. يحيا الأندروبست! يحيا الأندروبست!

إستمرَّ في صراخه قاطعًا الطريق حتى آخره، إبتلعه الأفق واختفى، تضاءل صوته حتى سكن، وظلَّ صوت النداءات الصادحة في مكبرات الصوت والشاشات المعلقة.

إنتهز عقلي خلاء الشوارع وانطلقت بلا إرادة في السير نحو المجهول، أطالع بعيون غريبة وعنق مُشرئبة بيوتًا باهتة وذكاكين وحوانيت مغلقة وإن كانوا جميعًا تركوا قرينة العرض مفتوحة، أتفحص الوجوه القليلة التي لم تتعجب من ملابسي المختلفة، لم تلتفت لي القلة السائرة بالشوارع على الرغم من خلاء الشوارع الشبحي، لم أكُن أُرى تقريبًا، كأنني لستُ غريبًا، لاحظت بعد مدَّة أنهم كذلك مع بعضهم البعض أيضًا.. لا يعبأ أحدُّهم بالآخر.. هكذا داعبتني الغربة من أول يوم.. الغربة التي إعتقدت

أني أعرفها وأنا ماكث بالأيام بمسكن الطلاب في مدينة «الصَدْر» وقت دراسة الماجستير بالعراق، بالطبع كانت غربة موجعة هي الأخرى، ومع ذلك لم تكن غربة حقيقة، هم فقط يسمونها كذلك، في ظاهرها غربة لاذعة، وفي باطنها شوقٌ مفعمٌ بأمل.. أمل لقاء الأحباب، أو حتى لقاء الأعداء...! غربة اليوم غربةٌ مغايرةٌ كليًا عما شعرت بها وأنا أدرس وقتها، غربة اليوم لا تحمل ذرة أمل، مُجرد التفكير الآن في الأمل هو ضرب من جنون مضمون، فقط تذكر بأني معتقل في «ديجور» في عالم آخر غير عالمي، يقتل فيَّ خيالًا كان طموحًا يومًا ما، وأنا الذي إشتكيت ليل نهار من إنعدام الخصوصية في القاهرة..!

كنت أقول قاطبًا بأننا لم يكفنا مراقبة الله، فراقبنا بعضنا بعضًا! الأمر اختلف، فقط، حين فقدت ذلك الخيار، أصبح المفقود شيئًا جميلًا، فاللعنة على الفقد الذي يجعل المفقود جميلًا.

***

رقعتان ورقيتان يحملان رقم «٣»، إحداهن نصف حجم الأخرى.

«٣»

لا جينات زائدة، لا جينات منقوصة، الاختلاف بين أناس العالمين ليس كما توقعت، هُم بشر كأي بشر، في الوقت الذي أخذتني فيه قدماي بعيدًا عن مكان هبوطي، كنت ألاحظ كل ما أراه وأحفظه حتى أتمكن من تدوينه لاحقًا، لم يُكن من الممكن العبور بورق من غرفة القفز، يتلاشى فورًا كل ما هو ليس صليدًا أثناء العبور، البذلة والخوذة والنظارة صُمموا بعناية من أجل ذلك، ولولاهم كُنت أنا نفسي تلاشيت كغبار منثور. حتى النظارة الطبية التي وضعتها في جيبي، لم أكن متأكدًا من احتمالية صمود ذراتها وتماسُكها في جيبي.

المحلات مغلقة كأن الكل نيام، سارت قدماي بعيدًا حتى ابتلعني شارع مُخصص لبيع كل ما هو أخضر، يتلألأ الشارع باللون الأخضر الناضر بدرجاته المختلفة، يسود خضار قشرة البطيخ الغامق، أسير بجانب الدكاكين والمحلات بفَتارينها المفتوحة كأنني أسير في غابة من ملء الخضار على الجانبين، وقفت أمام أحداهن، أتوّضح تلك الثمار الغامضة التي تشبه

الخضروات، لا يمكن أن أسميها خضروات بطريقة مباشرة، هي فقط تُشبهها، تقززت، تقلصت أمعائي، اليرقات تخترق جسد الثمار، يرقات كُثر، غثيت، وضعت يدي على فمي، أتمالك نفسي، أتفحص تلك الثمرات التي تشبه الليمون، كبيرة نوعًا ما وبأحجام مختلفة، ولها بُرعم إضافي، قرن مثل قرون الباذنجان، ملتف حلزونيًا، صُفّت بالترتيب من حيث الحجم، من الأكبر حجمًا إلى الأقل حجمًا، كل حبة ثمار عليها ورقة، موضّح عليها شيئان:

«نسبة اللقاح الوطني» في الثمرة الواحدة، و«عدد الكلمات» المراد قراءتها للشراء كيلو جرام واحد.

حبة الثمار الصغيرة مثلًا مكتوب عليها:

«١٠٪ لقاح وطني، عدد الكلمات: ٥٠٠ كلمة أو ما يعادلها».

أما الكبيرة:

«٦٠٪ لقاح وطني، عدد الكلمات: ٣٠٠٠ كلمة أو ما يعادلها».

رحلت سريعًا.

لم تعد معدتي تتحمل منظر الدود المُتلوّى، وبعد كثير مشي جفّ حلقي، وقلّ اللون الأخضر تدريجيًا، وظهرت فَتارين تعرض الطعام المُعلّب بألوانه المتعددة والمتباينة، وكان كسابقه، مكتوب عليه نسبة اللقاح وعدد الكلمات.

عدد الكلمات أو ما يعادله هو المقابل دومًا، إذا أردتُ منتجًا صغيرًا، يكون المقابل قراءة أو سماع مقال صغير به معلومات كاذبة ومَغلوطة عن أي شيء، وإذا أردتُ المنتج الكبير فيجب أن أكون على استعداد لقراءة مقال كبير كامل أو كُتيب صغير.

أكملت قدمايَّ السير، وهي مثلي، لا تعلم إلى أين هي ذاهبة، أخذتني إلى ما لم أرهُ من قبل، إلى ما لم يَخطُر على بالي حتى أن أسمع به، بانتهاء الشارع المُفعم بالدكاكين، وجدت نفسي في حيّ سكني خالٍ من أي حركة، يكاد يكون خاليًا من الحياة، دخلته، الناس تلتفت إليَّ، يلاحظونني، عكس من قابلتهم في الأحياء السابقة، ما إن وطأت الحي حتى خَدجتني القلة الموجودة بالشوارع حدجة إستفار، كأنهم يخشون الغرباء، أو متأهبين لهجوم دخيل أو معتدٍ، جالسين في الطرقات كشحاذين مُتمرسين.

ذكرني الحي بمُخيمات اللاجئين التي أقرأ عنها في كُتب التاريخ، ولكنه مُخيم غريب، فتنجلي من أعينهم نفس نظرة الثقة المعهودة عن جميع من هُنا، النظرة غير المبررة بالنظر إلى ملابسهم وطريقة معاشهم، أجسادهم في غاية الوهن، ناحلة، يكاد العظم ينضح من أعلى الجلد، يعيشون مجاعة، وهو ما كان مختلفًا عن بقيَّة ما رأيتهم قبل أن أدخل ذلك الحي، من رأيتهم قبلًا كانوا طبيعيين في الوزن.. إنتقلت من بينهم أخترق طرق الحي المخيف في ريبةٍ وعلى عجالة، تسارعت خطواتي حين رأيت ثلاثةً منهم بأسمالهم المُمزقة قد نهضوا بالفعل من أماكنهم، إلتصقوا بمُحيطي

حتى افتحمت أنفي أنفاسهم الكريهة، أبطأت خطواتي ونظرت إلى الأرض في خشوع وكان في مرمى بصري قدم أحدهم، ما زلت أتذكر تلك اللحظة، كان حافيًا، بأظافره الزرقاء المتآكلة وقد اشطر ظافر أصبعه الأكبر إلى شطرين، جُزء مفقود وجُزء ما زال. أغلقت عيني من الرعب وأنا منكس الرأس، تأهبت لاستقبال هجوم ما، وبدون وعي... عبرت ثلاثتهم، وحين فتحت عيني، كانوا على بعد أمتار ما زالوا ثابتين، تنهدتُ وأنا أنظر حولي مُتفحصًا المكان على استحياء، أقرأ عبارات جداريَّة مكتوبة على البيوت الباهتة بحجر جيري أبيض، وبخطٍّ في غاية السوء.

«الحرية للحقيقة...!»

«أريد.. أن.. أرى».

«الشرف في الموت جوعًا.. لن أتعاطى كذبهم».

«لتكن الحقيقة ولنهلك نحن».

العبارات كثيرة لا أتذكرُ منها إلا هؤلاء، المكان كلّه ملطخ برسومات غير مفهومة، ما زلت أذكر واحدة، رسمة قُسمت إلى نصفين بخطٍ رأسي، نصف مكتوب فيه كلمة «الحق»، ونصف آخر يُصور عدسة تنظر منها عينٌ مكتوب عليها «الأندرويست»، تنظر على كلمة «الحق» السابقة، وقد تغيرت كلمة «الحق» إلى «الباطل» في النصف الآخر من الرسمة.

كل ما رأيت في ذلك اليوم كان مقبولًا باعتباره عالمًا مجهولًا أسعى إلى فهمه، الجديد دائمًا ما يكون غريبًا، ما لم يكن مقبولًا أبدًا، هو ما أنا على وشط كتابته.

لقد رأيت وجهًا يُشبه إلى حدٍ كبير وجهي! وجه مرسوم على جدار كبير، كُتب تحته مقولة نُسبت إلى صاحب الوجه:

«ما نحن فيه وهمٌ وجداني جماعي، لا يُمكن إلقاء اللوم كله على الكاذب، يجب أن نمقُت حقيقتنا العاجزة بقدر ما نمقُت تلك السلطة تدفن الحقائق».

صُعقت من الشبه الرهيب، تحسستُ الوجه على الجدار بأناملي في ذهولٍ، لقد كان «أنا»..!

ترنحت سكيرًا متلفتًا، يلوح على عنقي تشتت دجاجة مُصابة بالجنون، تصطدم عيناي بذلك الوجه مرسومًا على معظم الجدران، يمينًا، ويسارًا، وعلى الأرض، مرسوم في كل ناحية وبكل الأحجام.

لقد كان حيًا سكنيًا على وشك التمرُد.

***

رقعتان ورقيتان مرقمتان برقم «٤٠»، وذكر فيهما خالد مشاهداته بحيِّ «الجنجاث»، وحيِّ «زولام» المتمرِّد.

- فصلٌ ثالث -

«١»

تأملت تفاصيلَ وجهي المليئة بالكآبة في مرآة الحمام، بعدما تقيأت كثيرًا في حوضه، جلست مصدومًا على صدريَّة المرحاض، الوقت مُتأخر والبرد يقرصُ أطرافي، الإنعتاق من النوم آخر ليل بارد، هو العذاب بعينه، نهضت من السرير أتمطى كهرَّة، أتمايل، أتبختر في روب به براح يكفي لعبور نفحة برد، يوم تمُّوزيّ غاية الحرارة نهارًا وغاية البرودة ليلًا، فقدَ الكوكب إتزانه عندما فقد ساكنوه عقولهم، أردت شُرب كوب مياه بعدما راودني كابوس مُزعج، هاجس عدم إكتمال غرفة القفز قبل المدة صار يتملكني بشدة حتى إقتحم أحلامي، نظرت إلى ساعة المنبه المنيرة على الحائط، تنير بثلاث ثلاثات...٣:٣٣.

تأففت، أُهمهم، نظرت لا إراديًا إلى «داليا»، تبدو غاطسة في نوم عميق، تزَحزَحَت البطانيَّة عنها من فرط حركتِها، حتى أُزيلت،

تأملت قسماتها التي لم يكن الدهرُ عليها هيّنًا، لم أنظر لها بذلك التمعُّن منذ مُدَّة، رقبتها التي كانت مشدودة درجة التمزق لم تعد مثل السابق، أظافرها المُتآكلة تكشف عن توترٍ دائم، أكوام من الشحم إنبجَّت من جانبيها لتعطي أثرًا متفرّدًا، بعدما مرت بسنوات، كانت عظام حوضها تنضح من شدة إعتنائها برشاقتها، أصاب الزمن أجزاءها بالوهن، نظراتي لا تحمل أي نوع من الغواية، ولو أنني كُنت أريد ذلك بضراوة أسدٍ لم يأكل منذ ما يقرب الشهرين.

هذه هي «داليا رحمان الطوخي»، أول حُب في حياتي، وآخره، زوجتي التي بدأ من عندها كُل شيء، نقطة المهد، ووقت الخلق.

السؤال الأول: «ما سر الحيكة التي تجعل من حواء أُس مشكلات آدم على مرّ العصور...؟!»

لم يكفِ داليا أبدًا حبها الذي يلازمني طوال الوقت، هالتها التي تلوح على بشيش فنجان القهوة، ضحكتها على صفحات الكتب والمرايا التي لا تزول مع الأيام، علاقتي مع داليا تفوق أي حب أفلاطوني حدث منذ النفخة الأولى، حب تحول مع الوقت إلى إدمان وتملك، أعتزل العالم حين تعتزلني داليا لأي خلاف أو مشكلة، لا أستطيع التركيز في أي عمل والعلاقة بيننا ليست على ما يرام، وهي دومًا كذلك...!

هذا هو السؤال الثاني: «لماذا تأخذ حواء دور الكائنات (النكدية) دائمًا حتى وإن لم تكن السبب في ذلك...؟!»

أنا وداليا كائنات تتغذى على بعضها، أو على الأقل كنّا كذلك، ما أفعله تفعله، وما تتطبّع عليه، أتطبّع عليه، وهنا بالتحديد، حدِّث ولا حرج...! أعتقد أن أول حالة عدوى نفسيّة في تاريخ الطب النفسي ستذهب لنا نحن الاثنين..!

داليا هي من لازمتها أرقام الساعة المُتشابهة في أول الأمر، تغلغل الأمر بها حتى صارت تزوم بها دائمًا، ومع تنبيهاتها المُستمرة لي بتلك «الإشارات السماوية» على حد تعبيرها، منذ فترة خطوبتنا وإلى الآن، صرتُ أتنبه لها حتى لازمتني، حتى إمتلكت كياني كما إمتلكت داليا.

كل طرفة عين إلى ساعة ما لا تخلو من أرقام متشابهة، حين أخبر الـTBF بأن يوقظني في السابعة، يخبرني بأنه: باقي على موعد التيقظ «٦» ساعات و«٦» دقائق، وحين أسأل زميلي د.صفوت ماذا يتابع هذه الأيام؟ يخبرني أنه شاهد بالأمس الحلقة «الرابعة» من الموسم «الرابع» من مسلسل ما، يحدث هذا عدة مرات يوميًا بدون مبالغات، كل تعاملاتي بالأرقام تتشابه حتى إعتدت عليها كل الاعتياد. داليا تقول بأنها ليست مُصادفة أن يكون يوم إعترافي لها بحبي هو يوم «٢٢/ ٢»، ولهذا أصرت أن يكون حفل زفافنا يوم «٩/ ٩»! لم أبدِ إعتراضًا وقتها على الرغم من عدم إقتناعي بما تقول، ونفسي تتأذى على الدوام من ذلك الحديث غير العلمي، كُنت أُجاريها إلى أن لامست جديّتها، وأصبح الأمر يُملي علينا، بدون وعي، هاجسًا كبيرًا في كل الموجودات التي تحوي أرقامًا

تُعد، لقد أصبحت أرى ما ترى..! واجهتها بحجة أنّه لا يصح أن تتحدث زوجة عالم في مكانتي بمثل تلك التُّرهات، لا يصح بتاتًا، وكانت حجة صادقة، ولكنها لم تكن السبب الأساسي، السبب هو تلك العدوى التي انتقلت إليّ، أقنعتها بعد عناءٍ بأن تذهب إلى طبيب نفسيٍّ، وقال لنا الطبيب رافعًا حاجبيه بشيء من التحذلق بأنها ظاهرة شاذة تُسمى: «مُتلازمة الإنتقاء الرصدي»، وهي تعني أن عقلك بدون وعي صار أكثر إنتباهًا للأرقام المتشابهة عن ذي قبل، وهي من الأساس موجودة حولنا، ولكننا نعطيها انتباهًا أكثر مما تستحق، لم تقتنع بكلامه، ولم تتناول الأدوية التي كتبها لها، أنا من تناولتها.

وفي الحقيقة، لم تغير الأدوية أي شيء، وعلى الرغم من ذلك، كُنت مُصِرًا بيني وبين نفسي على رفض أي تفسير غير علمي لما نمُر به، تعقّد الأمر كثيرًا، ووصل بنا التوتر إلى صراخ هيستري في وجه بعضنا البعض، وهو ما لم يكن من الممكن حدوثه، ومن يومها والعلاقة بيننا سيئة للغاية، وساهم في إساءتها أكثر وأكثر إنشغالي أيامًا في أبحاثي.

شربت كوب مياه وجلست على مقعد البيانو الخاص بدالیا، وجدت عليه صورة عقدٍ مُبرم لكتابها عن الأرقام.

Signed..!

اسم الكتاب: «رسائل أخرى من الإله».

صُدمت، تقيأت في الحوض بقرقرة عالية، ستتحدث كافة الصحف عن زوجة عالم الفيزياء الهائمة بالأرواح والرجعيات التي لا سبب لها، ستتلاشى كل آمالي بمد فترة أبحاثي مددًا إضافية. خرجت من الحمام أتبختر كما أنا، في يدي منشفة صفراء أضعها على فمي، أستند على البيانو وأتناول صورة العقد، أقرأها ثانية، أشعر بالمرار وفي عيني دموع على وشك الإنهمار، ولكنها تأبى أن تنهمر، لماذا قد تفعل بي الإنسانة الوحيدة التي أحببتها كل ذلك...؟!

لماذا وصل بنا الحال إلى هنا...؟!

جلست على الأريكة التي إنحنى منتصفها من وزنٍ زائد، لطول مدة جلوسي عليها وداليا في أحضاني.

طلبت من الـTBF هامسًا بأن يضع ألبوم صورنا أمام عيني في شاشة وهميَّة، قلَّبها واحدة تلو الأخرى إلى أن إنهمرت دموعي أخيرًا، شاهدت مقطع فيديو قديم، جمعتُ الأحجار من قاع البحر وأهديتها لها.

كانت تغني والشمس تسقط على صفحة بشرتها لترسم عليها لون الغروب الذي لطالما أحبته، صوت ضحكاتها هو ما أبكاني، ضحكاتها التي زالت وزالت معها الحياة، استشاطت في عقلي ذكرى قريبة متضاربة، كانت تصرخ في وجهي ويداها تضرب صدري:

أنا وحيدة، لماذا تريد أن تنزع مني الشيء الوحيد الذي علم كم أنا وحيدة...! أنت لم تعد هُنا...! أنت لم تعد هُنا...!

كانت تقصد بـ«الشيء» تلك الرسائل الرقميَّة غير المفهومة، تحسبه رسالة من الله أو ما شابه. مؤخرًا وصلت من الأمر حد الهوس، بأنها لم تعد تستطيع العيش بدون رسالة واحدة يوميًّة، وصل بها الحال وقت إنقطاع الرسائل لأسبوع أن تتعاطى مُهدئات دون رابط، وبجرعات عالية، لا أعرف ماذا يجب أن أفعل، لا تقبل أي علاج نفسي، ولا تقبل مني أي حديث عن ذلك الموضوع حتى تكاد أن تفقد عقلها.

ذهبت إلى الحمام ثانية أغسل وجهي آملًا أن أخفي أي أثار بكاء واتجهت إلى السرير وإستلقيت بجانبها يقابلها ظهري في نفور.

- «تعمدت ألا أخبرك حتى أوقِّعه».

نبرة صوتها نبرة باكية، أردفت وهي تنهد:

- «الله لا يقف على الحياد.. أليس كذلك...؟ الله رأى ما فعله الكنديون بالأطفال الصينيين، وهو الآن يبعث لنا بتلك الرسائل عبر الأرقام، يجب علينا أن نفهمها لنوقف تلك المهازل..».

إنفعلت بإنكسار، فضلت الصمت، كُنت غاضبًا، غاضبًا بشدة، أردت سؤالها عن دخل الله بكل هذا، ما دخل الله بالأرقام التي تراها...؟! ولكنني فضلت الصمت، أعلم أن ما تمر به له

علاقة مباشرة بضعف يقينها بوجود الله وسط ما يحدث حول العالم من حروب وإبادات جماعية ومجاعات.

إستمرت في الحديث:

- «كان يومًا جميلًا، أليس كذلك...؟»

تعجبت من سؤالها.

أكملت:

- «أقصد يوم كنَّا على الشاطئ، في أول أيام زواجنا».

مكتبة بيت الحصريات

لقد رأتني...! وبالتأكيد رأت بكائي...! شعرت بالخجل، لم يفت وقت حتى شعرت بأطرافها تمتد إلى يدي، تأخذ بها وتضعها على بطنها.

- «أنا حامل يا خالد.. لقد حدثت المعجزة».

إلتفت إليها، فر من عيني مزيد من الدمع، وكانت هي الأخرى تبكي حتى ابتل كامل وجهها، تبادلنا القبلات وشرعنا في تلاحُم لم يحدث مُنذ شهرين.

هل ما قالته توًّا صحيح...؟!

***

« ٢ »

الضوء يضربُ عيني، الستائر لا تحجب شمسًا، إقترب أجل انطفائها، مفتوحة على مَسارعها، لم أقو على زَحزَحة جفنٍ واحد بعد، عَرَفت إنها مفتوحة وأنا مُغمض الاثنين، داعبني سطوع الشمس المزعج بغير ميعاد، أيقظني قبل صحوِّي بما يقرُب من النصف ساعة، بحثتُ عنها بيميني ولم أتحسس إلا ملاءة مُجعدة وباردة، فتحت عينيَّ بصعوبة وأنا أكور يدي وأفرك بها تجاويف عيني، الشمس تُؤذيني، وهي تعلمُ ذلك، عادة سيئة، أو جيدة، لا تملك «داليا» حتى إيقافها، بدأت زحفًا تجاه باب غرفة النوم العبقة برائحة علاقة لم تحدث مُنذ مدَّة، فرمونات فوَّاحة وعَرَق وحواس مُحفزة..! عندها كامل الحق في فتح الستائر. أسمع صوت البيانو الصادح يُعزف، أنظر إلى عتبة الباب وهي تبتعد وتبتعد معها جنبات الغرفة، فاحت فرمونات «داليا» بثقاب منخاريَّ أكثر وأكثر، تمدد الوجود فألقى الباب في حلق الأفق، بعيدًا، بعيدًا جدًّا...! صوت البيانو الصادح يرتجف ويتقطع، يعلو مرة، ثم يعلو على علوه مرات، الكون كله مُتواشج يصدح معزوفة

«وشيل الجدِّ» الآتية من خارج الباب، هُناك، وراء الأفق، حيث ربما تُوجد «داليا»، تداخلت العين في العين، لا أرى الأشياء جيدًا، لا أعلم ما إذا كان صوت البيانو يصدح بالخارج، أم يضرب داخل سوار جمجمتي! يرن، يَضربُ بشدة، سندان لا ينكسر، ومطرقة لا تمل.. تُزعجني طقطقة: «طق.. طق.. طق.. طق...!».

تَبدلت الرؤية، كأني أحلم، أجلس أمام مجموعة شاشات، صُفَّت بعناية فوق بعضها البعض، شاشة وحيدة مُتقدة، تسطع، جالس، أشاهد ما يعرض عليها، أرى والدي، ومعها فتاة ثلاثينية، تحمل طفلًا صغيرًا سنه الأول لم يُنبته فمه. من الذي يعبث بالكاميرا هذا...؟! إنه أنا! كيف..؟! أصاحبهم، نتسلق شيئًا، لم أرَ ذلك المكان من قبل، بدونا نتسلق جبلًا جليديًا كبيرًا، يصحبنا لُهاث واضح، وصلنا القمة، متلفحين بجلد بني داكن، عليه فروٌ أثقل من الأجساد، أشاهد نفسي في الشاشة، أثبت الكاميرا على سطح الجبل، وجهي مُفلطح أمام الشاشة، الكاميرا تشبَّر بنفاث زفيري، أمسحُها مبتسمًا، أغمغم بكلمات مكتومة، أبدو سعيدًا، لا شيء واضح مما أقول، اصطف والداي والفتاة حاملة الطفل، ركعوا على ركبهم، إبتسموا للكاميرا، أتمشى خلفهم، ثم أتهادى وفي يدي سلاح، مُسدَّس...!!

ماذا يحدث..؟! يا الله...؟!

الجميع يبتسمون، يبدون فرحين!

مررتُ على أبي، وضعت السلاح خلف رأسه، كان سعيدًا، مُبتسمًا!

أطلقت...! قتلته...!

يا الله ماذا أفعل...؟!

مررت بأمي.

توقف...! توقف...! لا تفعلها...!

أطلقت...! قتلتها...!

دور الفتاة، إنحنيت عليها، لويت رقبتها، قبلتها من شفتيها وأنا أضغط بسادية على عُنقها.. من هذه...؟!

أخذت الطفل منها.

قتلتها...!

وضعت الطفل على الأرض، مستكين يُحيط به الجليد، يضحك، يعبث بكلتا يديه، نظرت إليه طويلًا، بلا حول ولا قوة.. أصيح في نفسي باكيًا: لا تفعل لا تفعل...!

قتلته...! قتلته بدم بارد...!

قهقهت عابثًا بهيستيرية، وجّهت المُسدَّس إلى رأسي، أُشاهد نفسي، أتمنى أن أضغط الزناد معي!

قتلت نفسي، أجلس أمام الشاشة أبكي.. أبكي بحرقة، أسمع طقطقة: «طق.. طق.. طق.. طق..!».

تبدلت الرؤية، أُحملق في السقف، أشعر بعينيَّ تبزان من مجاويف جمجمتي، ترتعدان، جفني الأيسر يتراقص، أحضن نفسي بشدة، عروقي تنبض، أتعرَّق، أرتعد إرتعاد سقيم، هل ما رأيته حلم أم حقيقة...؟!

لا يشبه الأحلام بتاتًا...! هل إستيقظت من الأمس أم أحلم من البداية...؟! هل أُهلوس...؟! ماذا يحدث لي...؟! ماذا كان ذلك...؟!

أنا أجن...!

البيانو الصادح ما زال يعزف ألحان «توشيل»، مرتبكًا خرجت من الغُرفة، لاحظت البيانو يعزف نفسه بنفسه، مَضبوط على الوضع الآلي، داليا لا تجلس عليه، تجلس على الأريكة تحدّث والدها على «آيبدي» في شاشة هلامية، تضع سماعات الأذن غير متنبهة.

هدأتُ قليلًا، صنعت لنفسي كوب شاي معدَّل، جلست على الزاوية المُخصصة لاحتسائه بعدما أنشأتُ في المكان برهة سكون قصيرة، إستحضرت بحتميَّة يوم جلس معي والد داليا على نفس المكان؛ ظل يتكلم ويتكلم وأنا أومئ رأسي صامتًا صمت البُكم، أريده أن ينتهي سريعًا، يقول للمرة العاشرة كم عانى في تربية

«داليا» بعدما هجرتهم والدتها وقررت الذهاب بلا عودة إلى كوكب «المريخ». داليا إختارت أن تبقى مع والدها مُفضلة له هو وعالمها وأصدقاءها على أُمها، لم يكن إختيارها يعتمد على منطق كون الأرض على وشك النهاية أم لا، كانت صغيرة على أي حال لتفكر في مثل تلك الأمور، طالما أحبت والدها أكثر، وكانت تعرف أنه بمجرد ذهاب والدتها إلى «المريخ» فلن تراها ثانيةً، فضلت عدمية رؤية والدتها على عدمية رؤية والدها، الاختيار من بين معدوم ومعدوم، لا يمكن أن تلوم فتاة في سنها على اختيار، كلاهما أسوأ من الآخر، فُطر قلبها في ذلك اليوم وهي تنظُر إلى المكوك «آمون مصر ٢٠-٢٠» يُقلع بالمُسافرين وينفجر بأمُها في كبدِ السماء قبل أن يخترق الغلاف الجوي للأرض، عُرفت هذه الحادثة باسم «مجزرة آمون مصر ٢٠-٢٠»، تفتّتَ أمامها وهي تلاحظ عبر نظارتها المُكبرة الطويلة رقم «٢٠» مُكرر مرتين يتحرك أمامها بالتصوير البطيء مع المكوك في إشارة إلى أرقام سماوية، ومن ثم ينفجر! صنع أبوها جنازة صوريَّة، فلا شيء يُدفن.

تلوح الذكرى الشنيعة أمامها في إلحاح وراء إلحاح، يعتريها الفزع حين تتذكرها، ترمي نفسها في كل مرَّة باكية في أحضاني التي لم تعد تملُك غيرها. بعد عشر سنوات سربت إحدى المنظمات الخفيَّة أدلة تُدين الحكومة في تورطها في دمار المكوك عمدًا لتصفية حسابات قديمة مع شخصيات لها ثِقلها في البلد،

قُتل جميع الركاب من أجل ثلاثة أشخاص، قُتلت والدتها أمام عين داليا الساخطة عليها، رحلت وهي على الخطيئة الكبرى، خطيئة في حق فتاة لم تتعدَ عشر أعوام، خطيئة الفقد، ماتت تاركة في قلب «داليا» غصة كبيرة من السخط على العالم والقدر وتفشي الظلم، مرَّة لأنها تركتها، ومرة لتحولها فتات للطير أمام عينها وهي ومئات أبرياء بلا ذنب. لا يمكن أن يلوم أحدُهم «داليا» إذا لم تأسف على أمها كما لم تأسف هي عليها من قبل.

مذ عامين، مات أبوها هو الآخر بسرطان لعين في الغُدد الليمفاويَّة، مرض الجسد العتيق الذي لم يعُد للموت علاقة به، لم يكن لدينا نفقات تحمُّل العلاج، سعره كان يفوق كل ما لدينا لندرته في البلد آنذاك، رغمًا من وجوده السهل في أوقات أخرى، ولكن حظ «رحمان الطوخي» السيء تبلوَّر في هيئة موقف واحد وقتها، كانت الدولة تُحرر بذبذبات إقتصادية بعدما توحَّدت عملات العالم أجمع بقرار من الأمم المُتحدة، مات أبوها لأنه وبلا ذنب وُلد في تلك الحقبة الزمنية اللعينة من الانهيارات، وفي تلك البقعة تحديدًا من الكوكب، تيتَّمت داليا لهذا السبب، أما ما كنَّا نقوله لأنفسنا ولبعضنا حتى لا نموت حسرةً مما حدث؛ هو أن موت أبيها نتيجة لرغبته الكاملة في الرحيل عن هذا العالم، والذي كان يقول فيه باستمرار: كيف أدفع أموالًا طائلة للمكوث في ذلك العالم اللعين..؟! عليهم أن يدفعوا لي ثروة، فقط للاستمرار فيه..!

بدل إنتظار الموت، فضّل «رحمان الطوخي» تعاطي جرعات مُخففة من عقار يُنشط الورم، مع جرعة واحدة يوميًّا من مسكن عالي المفعول، مات في غضون أيام، وتبرع بجسده للمركز العالمي للصحة والذي يجري مشروعًا قوميًّا يتضمن سلسلة تجارب في خلود البشر، وكان والدي «أنا» شخصيًّا هو من يُشرف على ذلك المشروع وقتها، وهو من نصحهُ بتلك الفعلة، دون علم «داليا» بالطبع، أثناء تعاطي القهوة سرًّا في تلك الزاوية.

بعد موت «رحمان» بأيام ناقشتها لوقت قصير في عمل عزاء يليق به، لم توافق، من وقتها لم تأخذ عزاء، ولا تحب أن يذكر أحدٌ أمامها أن والدها غادر الحياة، لم يعد لـ«داليا رحمان الطوخي» أحد غيري، ونسخة والدها الإلكترونيَّة على «آبدي» التي لا تفعل شيئًا آخر في يومها، إلا الحديث معه بإندماج عاكفة على تلك الشاشة الهلاميَّة، أو سماع عزف آلي، أو الكتابة عن أرقامها الملائكية.

إرتشفت الرشفة الأخيرة وأنا أهمُّ بالنهوض، لم أرد إزعاجها بعدما لاحظت تعابير وجهها المستغرقة في حوار مع أبيها الوهمي، أشفق عليها كثيرًا وعلى من يستعمل ذلك الموقع الشيطاني، شطفت جسدي بدش «هواء» بعدما توطد عرفًا يقول بحرمة التحمم بالماء، إلا في أضيق الحدود، إرتديت قميصًا على عُجالة، بدا كسربال على المشاع من فرط إتساعه، أو من فرط نحافتي، تقدمت نحو الباب وأنا أجري المشط على شعري بإهمال مُعتاد

قاصدًا وجهة كل يوم، معمل الجامعة رقم «٣»، حيث يوجد النموذج المبدئي لغرفة القفز.

إستوقفني صوتها المُباغت قائلة:

- «والدتك كلمتك بذري.. وأنت نائم..»

إستطردت:

- «لم أرض أن أصحيك.. تركت لك مقطعًا تسجيليًا..».

قدمت كلماتها باردة.

رجعت خطوتين بعدما وصلت إلى فم الباب، المرآة المُعقلة في طرقة الدخول حوَّلتها ببصمة إبهامي إلى شاشة عرض، نظرت بإهتمام:

One Missed contact..

One Video message..

- «ألم ترد عليه..؟!» قلتها بكثير من الإستنكار.

- «لا.. كُنت أُكلم بابا».

باغتتني ثانيةً، قاطعتني بحدَّة وهي تعبث بالشاشة الهلامية التي كانت تكلِّم أباها منها، إنتهت منه، تتسوق إلكترونيًا كفعل إعتيادي لشراء طعام الأسبوع بعدما نفد، الشاشة تُظهر تقليبها بحرص مبالغ في مُعلبات «المسطردة»، ومن ثم ولجت في إشارة أصبع واحدة إلى قسم «التوابل والبهارات».

- «نعم..»

لم تسمعها، وضعت سماعات الأذن بعدما أكملت المدَّ في كلمة «بابا».

فتحتُ مقطع الفيديو على المرآة بينما أشاهد بطرف عيني «داليا» تأخذ علبة المُهدئ، وتضع قُرصًا في قاع فمها، ثم تتجرع بتقزز كوب مياه كان أصلًا معبأ بالفراولة ليلة أمس ولم يُغسل، بعدما صبت فيه المياه من كوز بلاستيكي، يبدو أن حبلها لم يُحدث أي تغيير.

ظهرت أمي بهيئتها المُتصابيَّة مُرتدية ثيابًا بيتيَّة، تقف أمام رخامة المطبخ اللامعة المصقولة، واستجلت بوضوح خصلة شعر بيضاء مُدلاة، يبدو أنها لم تصبغها جيدًا.

خالد.. حبيبي.. أنا آسفة.. وصلني إتصال ليلة البارحة من العباسيَّة.. يقولون إن أبيك حاول الإنتحار مرَّة ثانيةً.. الظاهر أن الرقم المُسجل لديهم هو رقم البيت هُنا.

مرَّ زوجها خلفها، يفتح الثلاجة جالبًا حبة «كاكًا» يانعة وقضم منها قضمة، إصطكت فيها أسنانه لمساس الفكين من طراوة الحبة، قبل أن يصبح خارج الكدر بالكامل، كرشه، ثم هو، تباعًا.

حاول أن تذهب إلى هُناك اليوم.. أخبروني بإحتياجهم إذنًا موقعًا لدخوله غرفة عزل مُبَّطنة.. أنت تعرف أنَّه لم يعد لي علاقة بأبيك.. لا يُمكن أن يخرج الأذن مني.. غير قانوني.

لاحظت يمينها لتتأكد أن زوجها لا يسمع ما ستشرعُ في قوله، ثم همست:

وأنت هُناك.. غيِّر الرقم المُسجل لديهم.. زوجي ينقبض عند سماع أي شيء عن «يحيى».. Bye يا حبيبي.. سلّم لي على داليا.

أغلقت الشاشة، وعادت المرآة التي رأيت بها منظري مُهدلًا كالعادة، وكانت «داليا» قد فتحت للتو قسم البحريات وبالتحديد: عُلب «التونة المقليَّة»، والتي أصابت جنابها بالتخمة.

صحت:

- «لابد أن تقلعي عن تلك المهدئات، أنتِ تعرفي لِمْ»

ثم غادرت.

***

«٣»

الكون لا ينتمي إلى نفسه، الكون ترسٌ ينتمي إلى ماكينة أكبر، وأجزاء الكون كأبيها، ميكانيكيَّة، لا تنتمي إلى نفسها، بل تنتمي إلى الكون، وكل جزء ينتمي إلى آخر؛ الشمس تنتمي إلى اعوجاج حادث في أبعاد الكون، النجوم والكواكب تسبح في مدارات لا تحيد عنها، الأسد ينتمي إلى غابة، وإذا حُبس في قفص لا يجوز تسميته أسدًا، بل تحول مسخًا بلا هوية، حواء تنتمي إلى آدم، اليرقات جزءٌ من القبور والأرض والأشجار، وبعض الطيور ثانية، تنتمي إلى أجساد الدواب.

كلٌ ينتمي إلى كلٍ وأنا الاستثناء الوحيد، أنا مُنفرد بلا هوية لا ينتمي إلى هذا الكون، وذراتي لم تخلق من ركامه، أنا بُحيرة بلا سمك، أنا لا أحد.

هل من الطبيعي أن أُباشر الكتابة بعد إعتبار نفسي لا أحد...؟!

أنا مُمزق، ومُنهك، ومُستهلك، بروحي ثُقلٌ يشبه تمزُّق سرطاني، أنا نشازٌ لا أجد لنفسي مُسمى بين رُكام الخلق، لا أملك

اليقين في أي ذكرى أكتبها، لا أملك إنتشال وقائع حدثت من أخرياتٍ لم تحدث، خياراتي تتضاءل أمام سرمديَّة خيالي المعجز، وذاكرتي مُشبَّعة بمتناقضات لا تطيق كثرتها.. من أنا حقًا...؟!

إن لم أكن «خالد يحيى»، فمن أنا إذن...؟! لمن ذلك الوجه الذي يلوح أمامي في المرآة الآن...؟! لماذا أُصر على تلك الخيالات وهراء الحديث عن الانتقال عبر الأكوان وهذيانات الفيزياء التي لا تنتهي، أنا حتى لا أملك دليلًا واحدًا على أن هُناك شيئًا ما يُسمى: «فيزياء»!

لقد استوفيت ما يقرب الساعة مساء أمس أحاول أن أوقف إرتعاد يدي حتى أتمكن من سن الجرافيت وأكتب، الرُقعة الورقيَّة التي بين يدي الآن مُهترئة. هذه هي أولى رُقع هذه الدُفعة. رَقَّمتها برقم «٥»، رقمتُ أيضًا سابق الرقع الورقية.. واحد «١».. اثنان «٢».. ثلاثة «٣».. لا أُريد أن تنتهي مساعيَّ في تَوثيق ما تبقى مني برقعٍ ورقيَّة ملطخة بتسويد لا أعرف بدايته من نهايته.

الورق كله مُهترئ هذه المرة، وجوده في معدتي مدَّة أطول هو السبب، بدأت «جلسة الانصياع» هذه المرَّة مُبكرًا على غير العادة، شرعوا فيما يفعلونه بي بعد الطعام مُباشرةً. كان عليَّ أن أنتظر حتى ينتهوا مني، فأرجع لزنزانتي ثم أنتظر أن يخرج كل ما يدب على الأرض، فأدفع بناني إلى حلقومي وأتقيأ، أُخرج الورق من معدتي، ثم أعجنه وأقسِّمه وأُجففه.. ولكن لا ضرر.. ستفي تلك بالغرض.. سأكمل كي لا أنسى..

وأنا على مشارف الخروج من الحي المُتمرد، كُنت أشعر بقصبة زوري من شدة العطش، كل إزدرادة كانت بمثابة صخرة مليئة بالنتوءات، أجرُها على حلقي ببطءٍ تعذيبي، وكل جرة يقابلها جرة من قدميَّ اللتيين لم تعد تحتملان المشي، لم يكُن من الصعب أن أعثر على الماء، الصعب كان في قرار النزول لذلك المجرى الضَحل لشُرب الماء، المرة الأولى التي أتذوق ماءً بدون تحلية ولا تنقية، لا صنبور ولا منشفة أجفف بها نفسي.

شربت من المجرى مُباشرةً كقطٍ بريٍّ، كانت مُرَّة، كلما أحملُ ماءً بين راحتيَّ، أرى على صفحته إحمرارًا غريبًا وبعضًا من شائبات التُربة التي تُشبه بذور العنب، لا أعرف هل سبب ذلك الاحمرار غيابة السماء الغالب عليها صفار وحُمرة، لون الغلاف الجوي لذلك العالم، لم أكُن متأكدًا، وعلى الرغم من تلك الصبغة الداكنة للنهر، كان جانبا المنحدر منعكسين على صفحة المياه، رأيت وجهي البائس مُنعكسًا هو الآخر وفوقه سحاب الجمهورية المختلف في لونه عن صبغة السماء. شربت، وبعد فينة، مرت أمامي زجاجة طافية بداخلها ورقة ملفوفة بعناية، كانت بعيدة، لم أستطع جلبها، وبعد فينة أخرى، هجم على المجرى كمٌ كبير من الزجاجات الطافية في مشهد درامي، شعرت بتوقُّف شعيرات جسدي إنتباهًا لها، تبدو رُميت عن قصد وبكميات كبيرة، جلبت واحدة قريبة، أزلت غطاءها المطاطي والذي صنع خصيصًا لمنع دخول المياه وقرأت:

«أنت لست كما ترى نفسك على صفحة النهر».

أتيت بأخرى وفتحتها، نفس الجملة، إعتقدت أن كل الزجاجات تحوي الجملة نفسها: «أنت لست كما ترى نفسك على صفحة النهر».

دُهشت لما تُكب ولم أُطل الدهشة، تجرعت الكثير من الماء بطريقة فظيعة في زجاجة منهم، ملأتُ نفسي بالماء العكر، أخذت ما يمكنني حمله من زجاجات في قماشة على شكل كيس رُميت على جانب المجرى، وقتها فقط قررت البحث عن الطعام، لن أدع نفسي لفضولي فينتهي بي الأمر وحشًا آكل للبشر، لا أريد أن أشت من الجوع وآكل بفظاعة كما شربت ذلك الماء العكر.

النداءات ما زالت مُستمرة، ولكني لم أعد أرمي لها آذانًا بعد أول مرة، لا أتذكرها جيدًا في تلك اللحظة، ولكنني أذكر أنها كانت كالسابق، مُجرد أخبار، والملحوظ فيها أن حالة الطقس والتوقيت اليومي من حيث طلوع الصبح ووقت الليل دائمًا ما تكون مَعكوسة، ظننه عَطلًا، أو خطأ غير مقصود.

في الحقيقة لم أعد أهتم لها.

هممت لأرحل فوجدت زجاجة أخرى مرمية على المنحدر يبدو أنها أتت مع فوج زجاجات سابق، داعبتني فجلبتها وقرأت ما بداخلها:

«لا تشرب لقاحهم، لا تشرب من النهر، ساعدنا وساعد نفسك».

نظرت إلى ما أحمل من زجاجات.

رميتها ورحلت.

***

رقعتان مهترئتان ومرقمتان برقم «٥»، ذكر فيهما خالد شربته من نهر «زولام»، وبدا مُنشغلًا لكتابته تلك الأوراق بعد جلسة انصياع. عُولجت الأوراق عقاريًا في مجمع المعامل بوزارة التراث والآثار بجمهوريَّة النَّعام.

***

- فصلٌ رابع -

«١»

هل الشعور بالغربة وُلد مع نطق آدم...؟ أم سمع أول زوجين صدحا في جنان الرب فيما قبل..؟! قد تكون بداية الشعور وقت علَّم الله آدم معنى الغربة مع الأسماء، وربما كان هذا الاسم تمديدًا بشعر بالغربة عن البقية، ولكنه سبب لا ينفي بالتأكيد أن آدم كان دائمًا غريبًا منذ أن نفخ الله الروح.

ما زلتُ أسعى نحو المجهول وفي السماء سربُ نَعَام يطير، نعم، لم أكتبها خطأ. لا.. ليس بمجازٍ أيضًا! لقد كان نعام يطير حقًا...! قد أكون متعجبًا لأن النَّعام في عالمي لا يطير، لا أقول إنه لا يعرف الطيران، وربما يعرفه، لكنه على الأرجح لم يحاول الطيران بيقين ذلك السرب الملوَّن. تأملت السرب، أهيم به، يحلق في هدوء، لا يُشغل نفسه بقصة الكون، لا يحاول حتى أن يعرف في أي فلك

يجب أن يسبح، جماله الزاهي أنساني تقرُح قدمي من الزحف بلا وجهة، كان بطيئًا كفاية لأتابعهُ، ملون بمعظم ألوان الكون الأساسية، ألوانه عديدة ومتباينة، عنقه طويلة تشبه بالنسب عُنق الزرافة، رأسه مرفوعة، أجنحته الكبيرة ترفرف بثبات، تكاد أن تغطي ضوء الجمهوريَّة كله، يبدو أنَّه سئم تلك الأرض الظالمة، صنع المعجزة، طار بعيدًا حفاظًا على حقيقته الوحيدة، كان نوع الأحياء الوحيد الذي شاهدته حتى تلك اللحظة.

مشيت على أرضٍ بور بتربة رمليَّة، تستمر قدماي بالانغماس في رمال غريبة، بارز من الأرض أصص طبيعية لنباتات حمراء اللون، كأنها يجري فيها دم. سطع لي تمثال من حجارة بيضاء لنعامة تدفن رأسها في التراب، منحوتة بعناية فائقة، موضوعة على نُصب تذكاري، وفي مقدمة النُصب علم جمهوريَّة النَّعام، أسود حالك إلا من شعار نعامة بيضاء مدفونة الرأس في منتصفه، يسرق إليَّ بجانب المنصة لوحة معدنيَّة مستطيلة، توضِّح مفترق طرق على بعد أمتار.

اليمين: (←)يؤدي إلى مدينة تُسمى بـ«الطاهرة»، وكان بجانب الاتجاه رمزًا معتمًا لفتاة في جلباب فضفاض وبرقع أبيض باهت.

اليسار: (←) يؤدي إلى مدينة تسمي بـ«مدينة البقر»، وبجانبه رمزًا معتمًا لبقرة تُجز عُنقها.

كانت أحشائي الزاجرة جوعًا صاحبة الأمر والنهي، انصعت فورًا للأمر وأخذتني قدماي في الحال إلى مدينة البقر أملًا أن ألقى

لحمًا آكُله كما هو واضح من الرمز ومُسمى المدينة. إتجهت نحو اليسار. سربُ النعام يبتعد، يسلك الاتجاه الآخر، الرياح تهب على التربة الرميلة، تتطاير، تؤذي عيني، أغطيها بيدي إتقاءً، أنظر إلى الشمس والسرب ثم الرمال وتأخذني ذكرى بعيدة، كررت أمي لي قبل الذهاب إلى الشاطئ ألا أخرج من تحت المِظلة أبدًا، كنت هائمًا مع أسراب طيور تحوم في سماء الشاطئ، حرَّة كالنَّعام، صافية في سماءٍ عكرة، أتأذى من قُرص الشمس الجلي بينما أوَّد النظر إلى طائرة ورقيَّة بعيدة، لا يجب أن أتعرض إلى الشمس مُطلقًا كما أخبر الطبيب أمي، لا سباحة في ماء مالح، لا تعرُض مباشر للشمس، الوقت قد أزف وحجزت أمي الرحلة مع خطيبها الذي سيحل محل أبي، كان لابد أن أذهب معها حينها. ذهبت رغمًا عني، لم أكن أطيقه، علاقتهما لم تكتمل بالزواج الحسن الحظ، ولكنه شيء غريب لمن يشاهدهما معًا في مكان واحد، حين اللقاء تحتضنه، وحين الفراق تحتضنه، ولا أذكر متى إحتضنتني أمي آخر مرَّة، كانت تحدثني بنظاظة وهي هائمة في خطيبها ولا تنظر حتى إليَّ: خالد، لا تتحرك من مكانك، دع الجرح يلتئم! تكررها وتكررها. كنت في التاسعة، أصررت على ارتداء نظارة شمسيَّة حتى أقبل بالذهاب مع أمي، إبتاعتها لي من هناك، كانت تغطي وجهي بأكمله، حين نظرت إلى صور تلك اليوم وأنا في العشرين، وجدت نفسي مَعتوهًا كبيرًا وضحكت على نفسي حتى بكيت.

أردت أن أحظى ببعض الحلوى التي تُباع على الشاطئ، صحت في أمي ولم تنتبه لي، كانت تتحدث مع خطيبها عن الحرب التي على وشك البداية بين «الصين» و«القطاعات الكندية»، أمي اهتمت بالشأن السياسي وأمورها الخاصة أكثر مني، أردت التبول (وهذا حقي المشروع)، فصحت بها مرتين ولم تنتبه أيضًا، نهضت من مكاني مُتجهًا إلى آخر الشاطئ في خلسة تامة، أتراقص من حرارة الرمال حتى وقفت في مُنتصف المسافة، لا أعرف هل أرجع أم أكمل طريقي..؟! كُنت طفلًا ذكيًا، علمت أن رجوعي سيكلفني نفس المسافة ونفس الألم، بل ألمًا أكبر لأنني لن أفرغ مثانتي، فأكملت طريقي متحملًا الحرارة، وقفت أتبوَّل والرياح تحمل الرمال إلى عيني فأغطيها إتقاءً، انتهيت، رجعت رافعًا رأسي كأني أنجزتُ إنجازًا عظيمًا وجلست في مكاني كأن شيئًا لم يحدث. لم تنتبه لي أمي إلا حينما سالت دماءً على جبهتي ونبهها خطيبها بذلك، لقد ذاب لاصق الجلد الصناعي من الشمس كما حذرها الطبيب، اللعنة علي...!

ما كان يجب أن أنبطح أرضًا و«زيتون» يقذفني بالحجر في قدمي...! كم أنا غبي...! الشعور بالزمن وأنت تستجلب أعماقه شيء صعب، الزمن كله شيء صعب، أخذتني الذكرى بعيدًا حتى إصطدمت عيناي بلوحة معدنيَّة أخرى، مكتُوب عليها بخط كلاسيكي عريض:

..«مرحبًا بكم في الظاهرة»..

تنبهتُ، ثم تساءلت:

هل ربما أخطأت المسير...؟! أم سهوت فسلكت الاتجاه الأخير...؟!

أنا لم أسر في تجاه «الظاهرة»! ظننت حينها بأني أخطأت، ولكني لم أخطأ، لقد اخترتُ اليسار كما وضَّحت اللافتة، ولكني عرفت لاحقًا أنَّ اليمين يسار، واليسار يمين، والرؤية في جمهوريَّة النَّعام آخر ما يستدل به على الحقائق.. لم يعد هناك متسع للكتابة أكثر على تلك الرقعة، والنعاس يغالبني، سأكمل غدًا على رقعة أخرى، إن طلعت عليَّ شمس..

***

رقعتان ورقيتان مرقمتان برقم «٦»، ذكر فيها خالد رؤيته للنَّعام المتمرد، والنصب التذكاري لرمز الأمة القديم، واختياره الذهاب نحو الظاهرة بالخطأ. ذُكرت مفردات مثل «الصين، والكندية»، لا نعرف لها معنى حتى وقتنا الحالي.

جمهوريَّة النَّعام: بالإنجليزية(The republic of ostriches) أسست عام B٥٨٥ وهي جمهوريَّة دستوريَّة ديمقراطيَّة تقوم على أساس العدالة في توزيع مواد الكذب والخداع لمواطنيها عن طريق وسائل النشر المختلفة. جغرافيًا: يحدها من الأربع جهات جمهوريَّات أخرى، وكل منها يظن مواطنوها أنهم الجمهوريَّة الوحيدة بالعالم.

جمهوريَّة النَّعام، الموسوعة الحرَّة

« ٢ »

يصدَّح الراديو بصوت صافٍ: الظاهر أننا لن نقول اليوم صباح الخير على مُستمعينا.. يبدو أننا في حضرة أهم عمل إرهابي في التاريخ المعاصر.. لقد قتل الأمل.. لقد قُتل عيسى.. مزيد من التفاصيل ولكن بعد الفاصل.. لا تغير المحطة.

أدرتُ مفتاح السيارة للداخل أعطيها تمامًا يبطلان هدير مُزعج، تجاورني سيارة زيتيَّة طراز «جوجل ٥٠٤» ذاتية القيادة، وحافلة تؤمَّني، وتشد الرؤية وتمنع الشمس، الجو حار، والرطوبة تتعالى، مُحاطٌ بازدحام مروري مُعتاد، أُجبرت على الوقوف، أعابث عقلي ويعابثني، هل حقًا سأصير أبًا...؟! فتحت النافذة بالضغط على الزر المُتآكل جلده، أكون مذنبًا عندما أقول إن أقل ما يستحقه دكتور جامعي مثلي؛ هو سيارة ذاتية القيادة، بمكيف هواء لا يعطب، كتلك التي أشاهدها مع الساسة ولاعبي كرة القدم، كـ«جوجل» التي تجاورني، ربما سأحبها أكثر سوداء اللون.

الآن أصبح في الحياة جديد، إنتفاخة بطن «داليا» بصرَّتها المبزوزة تمنحنا فرصةً جديدة للتعايش، المعجزة التي ستعيد

ولة علاقتنا بالتدريج نحو سيرتها الأولى، ربما يصعُب على عقلي التصديق لأننا لم ننتظر حملًا، ربما لأننا لم نكُن نتوقعه، ربما لأنه لم يخطر في بالنا في الأساس أننا ممن سيحمل الحياة إلى جيل آخر...!

لا أتمالك نفسي حين أفكر أنني أبٌ فريدٌ، سيُساهم في إستمرار الحياة مدة أطول، لا أعرف ما عليَّ فعله في ظل حدثان الأمر...! ماذا يجب أن نفعل...؟! كيف نعتني بالحمل...؟! وإلى أي طبيب نذهب...؟! ما أعرفه أن لدينا فرصة وحيدة فقط للإنجاب، وأن معجزة الحمل مرتين لم تحدث إلا من عشر سنوات في قرية أثيوبيَّة صغيرة. أصبح الزوجان القرويان حديث العالم بعدها، لم تُصدق روايتهما في البداية حول إنجابهما مرَّة ثانية حينما اكتشفها أحد الرحَّالة الفرنسيين أثناء تجواله في أدغال أفريقيا. تسرَّب الخبر إلى العالم، إختطفتهما القوات الخاصة الصينية من عُقر دارهما في أثيوبيا، وأجروا عليهما فحوصات تعسفيَّة، فأثبتوا على الفور صحة قصتهم.

برَّرت القوة العظمى فعلة الخطف تحت تهديد السلاح، ودخول أراضي لا سلطة لها عليها، بكونها تبحث عن ذرة أمل للبشرية لتواجه بها الفناء، وأنها بطبيعة الحال ترفض نشر الإشعاعات التي تعطي أملًا كاذبًا للجماهير.

طالبت أثيوبيا فور الإعلان عن صدق الرواية بحقها بالدخول إلى «منظمة الأمل الدولية» كخامس دولة تضيف أملًا للكوكب، وطالبت في خطاب رسمي باعتذار من الجهات المُختصة في

التجمع السنوي للأمم المتحدة. أصبحت أثيوبيا بعدها المُصدِّر الأول للـ«بويضات» و«الحيوانات المنوية» في العالم، على الرُّغم من أن حادثة الإنجاب مرتين لم تقع بعد ذلك نهائيًا. عاش الزوجان في الصين، وبعد عامين، ماتا، وحُرقت أجسادهما أمام الشاشات، ونُثر ثراهما على سور الصين العظيم تعظيمًا لهما، تساءل كثير من الحقوقيين عن كيفية موتهما في يوم واحد، كان الأمر غريبًا ويحمل سرًّا ما، على أية حال هذا ما أعلن للعامة، وصمت عنه الجميع، حتى حكومة أثيوبيا نفسها.

بعد إنتهاء الحرب النووية الأخيرة، مرَّت على العالم ثلاث سنوات عجاف من عدم الإنجاب، إنعدمت الخصوبة، اندثرت المواليد، وقالت القلة المؤمنة إن الله قرر أخيرًا إنهاء فترة البشر على الأرض، وإنَّ ما يحدث على ظهر البسيطة كفيل بأن يأتي يوم القيامة وقتها، قال البعض الآخر إن إنعدام الخصوبة هو طوفان «نوح» في ثوبه الجديد، وعلى أغلب الظن سيعطي الله فرصة لواحد أو اثنين لقيادة البشريَّة من جديد، تصحيحًا للمسار! فيم إكتفت المنظمات العلمية في تفسير الحدث كنتيجة للأشعة المنبعثة من الحرب النووية.

فقدَ العالم الأمل، وسارَ الجميع هائمين كتماثيل مرصوصة بجانب حائط يوشك على التداعي، أُغلقت عيادات النساء والتوليد، أُلغي القسم الطبِّي كله من كلية الطِّب، وصارت الولادة والأنجاب جزءًا من علم الأنثروبولوجيا والتاريخ

الإنساني فقط، سُحبت أيضًا كل مُنتجات الأطفال والألعاب والملابس من الأسواق، أُغلقت قنوات الرسوم المتحركة وشركات إنتاجها، إسودَّت العيون، ونبشَ كل واحد ماضيه، وعظَّم كلٌ من قدر نفسه كونه سيشهد النهاية، إستعد الجميع للرحيل للأبد راضين بالانقراض البطيء وبقضاء الله المحتوم. شهدت هذه الفترة الخلل الاقتصادي الأكبر في تاريخ البشرية، جرى الجميع لصرف كُل ما يملكون، لا ميراث، لا وجود للذريَّة تُرث بعد الآن. أُعلنت معظم البنوك إفلاسها لسحب كافة الأرصدة من البنوك، أصبحت المبالغ المتداولة أكثر بكثير من الموارد الموجودة بالأسواق، عمَّ الكساد العالم أجمع.

في نهاية الثلاث سنوات نقلت كل الفضائيات بثًّا مباشرةً لفتاة روسية تدعى أنها «حبلى»!، بكى الجميع فرحًا وصرخت الجموع هللةً، وهتف المؤمنون: لم ينسنا الله قط...! قُلنا لكم لم ينسنا الله...!

إستمرت الفرحة في ميادين العالم، بين المؤمن والكافر، بين البرجوازي والكادح، الكل يحتفل برجوع الأمل إلى تلك اللحظة التي بها نطقت الفتاة الروسية بمفاجأة مُدوية بلكنتها الأوروبية في أحد الحوارات المُتلفزة، مُعلنة: لم يمسني بشرٌ قط.. أنا عذراء...! دُهل مُقدم البرنامج اللندني المشهور «جون روبسون بوزن» مُدورًا شفتيه: أووووه، حقًا؟

شكك الجميع بما نقول، وسارت القلة المؤمنة في الشوارع تنادي بضرورة معاقبتها، وبثَّت القنوات خطابًا لرجل مُلتحٍ يحمل

سلاح رشّاش وينهي كلامه الغامض بقوله: تُستتاب وإلا قُتلت، بدا غبيًا، لا يعلم شيئًا عن الحادثة، لا يعرف أساسًا إنها ليست مؤمنة حتى تُستتاب، ما أثار سخرية برامج «التوك شو» لعدّة أيام تاليات. ظن الجميع أن المرأة الروسيّة تسخر من الأديان السماوية ليولها الشيوعية الإلحادية، تسخر خاصةً من حادثة «مريم» ابنة عمران الفريدة والمُقدسة، استبيح دمها على الرغم من أنها كانت تحمل في بطنها المُتنفخة الأمل الأخير للعالم..!

سُلطت عليها حراسة خاصة حتى وضعت ولدًا وسمته «عيسى» مُتحديّة الجميع، مُطالبة مزيدًا من لفت النظر، إستشاط وقع الشارع المؤمن أكثر فأكثر، وتداخلت فرحة الكثيرين بغضب القلة المؤمنة، ووقفت الجمهوريات الشيوعية والليبرالية داعمةً لها، فيم اكتفى الأزهر والفاتيكان بخطابات الاستهجان والتنديد بما تقول، وظل الجانب اليهودي مُصطنع الحياد لا ينبس بكلمة.

خرج كثيرون يدّعون أنهم آباء ذلك الطفل المُعجزة، يريدون نصيبًا من الشهرة والدعاية التي جنتها الأم من حبلها ومن تسميتها لابنها بهذا الاسم المُقدس، ومع فوران الشوارع المُستعر قرر «الإنتربُول» عمل تحقيقات عاجلة لمعرفة الأب الحقيقي للطفل حتى وجدوه؛ «ديلر» يبيع «الكوكايين» في أزقّة «موسكو»، كان يتعامل مع الأم الروسيّة وبدا أنه جامعتها في لحظة خَدَر ثم هَرب.

لُفقت رواية الأم بعدما حصلت على ما تريده من مال جنته من جلسات التصوير لبطنها المنتفخة، والدعاية للشركات العهر مالية العملاقة.

وبعد عام.

وُلد الطفل الثاني، ثم الثالث، وتوالت المواليد مرّة تلو أخرى حتى وصلت أعلى مُعدلاتها من عشر سنوات ولم تزد عنها، أعد دراسة ميدانيّة تقول: إن زوجين من كُل عشرة ينجبون مرة واحدة طول حياتهم، نفس النواتج من عشر سنوات لا تتغير، يبدو أنه حكم الله المخفف بَدل من أن يُمحينا عن آخرنا.

لم يحدث جديد إلى أن كانت المرة الاستثنائية في أثيوبيا، التي أنجبت فيها امرأة سوداء قروية مرتين، وانتهى بها الحال ترابًا تحت سور الصين العظيم.

وعلى الرغم من نقص المواليد مُنذ ما يقرب من الثلاثين عامًا، والحرب والإبادات الجماعية إلا أنه ما زال العالم مُزدحمًا بالبشر لطول عمر الفرد الواحد، ولكنه أصبح مليئًا بالعجزة أكثر مما سبق.

أما «عيسى»، فقد لاحقته اللعنة، بَلغ، وصيغَت له صورة مصطنعة على برامج تعديل الصور وهو مصلوب على جذع خشبي كهيئة «يسوع» القديمة، إحتلت الصورة لفترة طويلة الشاشات الكبيرة بالساحات الشعبية والمجلات، واتخذت واجهة

للمُنظمات التي تنادي بنبذ الحروب، والسلام، وأخذه اللادينيون والملاحدة شعارًا، مُضيفين إلى الصورة:

«هذا اليسوع الحقيقي، هذا هو الأمل».

عاش عيسى مختبئًا يظهر بين الفينة والفينة يقص معاناته واستغلال خصوصيته بصورة لا تُرضي أحدًا، رافعًا قضية تعويض تلو الأخرى، وها أنا أسمع خبر قتله أثناء وقوفي في إتجاه مُستشفى العباسيَّة بعدما أنهيت عملي في معمل الجامعة.. قتلوه زمان وقتلوه الآن.. التاريخ يعيد نفسه بعبثيَّة.

تأففت لعنةً على العالم.

يصدح الراديو بينما تنتظر عُقد المرور الحل من السماء:

عُدنا إليكم من جديد.. هذه نشرة رأس الساعة مقدمة من راديو العاصمة.. اليوم الأربعاء.. الخامس من تموز.. لقد ذهب الأمل.. لقد ذهب عيسى وذهبت معه ذكرى إنتصارنا على الثلاث سنوات العجاف.. رحل في سن الخامسة والعشرين.. ذهب صباح اليوم ضحية عملٍ إرهابي فظيع بينما كان في محل عمله. أعلنت جماعة صهيونية متطرفة مسؤوليتها على الحادث بعد تنفيذه بساعة واحدة.. هذا وقد سارعت السلطات الرومية بالتحف...

السماء تُمطر على الرغم من حرارة الجو، يُتوَقع أي شيء من عالم بميزان مُختل، شغَّلت النازحات الجلديَّة، حابيةً تنزح مياه المطر إلى جانبي السيارة، تاركةً الزجاج الأمامي مُتشبِّرًا، لاح

شبح طفل بوجه مُلطَّخ على نافذة السيارة، من المعجزات التي حدثت في الآونة الأخيرة، وعلى الرغم من هذا رمي في الطرقات..!

مدَّ يده بما يبيع ونظر إليَّ مُحملقًا، أعطيته الفكَّة، مثل هؤلاء لا يحملون TBF لتحوُّلهم بيتكوين (٥)، نظرتُ إلى ما يحمله من أكياس، قطبتُ مُتعجبًا، وزعقت فيه غاضبًا: ما هذا يا بني..؟! ارحل من هنا..! لا أريد شيئًا...!

مكتبة بيت الحصريات

رحل على فوره، كان يحمل أكياس «دانتل دام» و«أوقيَّة ذكريَّة» وألعابًا إباحية، نظرت إلى السماء الهاطلة من الزجاج الأمامي هامسًا للذي في السماوات: كان يجب أن تكون النهاية.. أليس كذلك...؟!

تنبهكم بتشغيل القيادة الذاتية لاختيارها أسهل الطرق.. توجد كثافات مرورية لتظاهرات مُحتشدة.. الطريق أعلى الدائري بمنطقة السلام مُغلق تمامًا.. وكذلك الأمر في مناطق التجمع الخامس وفي الطريق نحو البساتين ومساكن الضباط والعباسية وزمـ...

ضربت عجلة القيادة براحة يدي اليُمنى.

***

٥ - عملة الكترونيَّة.

«٣»

المدينة كلها عارية، كأنما جُردت من كل شيء، منزوعة الغطاء، ولا علاقة للمجاز بالقول بأنها ملهى «صباحي» قذر بدون سقف، المكان مزدحم، سماؤه نتنة، تفوح من الأجساد رائحة جنس نفاذة، كأن المدينة كلها باركة على براثن كلب أجرب، أزقتها سمت القذارة والزنا ومشهد مُكرر لعاهرات قاصرات، يرمين أطفالهن بتَبجُّح في القمامة التي تدلت نفاياتها من الكثرة، مدينة «الطاهرة» في حقيقتها كما أدركتها لا تحوي بقعة يُمارس فيها الطهارة. دخلت إلى المدينة من مدخلها، وهو بوابة كبيرة بلا جدران، وسقف يقوم كل منهما بدوره في خلق نفق قصير الطول، واسع الجوانب، تبدو غرفة استقبال كبيرة وعتيقة، عتقها واضح على النقوش الجدارية على الأرض والجدران والأعمدة، مرسوم على الجدران فن «إيروتيكي» طاغ عليه إباحية مرضية، خرجت من نفق الاستقبال إلى طريق طويل، يصطف على حذاء جانبيه صفين من الأشجار الغامضة، مشذبة الحواف والجذور لتُصور للناظر أنها فتيات عاريات، لون أوراقها هو لون جلد بشري متفاوت الدرجات، كل شجرة يبرز منها الأذرع والقدمان

والنهود، كأنها تماثيل من الخشب إقتحمت الحياة توًّا، يحلق في الأرجاء صوت آهات وإيحاءات جنسية تأتي من الشجر..!

ذعرت وجريت نحو قلب المدينة على الفور.

أسير في دهشة، أوجز الخيفة تلو الخيفة، البذلة ما زالت مني، يبزغ لي مار لا يرتدي شيئًا، أصطنع قُوة وهمية، الخوف من المجهول هو أشد أنواع الخوف، أتقدم، يبزغ لي عاريًا من اللاشيء، فأجرى، حتى وصلت إلى قلب المدينة حيث الزحام وبيع الدعارة. لا أحد يرتدي شيئًا ولا أحد يظهر عليه علامات خجل، لا أعرف إن كانوا بشرًا يعرفون معنى الخجل من الأساس! أتقدم بحذر، اعتقدت بأنهم سيحاولون إيذائي أول ما سيرون ما أرتديه، كنت أنوي بفعل الخوف نزع ردائي خلسةً، لكن سرعان ما عرفت أنهم كما هُم، لا يتنبهون لي، ينظرون إلي كأنهم يرون شخصًا آخر، يرونني كما يريدون أن يروني. من الصعب إثارة بشر مثل هؤلاء، كأنهم في عالم افتراضي، على أعينهم عالم غير ما أراه، اطمأن قلبي شيئًا فشيئًا، لست مُضطرًا إلى أن أنزع عني ما تبقى من إنسانيتي، ورأيت في الجميع عريًا في الجسد والروح، عريًا له ما يغطيه وعريًا لا غطاء له.

فور رؤيتي، تسارع الكثير لإعطائي البطاقات الصغيرة، الكروت الدعائية لأماكن مخصصة لممارسة الجنس، الكل يُسابق لإمساكك إلى محله. بعض الفتيات تقف على جانبي الطرق، لا تكاد تُفرق بينها وبين أعمدة الإنارة مزدوجة المصابيح من شدة

الزحام، البعض الآخر وهو الجزء القليل كن يُعرضن في الفترين كسلع بلا روح، في الحقيقة... الكل كان بلا روح. يأتي إليك قوادهن ويخبرك أنك ستحظى بوقتٍ رائع، سيتشبع جسدك بكم لا بأس به من اللقاح الوطني.

كيف ؟!

إستفادة المستهلك دائمًا هي المتعة، وتأتي استفادة البائع، أو القائم على الأعمال من الحكومة مباشرةً، كل شيء صناعة في جمهوريّة النّعام، وكل صناعة تابعة للحكومة، المُرتبات تُؤدى خدمات من طعام وشراب وجنس وغيره من الرفاهيات، والضرائب أيضًا تؤخذ عينًا، لا يوجد أموال، الثمن يُدفع حين يقرأ المستهلك حصته من الكذب، ويتعاطى اللقاح الموجود بالأطعمة والأدوية ليصدق كل ما يراه ويسمعه، في نفس الوقت التي تُشبع الحكومة فيه احتياجات شعبها من طعام ودواء وجنس. أناس جمهوريّة النّعام لا شيء إلا مُستهلكين لما يُقدم له على مائدة الخداع. قال لي المستشار «آشر» قبل أيام في إحدى جلسات الانصياع: في كل مرّة يحظى أحدُهم بعاهرة، وهو مُتاح على الدوام، يتكفل فرجها بنقل نسبة من اللقاح إلى الرجل. علماؤنا رأوا بأنها أفضل طريقة لنعطي اللقاح للشعب باستمرار، أوقظ غرائزهم الحيوانيّة ودعها تسوقهم على ما نريده نحن.. جذبني أحدُهم من يدي وهو يقول لي: تريد السمينة؟ تعال إلى هُنا، لدي «ما» تحتاجه، لم يقل أحدُهم: لدي «مَن» تحتاجه، لم أسمع كلمة «مَن» مُنذ أتيت على جمهورية النّعام، لم أسمعها إلا في جلسة التحقيق معي في البداية،

كان يعاملون أنفسهم كأشياء، سواء فيما يتعلق الأمر بذلك الموقف أم غيره، على أغلب الظن الحكومة هي من تستعمل كافة المصطلحات، أما باقي الشعب، فقد تعود لا إراديًا على حياة نمطية مكررة، يُذكر فيها كلمات معيّنة وقليلة، وتكفل الزمن الطويل بمحو الكلمات التي لا تستعمل من الذاكرة والتعاملات اليومية، عقب المستشار آشر متأملًا: شعبٌ كهذا لا يحتاج إلا كلمات لتعبر عن جوعه للطعام والجنس، كلمة مثل «مُعارضة» أو «ثورة» هو منطوق جديد وعرضي، لم يكن في ذاكرة أحد غير أفراد «الأندروبست» الكافرة، وهذان الكلمتان على سبيل المثال هو كلمات قبيحة بالشعور بالنسبة لشعبنا، يشعر الجميع تجاهها بالقباحة وشيء من النفور بالفطرة، لم يبحث أحدهم عن المعنى الأصلي لهن إلا حين أتت «الأندروبست» بتلك الكلمات من أعماق تاريخ الجمهورية لتستحدثها ويتم تداولها من جديد، ولكنهم كاذبون كما تعرف.

أُشفق كل الإشفاق على تلك المدينة الملعونة التي تعرت من كل شيء، كُل من يرى هؤلاء البائسين والمشوهين تأخذهم الرحمة والإشفاق بهم، هذه مدينة نُبيت للإفناء، وهذه الحكومة ملعونة بذلك الشعب الذي لا يُفكر إلا في غرائزه الحيوانية من طعام وجنس وأمان زائف، لا يحتاج أي شخص مُعتقدًا أو مذهبًا حتى يشمئز من الظلام والعفن الواضح على الأجساد والأعضاء المنسخة في المدينة الظاهرة، لا يستريح أي بشري طبيعي لتلك الرائحة الأثيرية النفاذة من الدمامة والجنس المرضي..!

وقفت في طابور به ما يقرب عشرة أفراد، أمثّل بأني منهم، لابد أن أتعامل طبيعيًّا حتى وإن لم ينتبهوا إلى منظري الشاذ، للحذر ليس إلا.. الطابور ينتهي بفتيات معروضات في القترين، إنحنيت قليلًا إلى اليسار أختلس النظر إلى ما يحدث في أول الطابور.

الكل مُبحلق أمامه بلا التفات، يضع أول رجل في الطابور عينيه أمام ماسح ضوئي يتعرف على شخصيته، ومن ثم يقرأ ورده من شاشة صغيرة، يأخذ الفرد من ٧ إلى ١٠ دقائق، ثم يدخل إلى المحل ليأخذ عاهرته، ويذهب إلى زجاج شبه شفاف في جوانب القترينة، ثم يشرع فيما آتى للطاهرة لأجله، لا قبلات، ولا حديث، فقط ما يفعله الحيوان بحيوانته، وقد أظلم بعض الحيوانات بحقارة التشبيه.

الزجاج الشفاف نوع من الدعاية التي تثير المنتظر، علموا أن إطار الغموض دائمًا ما يكون أكثر إثارة. شعرت برجل يقف خلفي بلا ملابس يعبث بأعضائه، شعرت بالاشمئزاز، فخرجت من الطابور هربًا، وعدتُ أدراجي قاصدًا الجهة الأخرى والتي حتمًا ستكون «مدينة البقر».

***

رقعتان ورقيتان ونصف رقعة، بجملتن رقم «٧»، وذكر فيهن خالد مشاهداته في مدينة الطاهرة البائدة.

- فصلٌ خامس -

«١»

«حُكي أن في عتيق الزمان، هرب غلامٌ إلى أحد المغارات القابعة في ضاحية نائية بجمهوريتنا العظيمة، قبل تأسيسها بمئات السنين، سَكن في تلك المغارة الكاحلة حتى كهلَ، وامتدت لحيته البيضاء حتى لامست الأرض، هرب إليها بعدما قُتلت أمه وأبوه، ومن بعدهم أخوته، أمامه شنقًا في إحدى فترات زعزعة إستقرار البلاد. تصاعدت قبيل تلك الفترة صيحات الفقراء والعمّال الكادحين بعدما ندرَ الطعام والثياب حتى تهالك ما عليهم، فلم يعد لديهم حتى ما يستر عريهم، كانوا يعملون ليل نهار في تقشُّف براتب زهيد حتى تخور قواهم فيموتوا بلا إنتباه في أوقات العمل، هؤلاء المُشوهون رأوا حاضرهم أتعس من ماضيهم، وضُبب مستقبلهم حتى وصل بهم الحال لتفضيلهم الموت عن الحياة، عندها فقط ثاروا على حكّامنا حماهم الرَّب،

ولو أنهم علموا أن ثورتهم هذه ستؤدي بهم إلى مزيد من الجوع والعري لما فعلوها، ولو علموا أن غضبهم لم يكسبهم إلا القتل والنهب لما فعلوها، كانوا جاحدين لما قدمت لهم البلاد من أمان وفتات. وفي إحدى منصات تنفيذ الإعدام العلنيَّة، شاهد الغلام أهله يتدلون في الهواء وفي رقابهم أحبال سميكة، المشهد الذي دفع الطفل للانعزال في تلك المغارة، هُناك في أقصى ضواحي البلاد، وفي أثناء تلك السنين، تأمل الغلام في الكون والحياة حتى صار أحكم الحكماء، شيَّد كوخًا عاش فيه مُتأملًا ثم مات تاركًا وراءه كتابًا وتعاليم هي المؤسسة لعقيدة بلادنا حماها الرَّب، كَتَبَ في بداية الكتاب:

على من يقرأ تلك الأوراق أن يعلم علم اليقين الأعمى، بأنه أهون لنا أن نصمت ونرضى بالفقر على أن ينتشر بيننا الهرج والمرج، وأهون لنا أن نَخدع أنفسنا ونُخضعها فنريها ما يكفل لها قسطًا قليلًا من الفتات، أفضل من أن تسحب الحياة الفتات من تحت أيدينا وترميه للطير هباءً».

مُقتطف من كُتيب مُرفق مع أحد أدوية سُعال الأطفال بجمهوريَّة النَّعام

***

«٢»

غَزت القطاعات الكنديَّة جزءًا شاسعًا من شرق الأراضي الصينيَّة، في الوقت التي تُستلهب الجموع الحاشدة، في الدول العازفة عن حربٍ عالمية جديدة، تُبَث التجمهرات الرافضة للحرب في معظم الميادين، على كافة الفضائيات، جنبًا إلى جنب، مع صور مُباشرة للقصف الكندي الغاشم على المُدن الصينية. القطاعات الكندية واتحاد الروس الجديد والجمهوريَّة الشيوعيَّة المُتحدة وجهًا لوجه أمام الصين، القوة العظمى الأولى في العالم، ويواليها كلٌ من العراق وفرنسا والهند.

سَئم التحالف تربعها على عرش السيطرة، محاولة إخضاع بالقوة الجبريَّة غرضها نحو الدولة الأعظم في العالم، تكرار لما حدث مع «الولايات المتحدة الأمريكيَّة» قديمًا، صراع السيطرة الدائم، وآخر تداعيات حربٍ باردة إستمرت ما يقرب الثلاثون عامًا بين القطاعات الكندية والصين.

في مدينة «طبرق» الليبية، أودى الشاب «عمَّار أحمد عمَّار» بحياته إنتحارًا، حرق نفسه حتى تفحَّم، جرى بسيارته في مذَّقات

طبرق، يصرخ بغضب قاطعًا ساحل البلدة ذهابًا وإيابًا: أنقذوا الأرض..! يا عالم..! أوقفوا الحرب..!

المشهد الذي كرر نفسه أمامي إحتجاجًا على عبثٍ آخر، الرجل الغاضب الصارخ في عربة بثلاث عجلات، مرَّ بجانبي بينما كنت على باب «مدينة البقر»، إقتادتني قدماي مُسارعة خلف عربته في فضول، وكان الغروب قد حلَّ، وما هي إلا دقائق حتى يجثم الظلام على عتمة الجمهوريَّة الموجودة من الأساس.

بدأت الخطوات تدقُّ، وبدأ الناس في التسحُّب والتسرُّب إلى الشوارع الخاوية، كانوا قلة قليلة في بداية الليل، إستجلت من عيونهم تقاطيع وجه مثنية ومغلقة كالمُتيقظ توًّا من النوم. هؤلاء القوم نهارهم ليل وليلهم نهار. نزل المسكين ذو اللحية المُهملة والوجه اليائس من عربته، زعق في الفضاء، ناح بصوت ذهب من حلقه: لقد إكتفيت..!! لقد إكتفيت..!! دلق الوقود على جسده، جلس على أرض الجمهوريَّة مربعًا ساقيه ناصبًا ظهره بصعوبة، حرق نفسه في هدوء مُبالغ فيه، تفحَّم بعد صراخات خوارٍ مبحوح، ظلَّت الوجوه القليلة السائرة في أول الليل لا تأبه به، لم يأبه به أحدٌ غيري، لم يأبه به أحدٌ من عالمه، على الرغم من أنه ظل وقتًا طويلًا يصرخ فيهم نصحًا، ومات وقد إستوفى كل السبل بلا فائدة ودون أي تفكير في الهرب والإنعزال، لا يختفي ذلك المشهد من خلفيَّة ذاكرتي، ليس من السهل أن ترى إنسانًا يتفحَّم وسط لا مبالاة لا تمت للفطرة بصلة.

في أثناء سعي لاهث نحو مدينة البقر، فكرت مُتشائمًا في أنني من المحتمل، ألا أجد طعامًا في تلك المدينة، وأن إختياري الذي بُني على تفكير «بالبداهة» هو مُجرد تخمين، مثلما رأيت في مدينة الطاهرة الذي لم تعبر مطلقًا عن اسمها. الواقع المعكوس هو كل ما رأيت في جمهوريَّة النَّعَام. فكرت في أن الصورة المُعتمة لتلك البقرة التي يُجز عُنقها، قد تشير في طيَّاتها إلى مدينة مكفهرة، صحراء بلا طعام ولا ماء.

ولكنها فكرة لم تلبث أن تزول بمجرد تقدُّمي أكثر فأكثر، تلاشت النظرة التشاؤمية، ولاحت المدينة مسجاة على خط الأفق، مُضيئة، بها حياة أو هكذا تلوح لي.

برز على جانبي الطريق أعمدة حديدية طويلة، عليها مُلصقات دعائية قديمة، داخل صناديق زجاجية مُهشمة بفعل فاعل، الشمس المُتيبسة طول النهار تتحرك نحو فناء مؤقت، جائعًا أزحف، أجر قدمي ودفقات عرقي تتساقط على التراب، ندمت، كان يجب أن آكل حينما كُنت في الحي الأخضر، إقتادني فضولي بعيدًا عن غريزة بقائي، وكانت شهوة المعرفة عندي تفوق بقيَّة الشهوات مجتمعة. أتفحص بإعياء إعلانات اللحوم المطبوعة على ملصقات الأعمدة، فيزيد أملي في أن ألقى شيئًا يسدُّ جوعي، تكاثر إعلانات اللحوم كلَّما تقدمت نحو مدينة البقر.

كلمتان: «اللقاح»، «الوطني»، موجودتان في كل لوحة دعائية مهشَّمة، والبقع المكسورة من الزجاج تكاثرت على هاتين

الكلمتين تحديدًا، كأنها أُستهدفت خصيصًا بالحجارة، حتى إعلانات الدواء التي تتخلل إعلانات اللحوم لم تخلو منها، تسويق الأدوية نفسه كان يعتمد على علاج المرض، بالإضافة إلى رفاهية نسبة من «اللقاح الوطني» فيه، مُرفق معه كُتيب صغير كهدية، يحكي حادثة ما تاريخية تخص عقيدة البلاد، أي حادثة أو موقف طريف تريد الحكومة من العامة قراءتها بعد شُرب الدواء، أو قبله، المهم أن يُقرأ.

اللقاح موجودٌ في كل شيء، في كل الصناعات، موجودٌ في الطعام، في الشراب، في الفروج، في الدواء، لو كنّا نملك تكلفة رشّه في الهواء لفعلناها.. لا تكف هذه الجملة عن الصدح في أذني بعدما قالها لي مُستشار ديجور في جلسة انصياع البارحة.

كلما إشتد بروك الليل كثرت الخطوات. مدينة البقر، وكما سُميت، هي مُخصصة بالفعل لبيع اللحوم بعد الذبح والسلخ والتنظيف، بجانب كُل حانوت للبيع، محل جزارة يتقدمه خطافات مُتدلية، الدماء المُتيبسة متناثرة في الشوارع وعلى الجدران، وبرك الدماء العميقة لا تجف في إشارة صارخة إلى دائم العمل اليومي، المحال لم تفتح بعد، تفتح في توقيت أعمق قليلًا من الليل، الذي ما زال في غسقه، المكان خالٍ إلا من حسيس أقدام خفيضة، ودوّمات رياح مترية، وصوت عواء لا يكف.

على الجانب الأيمن من أحد الشوارع تراص بضعة رجال بأسمالهم المعهودة أمام بائع جوّال بعربة سوداء، طلاء عربته

تُفسّر، ومعدتها مهترئ، زودت بشاشة أمامية متوسطة الحجم، وقفتُ في الطابور المُصطف، لا أتحمل الجوع، أريد شطيرة من أي شيء يؤكل، كان يبيع اللحم والكبدة والكلاوي، أعرف مُسبقًا بأنه لا يوجد نقود، ما عليّ إلا أن أقرأ النص الذي سيظهر على الشاشة وفقط، جوعي فاق الحد، واحد وراء الثاني حتى أتى دوري، اخترت ساندويتش من لحم «ريش الصدر» ثم وقفت أمام الشاشة ببلاهة أنتظر شيئًا.

- «ما بك يا هذا...؟! ضع عينك أمام العدسة...! الماسح لا يقرأ هويتك...!»

توّترت.. هويّة...؟! أي هويّة...؟! لا توجد هويّة لي لديهم!

- «أين...؟!»

خرجت بحشرجة.

بحثت عن العدسة حتى وجدتها، فوق الشاشة، وضعت عيني موازية محور العدسة مضطرًا، لم يبد على ما سبقوني أنهم أجروا ذلك الإجراء، أو أجروه ولم أنتبه لاعتيادهم على طريقة الوقوف والنظر إلى الشاشة المُكرر كُل يوم، قلبي يضخ الدماء، سخنت أذناي، قرأ الماسح عيني، أطلق إنذارًا! نظر الرجل إلى مكان ما في ناحيته، تعجب، رُكل وجهه خارج تعابيره المُعتادة، حدجني حدجة مريبة، بدا لا يُصدق نفسه، ينظر إلى ما ينظر إليه، ثم يعيد النظر إليّ، يتأكد من شيء.

زَعق حانقًا:

- «خُذ ما تريد وأرحل.. لا نريد مشاكل.. ارحل...!».

أخذت الساندويتش الطالع من فتحة العربة المدوَّرة، وجريت بدون قراءة النص.

وقفت ساكنًا في إحدى النواصي أهُم بأكله، لقد كُنت جائعًا ولم أكن أفهم شيئًا...!

***

ثلاث رُقع ورقيَّة رُقمن برقم «٨»، وذكر فيهن خالد حضوره حادثة انتحار «رازن آمين» الشهيرة قرب مدينة البقر، واكتشاف العدسة تشابه بصمة عينه مع بصمة عين «زائد الحق».

«٣»

نرثر ببلاهة، ورأسه المُبغَّل ينضح بالغباء الشديد:

- «سائق عليك النبي يا دكتور.. يعني أنا في عالم موازي ممكن أكون رشيق وبعضلات والبنات تحبني كذا...؟! إحتمال أكون طبيب جرَّاح مشهور بدل معمعان المرستان الذي أنا فيه دا...؟! يتوب علينا ربنا...».

تيار الهواء القادم من النافذة أجبرني على ضمّ نفسي بكلتا ذراعيَّ، النافذة المفتوحة تُبرز ضوءًا غاربًا ساقطًا على بناية مدينة، مُعلقًا عليها شاشة عملاقة خاصة بالدعاية المختلفة، عليها صورة تُبث اليوم خصيصًا لـ«عيسى» ابن المرأة الروسية مصلوبًا، وكُتب بخطٍّ عريض:

«رحل من أعطانا الأمل».

أجلس على كرسي خشبي أمام مكتب في غرفة ضيقة، البرد يشتد، الغروب يحل.

تبسَّمتُ بإصطناع مُلاحظ:

- «الأمور لا تسير هكذا.. هذا ما نشاهده في الأفلام فقط.. قل لي أرجوك: أين دكتور ماجد..؟!»

قصدت السؤال بغتةً قاطعًا حواره السمج، لا يبدو أنه سمع سؤالي، استمر في ثرثرته، وأنا أتأمل جسده البدين يرتج من قوة ضحكته ذات الخوار والشخير المُتقطع.

- «أنا سعيد والله يا دكتور أني قاعد قدَّامك.. أنا من أشد معجبيك.. إنقاذ كوم البشر هؤلاء إن شاء الله.. شُوف.. إن شاء الله.. سيكون على يد رجل مصري محترم مثـ..»

حلَّ هدوء غامض، لم يصمت بالطبع، أنا من ذهبتُ إلى وجود آخر، زاد سطوع الشاشة الواضحة من النافذة.

نظرت إلى الساعة الرقميَّة المُنبعثة من أسفل يمينها.

٦:٠٦..

التيار البارد يزداد ويتخلل شعيراتي، الزمن المبثور يتدحرج نحو الوقوف، يتباطأ، ما زال يثرثر ويثرثر، وشفتاه الغليظتان تترنحان ببطء، أسمع من كلامه شيئًا، الدهون المُتململة من روبه الأبيض تتراقص، شعرت بإرتياح مؤقت لهذا الصمت، صوت دقات البندول ذي الكرات المعدنية على المكتب هو الصوت الوحيد بالمحيط، المكتب الجالس عليه الطبيب البدين يحمل

اسم «د. ماجد مرزوق»، إستشاري الأمراض النفسية والعصبية بالعباسية، صديق الطفولة والدراسة القديم، دخلت بعشم مكتبه ولم أجده، وجدت ذلك البغل البنغالي على كرسيه.

تُزعجني طقطقة:

«طق.. طق.. طق..!»

تبدَّلت الرؤية.

أُلملوس بصريًّا، أرى أحلام يقظة واضحة، لا أعرف، لا أملك مُسمى لها، أقف وحيدًا في قفص زجاجي، أمامي جموع حاشدة مُصطفة على كراسٍ في ساحة واسعة، قام الجميع من كراسيهم، ونزلوا على الأرض ساجدين تجاهي...!

طقطقة: «طق.. طق.. طق..!»

- «دكتور خالد.. أنت معي...؟! دكتور خالد!»

نظرت إليه بعد صمتٍ:

- «أين دكتور ماجـ...»

لم أكملها.

دخل ماجد باسمًا:

- «دكتور خالد...! بنفسك يا رجل...!»

تنحنح البدين ثم خرج، إحتضنت «ماجد» بلهفة، وجلس مكان البدين على كرسي المكتب الجلدي، بعدما أوصى البدين بمريض عنبر «٨»، الذي يُشتبه في إصابته بـ«البارانويا»، ثم قلت ناظرًا الى الباب:

- «دمُّه خفيف.. ما اسمه...؟!»

ضَحك.

أتى الشاي المعدَّل، إرتشف منه رشفة:

- «لازم توَّقع على الإذن.. للأسف أبوك إنتكس.. رجعت له ميوله الانتحارية من جديد.. لازم نرجعه العزل ثانية.. أبوك ليس مريضًا عاديًا يا خالد.. أبوك ذكي.. كان من أذكى الأطباء في العالم.. جميعنا كأطباء كنَّا نقتدي به.. عرف كيف يخدعنا ويوهمنا بأنه لم يعد يفكر في الانتحار حتى خرج.. وعادت محاولاته أشرس وأقوى».

أردف بينما سكتت أفكر فيما هلوَّست من لحظات:

- «خالد.. أنت صديقي من زمان.. هذا لمصلحته.. أنا عارف أنه صعب عليك.. إدارة المستشفى لن تقوم بأي محاولات ثانية لحمايته وهو خارج الغرف الانفرادية».

تبسَّمت بحسرة وأنا أهزُّ رأسي:

- «أريد أن أراه».

ردَّ بسرعة كأنه ينتظرها:

- «صعب.. لكن سأحاول.. انتظرني لحظة».

غاب دقائق ثم أتى مشيرًا لي وهو في فم الباب. إقتادني إلى الغرفة القابع بها أبي، بعدما نزلنا درجًا سُفليًا وهو يقول:

- «أنا من وضعته في العزل بعد محاولة إنتحاره.. أرجو ألا تغضب.. أنا لم أفعل ذلك إلا لأنه أب لصديق عزيز مثلك.. معك ١٠ دقائق.. بعد الـ١٠ دقائق سيطلب منك عم «رضا» التمرجي الخروج.. اسمع كلامه فورًا.. سأذهب لمتابعة بعض الحالات وسأجلب لك عم رضا حالًا».

وضع يديه على لوحةٍ تمسح بصمة الإبهام، فُتح الباب المُبطن بالأبيض، ويبدو أنه لمح الأعياء على وجهي فسألني:

- «أنت بخير يا خالد...؟!»

- «لا تقلق.. توكَّل على الله أنت..».

تبسمت وأنا أومئ له برأسي.

- «بعد أذنك».

سارَ لأمتارٍ بالطرقة فلاحقته مُناديًا بصوتٍ عالٍ:

- «ماجد...! عيادتك ما زالت في المعادي...؟!»

- «نعم.. سأنتظرك قريبًا».

ابتسم وانبسطت ملامحه كأنه انتشى لصدق شعوره.. طيب النفسية يعرف من يحتاجه ومن لا يحتاجه، كما أن الألفة التي بيني وبين «ماجد» ليست موجودة بيني وبين أي صديق آخر، كُنت أريده أن يشرف على حالتنا أنا و«داليا»، لكنها رفضت، تقول إنها لا تريد طبيبًا يعرفنا معرفة شخصية.

أنا بحاجة إليه الآن.

دخلت.

يقرفص، يرتدي الأبيض الناعم والخفيف، ينظر بعينين واهنتين إلى نقطة في الجدار المُبطن، وجهه المنكمش من لكمات الزمن صنع في وجهه أزقة وحواري، شعره الأشيب مُتوج قمّة رأسه، تاركًا دائرة صلعاء بالمنتصف، التبطين تنجيد غليظ جدًّا، ومُتفخ، لا يمكن لأي الموت في غرفة كهذه.

وأيضًا لا يمكنه الحياة.

إخترق فراغ الغرفة قائلًا بصوتٍ عميق:

- «لا يوجد في هذه الغرفة مبولة.. أيجب أن أناديهم كلما حُصرت...؟ لقد تبوَّلت على روحي مرّتين».

- «بابا.. أنا خالد...!»

- «عارف أنك خالد يا بني.. هل سأخبر أحدًا غيرك بأني تبوَّلت على روحي مرتين...؟!»

تمتمها بنبرة حزينة..

- «كيف حالك يا بابا..؟!»

نظر إليَّ باستخفاف:

- «لم أكن أعرف أنك أصبحت مما يتفوه بها لا يحمل أي معنى.. أخيرًا عرفت أنك لك أب».

- «بابا.. أنت من قلت لي ألا آتي إلى هُنا ثانية لأركز في أبحاثي..! ألا تذكر..؟!»

- «هل تعتقد أن هذا مُبرر...؟! ستكبر وتعلم أن هناك فرق بين الطلب والحرج».

صمتُّ خجلًا، ثم قطعت الصمت:

- «لم حاولت الانتحار ثانية...؟! لم تريد الذهاب...؟! كنَّا انتهينا من موضوع الانتحار ذا.. ماذا جد...؟!».

- «هذا ما تريده أنت أن ينتهي.. وليس ما أريده أنا».

- «بابا.. ! ماذا هناك...؟! أخبرني ماذا هُناك...؟! ماذا حدث...؟! لماذا تريد أن تتركني يا أخي...؟! فكّر في حتى...!».

- «غريب أنك تريدني أن أفكر فيك وأنت لا تُفكر في».

- «من قال ذلك...؟ أنا مركّز على إنتهائي من غرفة القفز.. أمنيتك الأخيرة.. أليس أنت من قلت لي ذلك في آخر مرَّة...؟

هل تتذكر ماذا كُنت...؟! الطبيب العالمي المشهور.. صاحب الفضل في إقتراب البشرية من الخلود.. أنت أنجب طفلًا وسمّه خالد إيمانًا بمشروعك...!».

فتح فمَّه باستخفاف ضاحكًا ضحكة قصيرة تحمل ندمًا طويلًا:

- «أكبر غلطة عملتها في حياتي».

صُدمت ونظرت إليه مُشفقًا:

- «تقصد ماذا؟ .. مشروعك أم إنجابك لي..؟!»

رفع يده مشيرًا بالسبّابة والوسطى:

- «الاثنين يا بني».

نهض واقفًا بصعوبة:

- «لا أعلم ماذا أقول.. أعذرك.. لا حرج عمن يسكن تلك الغرفة.. سأدعو الله لك..».

- «الله..؟! تدعو لي لم..؟ لأني اعترفت بخطيتي..؟!»

ضحك مُستخفًّا مُستطردًا:

- «الخطيئة الحقيقة أنه رجّع الخصوبة.. كان يجب محونا.. كان يجب محونا من البداية وهذه الخطيئة الكبرى.. أنه خلقنا أصلًا...!».

- «أنت تهذي...! من يتكلم...؟! الذي قال أنَّ من حقنا الخلود...؟! كل هذا لم...؟! لأنك فشلت...؟!»

زعق مُقتربًا مني ممسكًا بذراعيَّ:

- «أنا لم أفشل...! أنا من انسحبت بكامل إرادتي...!»

أردف صائحًا بغضب:

«خلود ماذا..؟! لقد رأيت بنفسك..! ثلاث سنوات من عدم الإنجاب.. عشرات السنين من الحروب والإبادات الجماعيَّة.. اهتمينا بالخلود.. الخلود.. ونسينا نفسنا.. نسينا البني آدم.. البني آدم ينقرض ونحن نفكر في خلود الموجودين وفقط.. فقدنا عبثًا...! عن أي خلود تتحدث...؟! خلود هذا الإنسان.. أم المسخ الساكن الأرض الآن؟! لم يكن يجب أن نهبط من فوق من الأساس...!»

- «لقد فقدت عقلك ولا تدري ماذا تقول.. سأوقع على إذن بكونك في العزل حتى تتعافى».

- «أهكذا لن أموت...؟!»

- «نعم، لن تموت».

- «الموت سيأتي من العالم البرَّاني يا بني.. الموجودين برًّا هم من سيجلبون الموت.. وعلى الرغم من هذا.. أطلب منك ألا ترفع شيئًا.. لا يوجد مبولة هُنا» بنبرة ساخرة.

- «لن أكون السبب في موتك».

- «الموت أن أعيش معكم في هذا العالم».

صدح صوت من خارج الغرفة قائلًا:

- «انتهت الزيارة يا افندم».

إلتفت للخروج وتذكرت أن أخبره:

- «داليا حامل».

لاحت الصدمة على وجهه، تسارعت خطواته نحوي، دفعني بقوة حتى لامس ظهري الحائط المبّطن:

- «اقتله...!»

- «ماذا تقول...؟!»

- «إسمع مني.. نزّل الطفل يا خالد.. لا تشارك في استمرار المسرحية...!».

- «وحقُّه في الحياة...؟!»

- «حق مَن يا بني آدم...؟! ألا تفهم...؟»

عيناه تبرز من وجهه الأحمر.

دخل «رضا» وخلفه «د. ماجد»، صاح «ماجد» في «رضا»:

- «ألم أقل لك: عينك عليه...؟!»

أمسكوه بشدّة ودفعوه عني وأنا أصيح بهم:

- «لا يوجد شيء.. إتركوه أنا بخير».

لم يسمع أحدهم كلامي، وحقن «ماجد» عنقه بإبرة قصيرة

وصاح أبي مُكررًا حتى نام:

- «نزّله يا خالد، انظر أين تعيش يا بني، لا تأتي بقاتل جديد، لا...».

رحلت عن المشفى.

عند الاستقبال وقّعت الأذن، وطلبتُ من السكرتيرة ذات الالتواءات الجميلة، والغمازة اليُمنى، بأن تغيّر رقم الهاتف المُرفق بملف أبي وتبدّله برقم هاتفي.

الباحث عن الخلود يحاول الانتحار في النهاية.

يا لهزليّة القدر؟!

***

- فصلٌ سادس -

«١»

قضمتان لذيذتان هما كُل ما بلعت، أو هكذا أتمنى، كنت على ناصية شارع تحت يافطةٍ لحانوتٍ وبجانبه محل جزارة، في الجهة الأخرى من الشارع لمحت محلًا على جهتين يبيع شيئًا يشبه «كاميرات المراقبة والاستطلاع»، يبدو أنه يخدم بائعي المنطقة. في القاترينة، وضع صاحب المحل أجهزة عرض واسعة، وشاشات ترصُد ما يجري أمام المحل كنوعٍ من الدعاية، القادم سيكون معقّدًا وصعب الكتابة، لا أجد طريقة لكتابة ما رأيته، لكني سأحاول.

ما أن لمحت الشاشات حتى تسمّرت بلا حراك، الشاشات تنقل ما ترصده الكاميرات بجودة عالية، تقدّمت مُغلقًا عيني نصف إغلاقه، أملًا ببصرٍ أحَدٍّ يفسر لي ما أشاهده! رأيت في الشاشات مدينة غير المدينة، وجمهوريّة غير الجمهوريّة. الأطلال الخربة

والباهتة كانت في الشاشات عمارات مصطفة شاهقة وبارقة. الشوارع الوعرة المليئة بالدماء والقمامة في الشاشات ممهدة ونظيفة ولامعة.

لاحظتُ ذلك بينما لا أزال على الجهة الأخرى من الشارع، مرَّت أمامي سيارة حابية على إستحياء، إنتبهت لها وأنا أعبر الشارع، ثم نظرت إلى الشاشة فوجدتها طويلة فارهة! إقتربت أكثر وأكثر حتى ظهرتُ «أنا» بوضوح في الشاشات، أرتدي رداءً من الجلد الأبيض الملوكي مُطعم بالذهب ومرصّع بالفضة.. نظيفًا بارقًا...!

ربّت على جسدي بحركات سريعة لأتأكد مني.. وأنا أنظر إلى نفسي مندهشًا...! قلبي يضرب ضلوعه بعنف، أنفثُ الزفير في زجاج القاترينة الفاصل بيني وبين الشاشات، وفي يدي ساندويتش اللحم ناقص قضمتين. مرَّ خلفي رجل بأسمال أنامس الجمهوريّة التي حفظتها، يرتدي خفًا يزحف به مفتعلًا فحيحًا، لون بشرته أبيض مُنفر، ظهر على الشاشة يرتدي مثلي بالضبط..! أبيض ملوكي مُطعم بالذهب والفضة...!

وقتها فقط فهمت من أين أتت تلك النظرات الواثقة المتجلية من صفحات وجوههم البائسة، أنا الوحيد الذي أرى الأشياء على واقعها هُنا، أنا فقط...! هذه أرضٌ ترتوي بخداع أبنائها.. وأبنائها أنفسهم أحبوا خدعاهم لذواتهم لما لقوا فيه من وهم مُريح.

ما زلت ساكتًا ألاحظ الفرق بين ما يُعرض على الشاشات وما أرى على الواقع، أتى قصّاب في الجهة المُقابلة من الشارع يفتح محله،

بابه جرّار، يُجر من أسفل إلى أعلى بانسيابية، الخطافات المُتدلية أمام المحل لا تحمل لحمًا، نظرت إليه من الشاشة، يفتح محله في حركات مُتكاسلة تناسب صباحًا باكرًا، لا ليلًا عاتمًا، الزمن متباطئ.. فتح القفل.. دفع الباب إلى الأعلى.. كُنت أعرف أنني أنتظر شيئًا فظيعًا.. ظهرت من الأسفل أرجل البقر المسلوخ الدامية في الشاشات، نظرت بطرفي إليه عبر الواقع.. ضُخ الدم إلى رأسي.. صفرَّت أذناي.. برزت عيني حتى كادت أن تَنفلت من مكانها..

لقد كانت أقدامًا بشرية!

مع دفعه للباب الجرَّار استجلت كامل القدمين.. ثم العورة المُتدلية.. ثم صدر بلا رأس.. جسدٌ كامل بلا رأس مُعلق على خطَّاف.. وبجانبه أربع أو خمس جثث بشرية مسلوخة أخرى.. نظرت إلى الساندويتش في يدي.. رميته.. تقيأت.. شعرت بكل شيء يدور إلى أن سقطت على الأرض فاقد الوعي أبحث عن خيطِ هواءٍ رفيع.

لقد وصل بهم حُبهم المنحرف للخداع والباطل درجة أكلهم أنفسهم وهم لا يعلمون...! يُهيأ لهم أنهم يأكلون لحوم بقر..! علمت فيما بعد أن اللحوم البشرية في جمهوريَّة النَّعَام هي من لوازم العيش، وأن الأجساد الميتة وأجساد المعارضين ومن يخرج عن عقيدة البلاد يُذبح ويوَّزع على الحوانيت والقصابين كلحم بقر، اللقاح يعوِّد أدمغتهم على تصديق كل ما يرونه، أو يسمعونه، وكل ما تعرضه الشاشات.

النساء المعارضات مثلًا، كانوا يسمِّنون خصيصًا ويقدمون جلود الحكومة على أنهم لحم بقر بعد اغتصابهن عشرات المرات، هذا بالطبع إذا لم يكن هُناك طريقة لعودة المُعارض لكنف الجمهوريَّة بعد جلسات انصياع متوالية..!

أصل هذه العادة هو ندرة أصناف الطعام الأخرى، والقحط الحيواني والفقر السائد في الجمهوريَّة كلها.

قال المستشار آشر بتأمل: ما دمُت ميتًا، فخير لي أن أقدمك طعامًا للشعب بدل من أن تضيع خسارة لا تفيد أحدًا. يجب أن يموت المُخربون والخارجون عن إرادتنا موتًا فيه نفع للآخرين.. نحن جمهوريَّة تعرف كيف تستثمر كلَّ شيء.

لقد ارتكب هؤلاء البشر ذنبًا عظيمًا في حق أنفسهم حين صدقوا كذبهم الخاص، وها أنا أدفع ضريبة كذبهم بجلسات انصياع مهينة ومؤلمة، تذهب بي إلى العدم، وتحولني إلى شخص لا أعرفه.

عليَّ أن آخذ منًّا آخر من القزم في الغدِ، ما أحمله ينتهي، لا أستطيع مسكه جيدًا، لا أستـ...

***

رقعتان ورقيتان يحملان رقم «٩٥»، وذكر فيها خالد مشاهداته للفظائع الوحشيَّة حدثت قديمًا في مدينة البقر.

«٢»

أتيت إلى الأرض الظالمة في الوقت الخطأ. أتيت في فترة فاترة سياسيًا، نزلت وسط شغبٍ جماعي، الشعب الثري بالأكاذيب والمُستيقظ كلَّ يومٍ على أكذوبة مُبتكرة، بدأ بالشعور بأن الحكومة لم تعُد تهتم به، لم تعد تهتم بجودة الأكاذيب التي تقدمها، تستخف بعقول مواطنيها. يُشار بأن الحكومة قللت نسبة اللقاح من كافة المنتجات، خصخصت مصانع الأكاذيب لشركات مجهولة، لم يعد هُناك كاتب مبدع للأكاذيب يتصدر المشهد ودور العرض، إندثر كافة الكتَّاب المبدعين، أكاذيب الحكومة قديمة ومُكررة لم تعد تُشبع شعبًا عاش مئات السنين في غنى الكذب.

قرر الشعب الانتفاضة أخيرًا رافعًا شعارات تطلب برفق، مزيدًا من الاهتمام الذي يريح النفوس، وخداعًا يُرجع القلوب إلى مُستقرها. قبل الانتفاضة السلميَّة عرفت أجهزة إستخبارات «الأندرويست» ما يدور على ألسنة الشعب، هذا لأنهم أصلًا أفرادٌ من جموع الشعب، علموا بسَئم الناس من قلة إهتمام الحكومة، ولاحظوا نظرة الثقة في العيون تتثنى شيئًا فشيئًا، هُنا

ركب «الأندرويست» الموجة، وسيروا الانتفاضة السلمية على مزاج الشعب، مع أنهم كما يُقال عليهم: «كفرة» رافضين لعقيدة الدولة بالكامل، وليس من مصلحتهم الوقوف بجانب شعب يطلب مزيدًا من الخدع، هُم لا يريدون إلا الحق، ومع ذلك قرروا تحريك البِركة قليلًا.

بدأوا بكتابة المنشورات ورميها على مجاري الأنهار، كتبوا مددًا لا بأس به، بعدما كفت الحكومة عن صنع آلات الطباعة منذ زمن عتيق وإعدام من يهربها إلى داخل البلاد. كتبوا على الجدران كثيرًا من الإرشادات، علَّموا الناس معنى كلمات مثل: «ثورة»، و«إنتفاضة»، و«حق»، بعدما اقتصر تداولها بين زنازين المحاجر وجلسات التحقيق، وحُرِّم تداولها علانية ومعاملتها كما لو كانت أسرار وبذاءة، يكتبون على الجدران في لفتة نظر «ثورة»: اسم يعني تحرك الشعب في حشود طلبًا للحق، وليست كلمة بذيئة كما يشاع عنها منذ قديم الأزل.

احتشد الشعب، وعلى الرغم من بذل الحكومة كافة الجهود لإبداع أكاذيب جديدة، وتدريب الكتَّاب في دورات الإبداع، إلا أنهم وحتى تلك اللحظة، التي أسرد فيها ما حدث لي على رقعة ورقية، والصل زنزانة جميلة ناصعة البياض، في طريقهم إلى فشلٍ ذريع.

إستمرت الأكاذيب في الضخ لمئات السنين حتى نضبت، اعتاد الشعب الأكاذيب المتداولة حتى ركلته نفسها خارج المألوف. أصبح كهذا يحتاج إلى أكاذيب جديدة وجديدة إلى ما لا نهاية،

الإنسان تحت سماء جمهورية النَّعام غارق في الكذب، ويتنفس الكذب، ويخضع للكذب طوال حياته.

عمَّت غبشة الليل، كُنت مرميًا على ظهري حين أفقت، الثلاثة أقمار صاغوا من السحب المُلبدة بالغيوم مشهدًا أسطوريًا، صوت جلبةِ أقدام تجري بجانب أذنيَّ، يخالطها نقع صرخات غامضة تعمُّ الأرجاء، فَصَلَ بين الأقمار ومشهدها الأسطوري كعب حذاء مُتيبس، داس على وجهي تاركًا كدمة على شكل حذاء، ونظارة طبية مُهشمة، زعقت في الوجود من الألم، هممت بالنهوض فزعًا جاهلًا كل ما يجري حولي، نظرت بإمتعاض إلى محيطي؛ محلات مُحطمة وفتارين مهشمة تأكلها ألسنة النيران التي تبدو أنها أُشعلت عمدًا، الناس تركض والزحام شديد، ركضت مترنحًا مع من أركض، لا أعلم أي الطرق تؤدي إلى الهرب، خطوتان ودستُ بقدمي اليمنى على ساندويتش اللحم البشري الذي أكلت منه قضمتين، انزلقت ساقطًا بضراوة على ظهري سامعًا صدى عنقي يُطقطق.

كُنت على الأرض لا علاقة لي بالزمان كيف يمُر، يُغشى عليَّ وأفيق، ثم يُغشى عليَّ وأفيق عدة مرات، نَضح صوت أقدام تُدبدب، بعيدًا في آخر الشارع، نقل الكون المشهد الأسطوري لي الغيوم، إلى مطرٍ هاطلٍ يسقط على ثلاث صفوف من المُجندين، عيونهم قادحة مُضيئة في ظلمات نسبية، يرتدون زيًّا أسود مُعتمًا تتبادل أقدامهم اليمنى واليسرى في الدبِّ على الأرض، وقفة

عسكريَّة، يطلقون الغبار في الهواء على الرغم من هطول الأمطار، يهزون الأرض هزًّا، يَؤمهم قائدهم المميز بنياشينه المُذهبة، وبجانبه بائع الساندويتشات الجائل، يوشي له بشيء في أذنه ويشير بأصبعه إليَّ، لقد أخبره بما حدث معي وأنا أبتاع منه الطعام، أخبره بي، وليتُ نفسي عسرًا تجاه زقاق نويت عبثًا الهرب منه، وما إن نهضتُ بصعوبة حتى ضُربت على مؤخرة رأسي، وبُعثت كطردٍ سريع إلى محجر ديجور الصحي حيث أقبع الآن.

***

رقعتان ورقيتان رُقمتا برقم «١٠٢»، وذكر فيهما خالد كيفية القبض عليه واعتقاله في محجر ديجور الصحي للتقويم والإصلاح.

«٣»

إرتكز أبي على باره، وقال مُستنكرًا بعدما غرق في مُكره: لا يمكن أن ينتهي العالم هكذا بدون أن أكمل تلك الكأس...!

كُنت أزوره لأول مرَّة في بيته، تخطَّيت السادسة عشرة، وصرَّحت لي أمي بالذهاب وحيدًا لمقابلته، تعرض شاشته المُسطحة احتفالات عبدة الشيطان بنهاية العالم، بعدما حلَّت على الكوكب كُتل ضبابية كثيفة، غشيت مساحات شاسعة من العالم، كان ذلك بعد الحرب بثمانية أعوام، إستمر ذلك الضباب على الأرض أكثر من شهرٍ ونصف، سُميت هذه الأيام بـ«أيام الضباب الكبير»، أو «أيام الدخان الكبير»، تُحل فيها كل أخضر مرَّ عليه الضباب، انتشرت الأمراض المُعدية المُتنقلة عبر الهواء، وتفشَّت الأمراض خاصة في الأقطار العربية والإسلاميَّة، أشارت إحصائيات منظمة الصحة الدولية، إلى أن ما يقرب من الـ «٧٧٪» من تعداد الموتى حول العالم في أيام الضباب الكبير، كانت من الأمراض المعدية، وأنَّ أكثر من نصف النسبة من الشرق الأوسط، وخاصةً من القلة المؤمنة طبقًا للتحقيقات التي أجراها «الإنتربول».

فسرت منظمة الصحة العالمية الأمر، بأن بعضًا من الطقوس الإبيانية هي سبب أساسي في التفشي السريع للأمراض، فيما زعم المؤمنون الأصوليون أنها مؤامرة مُصطنعة للقضاء على المؤمنين في العالم كله.

وقال صوت خفيض من على مِنبر مسجد رسول الله بالمدينة المنورة، إنَّ هذا ما أخبرنا به النبي محمد، عليه الصلاة والسلام، حين تنبأ بدخان كبير في آخر الزمان، يقتل المؤمنين، ويترك غير المؤمنين لمواجهة النهاية المأساويَّة. كل طائفة تحدثت بأفكارها في إكسار ووهن، فما لبث أن خرج العالم من دائرة عدم الخصوبة، حتى وقعوا في فخ الضباب الكبير...!

في تلك اليوم، لم يكن الضباب قد حلَّ على مصر بعد، ولكنه بات على وشك، زُرت أبي حينها لأول مرَّة بدون رقيب غير الرقيب الإلهي، ففي السابق، كان يراني في حدائق المعادي، وكنت أحدثه مقتضبًا لأن والدتي دائمًا ما كانت تجلس بعيدة، تترقبنا في حدقات اشمئزاز، وتستشيط غضبًا إذا رأتني أضحك معه، أو حتى أستشرق بسمة، كانت تكرهه كثيرًا.

بعد تلك الزيارة السريعة، الذي قال لي فيها سكيرًا، بأنه لابد أن يكمل الكأس قبل نهاية العالم، اكتشفت أنني لم أكن أعاطب إلا شبح أبي، بعد رحيلي بسويعات، تحدث معي عبر الإنترنت وسألني لِمَ لَمْ آت لزيارته! أقسمت له بأني كنتُ لديه منذ ساعات، وبعد جدال مُشتت، لام نفسه على شرب

الخمر في وجودي، وعاهدني ألا يفعل ذلك مرَّة أخرى.

لم أعلم قط سر تعامل أبي معي بتلك الطريقة الصريحة والتلقائيَّة، لا يفعل معي مثلما يفعل كل الآباء، لم يشغل باله ما شغل كل الآباء، لا يحول في خاطره أسلوب تربية معينة، ولم يفكر أبدًا في نصحي بضرر التدخين أو الخمر، لم يأمرني بالصلاة أو الدراسة أبدًا، أبي كان أقرب لهؤلاء البشر العشوائيين الذين يتعايشون في حيوات بوهيميَّة؛ لا يفكر إلا في العمل بحب والتجوال والسفر، يقول دائمًا إن الحياة في غاية البساطة، والمدنيَّة هي من عقدتها، لم يحب قط أجواء التمدن، وقال إننا كبشر لم نكن نعرف إلا التجوال والسفر عبر الغابات والأصقاع والصحاري.

المدنية ما هي إلا قفص فئران مُكبَّر، التقود فيه هي قطع الجبن التي تعلق على الخطافات، الفارق بينها وبين قفص الفئران، أننا من صنعنا القفص، ونحن أيضًا من وضعنا الجبن.. هكذا كان يقول، لم أنسَ ذلك النقاش الصارخ الذي خاضه مع والدتي حتى لا يدخلني المدرسة، زعم أنها ستمسح عقلي ولن تفيدني بشيء، وقال إنه سيتكلف بتعليمي بنفسه دون الذهاب إلى أي أماكن للتدريس، ولكنه مع زنِّ والدتي المستمر، وانشغاله بأبحاثه، لم يجد مفرًا إلا لقيدي في مدرسة مجاورة، وظلَّ وقتًا طويلًا يذهب إلى المدرسة يحقق مع المعلمين حول المعلومات الخاطئة التي يلقونها عليَّ. نقلت من مدرسة إلى أخرى، حتى سئم وسلَّم للواقع المُتأصل منذ عتيق الزمان.

بعد أيام من تلك الزيارة غير المحسوبة، حدَّث أمي هاتفيًا، لا أعلم ماذا أخبرها، ولكنها أخبرتني أنه يريد إصطحابي في رحلة إستكشافية إلى محل عمله بقرية «الزعفرانة» التابعة لمدينة «رأس غارب». كان وقتها يُشرف على زراعة أول عقار مضاد للشيخوخة، لا يحق لأمي الاعتراض على طلبه طالما تخطيت السن القانونية لحضانتها، ولذلك رضخت لموافقتي وسط وطأة القانون، ومحاولاتها المستميتة في التصابي من أجل الايقاع بزوج آخر.

ركبت السيارة في صباح اليوم التالي سعيدًا، استمر أبي في القيادة ما يقرب من الثلاث ساعات، حتى تراءى في الأفق كثيفٌ من الضباب الكبير، لقد جاء إلى أرض مصر، هبط من السماء منخفضًا على قمم الجبال بطريقة أسطورية، فزعنا، مرر لي أبي نظرات مفادها: لا تخف، إستوقف السيارات إرتكاز أمني لتوزيع الكمامات، وحقنهم بأمصال العدوى، دافع أبي عني كثيرًا حتى لا أحقن بتلك الإبر، كان يعلم بغضبي الشديد لها، ولكني في النهاية حُقنت بثلاث أو أربع حقن على يد أطباء وممرضين من القوات المسلحة، ومضيت باقي الطريق إلى الزعفرانة ما بين البكاء ومواساة الأب الذي لا حول له ولا قوة.

بتمتم وهو ينظر إلى الضباب الملوح في الأفق: هذه فعلة البشر.. لنجن ثمن أفعالنا.

دخلنا الضباب الكبير، وكما كان متداولًا على الفضائيات، لا يشبه ضبابًا عاديًا، بالكاد ميزت كابوت السيارة من شدة كثافته،

وحينما فتح أبي النافذة ليرمي بعقب سيجارته الممصوصة عن آخرها، تخلل الدخان فراغات جسده كأنه روح حيَّة تتطاير..! حتى الاستنشاق نفسه صاغ من الضباب خطين يخترقان منخاريَّ بسلاسة غريبة..!

الاتصالات والإنترنت لا وجود لهما داخل الضباب، صرنا وحيدين، يمر بجانبنا من حين لآخر سيارة أخرى، تصدر هدير مفزع كلما مرَّت. رهبة الدخان أنستني ألم الإبر، وأدخلتنا في حالة من الرعب غير مسبوقة، وصار أبي يتمتم: سنكون بخير يا خالد.. لا تخف.. أنا معك.

وصلنا المزرعة القابعة وسط الأعراف، وضروب عديدة من النخيل والأشجار، نسير على العشب الرطب من كثافة أنداء الدخان، وما إن وصلنا حتى إجتمع أفراد من الغفر ببنادق طويلة، كبار في السن، وجهوا إلينا بنادقهم حتى تأكدوا من وجه أبي المضبب خلف الدخان، رحبوا بنا على الفور في حفاوة وبلهجة بادية غريبة، دخلنا من باب زجاجي، يحبس الدخان خارجًا، بدا صندوقًا كبيرًا ممتدًا عبر الأراضي الزراعية لحماية النباتات والزروع.

أتت مجموعة كبيرة من العمال ليحتفوا به، يؤمهم شاب بروب أبيض، قال لأبي على فوره: انتهينا من العوازل الزجاجية قبل أن يأتي الضباب.. لم يتمكن الضباب إلا من بعض قراريط الجهة الشرقية.

قصد بقوله العقار المضاد للشيخوخة، أطلق أبي تنهيدة إرتياح ودخلنا وسط حفاوة العمال المشتاقين إليه، وقال كبير العمال وقد وضحت قوة العلاقة بينه وبين أبي: ارتح أنت قليلًا يا أبا خالد. واستجاب أبو خالد، أي استجاب أبي كما ينادونه، ودخلنا مهجع النوم، ونمت في أحضان أبي لأول مرة مُذ أعوام.

بقينا في ذلك المكان عشرين يومًا، بدا مصبوغًا بالبياض من كل الجهات، ولكنه ليس دهانًا، لقد كان الزجاج يعكس كثف الدخان الخارجية. لا توجد مباني كثيرة، فقط ثلاثة مبانٍ: مبنى العامل، ومبنى عنابر النوم، ومبنى صغير به حجرات للحمامات.

رأيت أبي يعمل لأول مرَّة في حياتي، يشرف على العمال والفلاحين والمهندسين الزراعيين، لم يكن أبي طبيبًا بالمعنى التقليدي للطب، بل كان عالمًا ورائدًا في مجال الشيخوخة.

في تلك الأيام، تعرفت على العمال البسطاء الذين أضحكوني، وعوضوني عن كل الأيام التي إتخذت الوحدة فيها خليلًا، على الرغم من وجود أمي الدائم. أغلب الأوقات يسود بين العمال تواصل من الضحك والتندر، يطيبون بها أيام العمل بعيدًا عن أهاليهم وبلادهم. في مرَّة من المرات وصلت درجة الفكاهة بين اثنين، أن استعدوا لصلاة الظهر في جماعة، أمَّهم أوَّلهم، وكانوا لهم صفًّا وحيدًا، وكان الآخر في ذلك الصف وراء الأمام، وما إن دخل الأخير الصف حتى استشعر الإمام أنه على وشك أن يُضرب من الخلف أثناء الصلاة! فخرج من الإمامة

أثناء السجود من الخوف وذهب، مرَّ أبي أمام الجمع الخاشع في سجوده، وجدهم بلا إمام، طال سجودهم، فزعق بصوت عالٍ: الله أكبر..

فقام الجميع ليجدوا بأنهم بلا إمام!

ضحكت أنا وأبي بهيستيرية..

كانت أيامًا جميلة، ولكني لم أعرف وقتها لم اصطحبني أبي إلى هُناك، لقد كان مشغولًا أغلب الوقت مع فنرانه الرماديَّة المُسنة، يجرب عليهم العقار في تركيز شديد بينما أنظر إليه من خلف زجاج المعمل العريض. عرفت بعد ذلك أنه كان ودودًا بما يكفي، لقد أخذني إلى هنا بعيدًا عن أمي، حتى تستطيع الخروج مع خطيبها الجديد في راحة، وأنا الذي كُنت أظن أنها وافقت بدون إرادة منها...!

أبي وصل حد الغرابة والتميز ما لم يصل إليه أي شخص رأيته قط، وكانت أفكاره والتي تتغير مع الأيام من يُشعل تميزه، حتى وصل أكبر ساع نحو الخلود إلى ساعي مجنون نحو الانتحار، ولكن للأمانة، أبي ذو مبادئ واضحة، حتى وإن كانت تلك المبادئ لا تخدم مصالحه الشخصيَّة.

حينما كان لا يزال متزوجًا بأمي، دخلت عليه مكتبه المليء بالكتب المتراصة، وكان يقرأ القرآن، احتضنته وقال لي اجلس، جلست وإذا به يقول: أعتقد بأن دخولك في ذلك التوقيت

خصيصًا رسالة من الله.. يريدني أن أتوقف عند تلك الآية التي وضعت بينها أقرأها.. وتلا الآية عليَّ: (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ..)

تأملت باهتمام، ولم أنبس بكلمة.

فأكمل:

خداع النفس يا خالد.. خداع النفس هو أعظم خطيئة عرفها البشر.. كل الخطايا عبر كل الأزمنة تعتمد على تلك الخطيئة.. كل من يسرق ويقتل يعتقد دائمًا بأنه صحيح.. البشر في كل حيواتهم يصدقون ما يجلب لهم الراحة.. خداع النفس هو سبب شقاء البشرية في الدنيا والآخرة.. أعلم أنني لم أنصحك كثيرًا.. وقد لا أذكر أني نصحتك يومًا.. ولكني اليوم أنصحك نصيحة واحدة كافية.. لا تكذب يا خالد.. لا تكذب.. لا تكذب على غيرك.. لا تكذب على نفسك.. قُل الحقيقة مهما أدت إليها من نتائج.. كُن صريحًا وصادمًا مع نفسك إلى أبعد حد.. ابحث عن الحقيقة واصرخ بها.

بعد عام من تلك النصيحة، وقفت أمام أبي في المحكمة، أنظر إليه وهو يقول لي: قل الحقيقة كما أخبرتك.. قلت للقاضي منفذًا نصيحته باكيًا وناظرًا إلى الأرض: نعم سيدي.. رأيته يضرب أمي سكيرًا.

ابتسم، ولاحت على وجهة علامات من الرضا، ممزوجة بانكسار مضمون، لقد شهدت ضده، رحل من القاعة، وأمي مستبشرة بقرار القاضي في قضية الخلع.

لم يذكر أبي تلك الحادثة أمامي بعدها.

لقد إعتقد أنني فعلت الشيء الصحيح، ولا شيء يستحق الذكر أو التذَّكر.

***

- فصلٌ سابع -

«١»

سيقَ بي أنا وهاتي إلى المحجر، محجر «ديجور». كلمة «محجر» هي المنطوق الكاذب، المعكوس، المتعارف عليه هنا للفظة «معتقل حربي». لم أكن معصوب العينين وقتما أتيت، اعتقدت عبثًا في غباء الفعل، فماذا لو كنت واعيًا ورأيت الطريق إلى هنا...؟!

لا أدرى كم من الوقت غبت عن الوعي، عندما أفقت، كنت أتأمل عدسات نظارتي الطبيَّة المهشمة، وما صارت عليه من شبكة بلوريَّة ذكرتني بميكروسكوبي في منزلي الآمن ومعملي بقسم الفيزياء بالكليَّة، كنت حينها في وضع يسمح لي بالتأمُّل، لأنني بالفعل، كُنت أجر من قبل رجلين بملابس سوداء عسكريَّة، في أجساد منتفخة وشاهقة الطول، يُمسكانني من كتفيّ فيعصروهما، يجرانني على الأرض، وجه قدمي تصرخان، وتتقرحان، وتجرَّان

بالدماء مما تصطدم به في أرضيَّة المحجر الصخرية، لقد شعرت بالجلد يجُلف من جفاف الاحتكاك.

الرؤية المشوشة لم تمنعني من ملاحظة الجدران قاحلة السواد، وخضار العفن الملتصق بالأركان. الرائحة العطنة تختلط بصراخ المساجين فيملأ كل منهما المحجر بالوحشيَّة، وصوت من صدى متقطع يكرر الفزع كلما خمد. تأملت نفسي حيث تأمل النفس جريمة شنعاء، أدركتُ أنني عارٍ، مجرد من كل شيء، لم يتركوا لي إلا نظارتي المهشمة، فعلمت حينها أن ما يفعل في المعتقلات واحد في كل العوالم.. اعتقدت أنهم سوف يتكون ما يمكن هتكه...!

رميت في غرفة قذرة رميةً، كادت أن تخلع كتفاي. الغرفة أقذر بكثير من ممر الدخول، سقفها يقطر سائلًا عطنًا، وأرضيتها بركة خصبة للفئران والحيَّات والعقارب، دقائق قليلة كانت كافية لأرى الفئران تمُر أمامي كما لو كانت الغرفة مهجورة منذ زمن، فئران قرمزيَّة اللون يشوبها قتوم لامع، جينات مختلفة، إختلاط اللون بالمياه القذرة لم أتحمله، معدتي أخرجت ما بداخلها فورًا، ترك الرجلان الغرفَّة فور قيئي. بعد دقائق ثقيلة حضروا ومعهم رجلٌ ناحل، ذو شعر، أتى به على اليمين في عناية، عيناه لا تهتزان، ملابسه السوداء لا تقل عتمة عن الجميع. تمالكت جسدي وشرعت في النهوض يائسًا وأنا أتلجلج: هناك خطأ ما.. لست أنا من تريدونه. همَّ الرجُلان بتثبيتي على الأرض، وأتى النحيل مسرعًا وضربني مُحترفًا بإبرة بجانب رأسي. شُلَّت أطرافي وغبت

عن الوعي جزئيًا، وفي قاع الغيهب.. سمعت أحدًا هم يهمس: استمع إلى ما سأقوله لك، لتكن ساكنًا مخلصًا.. وتنعم بحياة كريمة وأحلام سعيدة.. تخلص من أفكارك التي تؤذيك.. أنت في أمان.. سنعالجك من جروحك.. نحن نوفر لك ما تحتاجه.. أنت سعيد.. سعيد جدًا.

وغبت عن الوعي كليًا.

***

رقعة ورقيَّة وحيدة، تحمل رقم «١١».

«٢»

جفوني أثقال حديدية وزن «٥٠٠» عانيت لأُزحزحها لأعل، أفقت ثم تحسست مكان الوخز، الإبرة أصابتني بتنميل لم أحسَّ مثله من قبل، جسدي مفتت كما لو كل عضلةٍ منه في مكان منفصل، كما لو حُكم عليَّ بقتل قديم، فتفسَّخت بحصانين من العُصور الوسطى، ما زلت كما أنا، جروح قدمي من الجَلَف تنبض، أشعر بكدمات وجهي منتفخة كما لو ضُربت بإبر تُحذير في وجهي كاملًا. الغرفة لا تزال بحالتها نتنة، برائحة لا تطاق، ولكنها هادئة، خاوية، لا أثر لفئران قرمزية ولا بني آدميين، لا يوجد غيري، السكون يشعُّ من الأركان، يخيم هدوء مُفزع على الجوانب، أستمع إلى الصمت كما لو كنت آخر سكان الكوكب.

نهضت وتقدمتُ تجاه باب الغرفة، تحسستهُ فوجدته حديديًا، تفاجأت من كونه مفتوحًا وموارَبًا، تخطيت عتبة الغُرفة وما زال الكون ساكنًا، سئمت كل الأجرام من حركتها الطبيعية، خروجي منها هو دخولٌ لغرفةٍ أخرى لا ينسل إليها خيط ضوئي واحد، لا أثر لـ«فوتون» واحد.

كُحل كثقب أسود فاحم بحجم غرفة متوسطة الحجم، الضوء الوحيد يأتي من خلفي حيث الغرفة النتنة، ويسقط خافتًا من غير رجعة في ظلام دامس. سمعت فحيحه بسهولة آثر سكون المكان، رابض قريبًا، ولكن الظَّلام رجل مشفق، يأبى عليَّ رؤيته، أنفاسه المحتي، برزت رأسه من الظلام إلى الضوء الخافت.

ثعبان ناهش حجمه سريالي، طَويل ومكتظ وغير معقول، رأيت نفسي في عينيه الباردتين، سحبت قدمي إلى الخلف عبثًا، فتح صاحب الدم البارد فكيه كاشفًا عن ناب مصفح.

لم أقو على الهروب.. فانقض عليَّ...!

***

رقعة ورقيَّة وحيدة تحمل رقم «١٢».

«٣»

يا ليتها انتهت بين فكي ثعبان عملاق...!

جفوني كانت كما هي. أثقال حديديَّة وزن ٥٠، كنت أحلم، عانيت من جديد لأزحزحها لأعلى، مكان الوخز ينبض بالألم، وجسدي لا يزال متفسخًا ومفككًا بحصانين من العصور الوسطى. كان المكان بَراقًا، فاخرًا، يشبه إلى حد يمكن ملاحظته، إحدى غرف العنايات المركزة، وكانت كذلك، المحاليل المعلقة، أنابيبها تخترق مثانتي وأوردتي، ممرضة ثدياء بخصرٍ مفلطح، جالسة بجواري تغوص نائمةً في مقعدها، المقعد ضيق غارز بشحمها المُسترخي، وَرْكاء، سيقان أكبر ما يمكن، شعر مجعد وملعبك ومرسل إلى الوراء في تصرف كسول، تمتلك عينين لا تظهران داخل تجاويف شدقيها الملتصقين بوجهها البدين والمتعرق، شخيرها ذكوري نوعًا ما، فسبب لي صداعًا نصفيًا معتادًا.

تأملت نفسي..

أرتدي ثيابًا بيضاء وخفيفة، نسخة طبق الأصل مما لبس النحيل الذي ضرب عنقي بإبرة، ولكنني ارتديها بلون أبيض خالص، عكس ما كان يلبس هو من لون أسود فاحم.

تساءلت: لم يعالجونني في مشفى كهذا وكل ما في الأمر بضعة جروح وأنا في الأساس معتقلٍ لديهم...؟! لابد أنني مهم...! ولكن كيف وأنا لا أعرف أدنى علاقة بيني وبين هذا العالم كله...!

ناديت عليها بحس بدا لي لم يخرج منذ مدة:

- «يا.. يا حضرات.. يا دُكتور..!»

لم تَتحرك ذرَّة، خبطتُ الحائط القائم خلفي عدَّة مرات حتى كاد أن يتداعى فوقي، إستفاقت من غيبوبتها أخيرًا، تقدمت نحوي كماموثٍ بطيء، تحسست مكان الإبرة بكف بعيد عن معاني الأنوثة، خشن، شحمها البارز كان قريبًا كفاية لأشمئز، التي فدفعت بعنقي بعيدًا في حركةٍ لا إراديَّة.

- «ستكون بخير.. ولكن لن تعيش على محاليل السكر كثيرًا.. جسدك يحتاج للطعام».

على عكس هيئتها الفوضويَّة، صدح صوتها يغرد في سماء المدوية، صوتها وهيئتها بنيا في واقعًا متضاربًا، ومنطقًا غير قابل التصديق.

سَعلت ثم غمغَمت بحشرجَة:

- «أين أنا...؟!»

- «أنت في قِسم مُلاحظة الطَوارئ في مستشفى «جاميان» التابعة لقوات الجمهـ...».

صوتها يتقطع، فيه جلجلة متتالية ممزوجة باختلالٍ حادٍ في وظائفي الحيويَّة، ذرات الغرفة تفور أمام عيني، ثم تتلاشى، فيتداخل كل شيء.. طَقطقة بين كل صورة وأخرى. أهلوس يتَطَرُف.. أرى صورًا من الغرفة القذرة أمام عيني، أسمع طقطقة، الثعبان المبين مِن جَديد، أسمع طقطقة.. فئران قرمزيَّة تمر بين أقدام المرضة البدينة.. تركلها بقدميها...!! طقطقة.. صوتٌ خافتٌ مُبهم يأتي من كل موجودةٍ حولي.

دماغي لا يفصل بين الواقع والخيال، تلاشت الهلاوس، فسمعت ما تبقى من قولها.

- «كان يجب إسعافك على الفور.. جسدك لم يتحمل اللقاح الوطني.. التحاليل أظهرت أن جسدك لم يخضع للقاح أبدًا...! وهذا مستحيل.. كيف...؟! من أين كُنت تأكل وتشرب طول حياتك...؟! حالتك شاذة للغاية.. سنوات عمل طويلة ولم أمر بمثلها أبدًا.. جسدك رفض اللقاح كونه دخل متأخرًا.. ولكنك مع الوقت ستعتاد عليه.. محظوظ بالعيش أنت يا...».

وأكملت مُستفسرةً:

- «صحيح.. ما اسمك...؟»

فطبت فقلت وانا أهمُّ بالنهوض نازعًا عني ما أمكنني من الأنابيب الطبيَّة:

- «أريد أن أتحدث إلى مسئول.. أنا لا أنتمي إلى هذا العالم..!».

- «ماذا...؟! وما معنى هذا..؟! حسنًا فقط ارتاح ولا تتحدث كثيرًا..».

ثبتني برفقٍ في مكاني لتمنعني عن النهوض:

- «لن أرتاح.. دعيني وشأني...!»

تُتِمّ صوت العالم كُلَّه...

تُرى من أطبق على أنفاس الكون حينها...؟!

مكتبة بيت الحصريات

المرضة تتحدث ولا أسمع منها شيئًا.. اتجهت نظراتي نحو سقف أبيض بلا شَائبة، أنصت إلى خفقان نبضاتي، إلى خرير دماء تعدّو في عروقي كعدَّاءة أولمبيَّة محترفة، تركت السقف لحاله وقلبت عينيّ حيث تقف المرضة.. لم أجدها..! أسمع طَقطقة..!

وجدت مكانها رجلًا بدينًا، سيلًا من العرق يجري على جبينه، أسنانه المتفرقة سوَّسها شيئًا وسوّدها، لا يميزها عن بعضها غير

فـروقٍ مـن الهـواء العطـن، ملابسـه كملابـس المرضـين أيضًـا.. هَلاوِس..

طَقطقة أخرى.. تلاشَت الهَلاوس..

- «متى. . . متى سأخرج من هنا...؟!»

- «نعم...؟! جاوبتك مُنذ قليل...! ألم تكن معي؟! لابد أن تستريح».

تابعت:

- «ستخرج حينها تستطع... ولكنك على ذمَّة محجر ديجور وستعود إليه بمُجرد وقوفك على قدميك».

نَهضت نصف نهضة مُمسكًا برأسي من الخلف بأصابع متشابكة منحنيًا إلى الأمام.. أفكر: محجر ديجور...؟!

- «يجب أن ترتاح».

قالتها وهي تربتُ برفق على كتفيَّ بكلتا كَفيها، لم أستجب.. وكأنها لم تقل شيئًا.. لم أكُن أفكر في شيء غير كيفية خروجي من هذا كله.. صوتها تبدل إلى صوتٍ ذكوريٍ أجش..! تصرخ في غضب:

- «قُلت لك... يجب... أن... ترتاح!».

دفعتني بكفين، كانتا رفيقة بيَّ منذ لحظات.. إرتميت على ظهري جبريًا.. كابوس لا يمكن الحدوث.. رؤيتي رمادية.. بلا ألوان.. بهت كل شيء.. كل ما حولي يبدو ليّ غير حقيقيّ.. أرى كل باطل إلا حقيقتي.. حقيقتي العاجزة.. ضربتني بإبرة مهدئة، فغبت عن الوعي.

فَعَلت ذلك لأن جسدي كان يُرج رجًا من صرعٍ حاد.

***

ثلاث رقع ورقيَّة تحمل رقم «١٣»، وذكر فيهن خالد دخوله لـ«جاميان» ليتلقى العلاج.

- فصلٌ ثامن -

«١»

أستنيخ على مكتبي في خميس ذلك الأسبوع الزاخر بالأحداث، يسري في أذني طنين ذبابة ضالة، أتطلع في إعجاب إلى تناطحها الدؤوب مع زجاج الشباك، تحاول الخروج، مُنذ متى تحاول تلك الذبابة الفكاك من الحجرة...؟! منذ متى تستمر بتسديد نطحاتها بلا فائدة، فقط من أجل التحرر...؟!

تدور في أفلاك دماغي شمس داليا وحبلها، كتابها وشبك النشر، تتخطفني جاذبية كواكب مزدهمة؛ غرفة القفز، إشراف توفيق على أبحاثي، أبي القابع بالعباسية وإصراره على الانتحار. إنتشلتني ذبابة من أفلاكي إلى كونها متناهي الضآلة، التقطت كونًا فراغًا، وضعت فوهته على سطح الشباك الزجاجي، أغلقت عليها كل سُبل الفرار، حبستُها، إزدادت طنينًا، إلتقت الأعين المتفحصة

في الشاخصة، عين بشر وعين ذبابة، قصة هذا المخلوق العجيب أشبه ما آلت إليه البشرية إلى حد كبير، هذه الحشرة علمت أنَّ هناك شيئًا أبعد وأبعد من الحجرة، هُناك ما يستحق الخروج، ولكنها بلا حول ولا قوة، لا تملك حتى حريَّة نفسها، لا تستطع الخروج إلا إذا ساعدها كيانٌ أكبر منها قوة، إلا إذا ساعدتها أنا.

فتحت النافذة لتحرر الذبابة من عالمها القديم. فكَّرت في أنه ربما بعث الله لي بتلك الذبابة لتشجعني وتجعلني أكثر دأبًا على إكمال غرفة القفز، ولكن الأمر معقد، يبعد عن المجهود غاية البعد.

السؤال هو: أين السر...؟! أين الجزء الناقص الذي لا أدركه...؟!

ما الطريق نحو المعادلة الجامعة...؟!

ما الطريق نحو الخروج من هذا الكون المُتداعي..؟

فكرت في أنه ربما قدر الله لنا الموت على الأرض، ربما نكون بحاجة إلى كيان أكبر مثلما فعلتُ مع الذبابة! نحتاج كيانًا يحررنا من الكون وماديات. البشر الآن بحاجة إلى الله أكثر من أي وقتٍ مضى. نحتاج حتى أن نعلم، هل سترسو بنا الأقدار إلى برٍّ، التحرر الوحيد فيه هو تحرر الروح من الجسد.. ولا شيء آخر...؟!

عاتبت نفسي ثواني، لقد ذكرت في نفسي كلمة «الروح» وأنا أفكر في مسائل علمية، مجتمعنا العلمي يمنع اختلاط تلك الكلمات ببعضها حتى في طريقة التفكير نفسها..!

ذهبت في خطوات سريعة إلى قاعة المحاضرات المسماة بـ«م ٤٨»، سألقي المحاضرة الأولى على الطلبة الجدد، طلبة الصف الأول، أدرس لهم مادة الـcosmology، أي البناء والتركيب الكوني.

أول محاضرة تقديمية، بعنوان: How science works?

على مقربة من القاعة، قابلت في ردهتها عم عربي، ألقيت عليه التحيات الخافية، ثم سألته عما إذا حضر توفيق اليوم أم لا.

أخبرني بحضوره، وقال بأنه ينتظرني أصلًا بعد محاضرتي.

دلفت إلى القاعة، أستشعر رهبة حييت بعد خمود، تأملت الوجوه الطلّاحة، أملي عيني من وضاحتها النقية، ليس بينهم مُتطرف أو مصطنع.

«طلاب الصف الأول أبناء الثمانية عشر عامًا دائمًا ما يكونون مريحين أكثر من الطلبة ذوي الدرجات الأعلى».

قاعدة متداولة على أطراف الألسن بين هيئة التدريس وحجرات المدرسين المساعدين.

بدأت بالألقاء، وقد ذهبت الكلمات من فضاء عقلي لبرهة:

– «لماذا ننام وكان من المُمكن أن يخلقنا الله كائنات لا تنام...؟! أقصد.. لماذا ننام وكان من الممكن أن تنشأ الحياة بلا نوم...؟!»

تعجَّبت من نفسي، بدا سؤالًا عميقًا، لاح لي لحظتها فألقيته، لم أفكر فيه من قبل ولم أقرأه في مقالٍ أو كتاب.

تابعت بعدما نظر الجميع إلى بعضهم البعض:

– «في الحقيقة السؤال ليس ببعيد عن مضمون المحاضرة.. (كيف يعمل العلم..؟) .. مضمون المحاضرة يتحدث عن خطوات المنهج العلمي والتفكير العلمي الاستنباطي.. لماذا السؤال ليس ببعيد..؟ لأنه ببساطة سؤال خارج الصندوق.. قليلٌ منَّا.. بل النادر منَّا هو من يسأل نفسه أسئلة كهذه.. التفكير العلمي يبدأ بسؤال.. وينتهي بنتيجة.

استرسلت:

– «منذ زمن الإغريق القدماء والناس تبحث يومًا وراء يوم عن إنشاء أسس للمعرفة والعلم.. وبعدما وصلنا إليها أخيرًا في العصر التنويري.. دعوناها بـ(المنهج العلمي).. فتشنا ووجدنا أن كل العلماء العظماء قبل المنهج العلمي كانت اكتشافاتهم تبدأ بسؤال.. ولذلك ستكون أول مهمة لكم هي البحث عن الإجابة عن تلك الأسئلة المعروضة على الشاشة».

عرضت الشاشة:

- لماذا تدور الساعة في إتجاه عقارب الساعة..؟
- لما تتكون أيام الأسبوع من ٧ أيام..؟
- لماذا نحلم..؟

- «الثلاثة أسئلة المعروضة.. أجابتهم ستجدونها في الأرشيف على الإنترنت.. سنضيف لهم اثنين.. (لماذا ننام..؟)، و(كيف نشأت الحياة..؟)»

صدحت أصوات استهجان وتعجب.

قلت باسمًا:

- «أنا أمزح بالطبع.. لا يعلم أحد كيف نشأت الحياة.. ولكن لم تفكروا فيه وفقط».

أكملت لهم خطوات المنهج العلمي «خاتمًا» محاضرتي بقولي:

- «وأخيرًا.. فلا يمكن للعلم أن يضمن لنا الحقيقة، ولكنه الطريقة الأفضل والأكثر موثوقية التي عرفناها على مر التاريخ».

العلم لا يضمن الحقيقة، العلم يضمن فقط كيفية عمل ما «نعتقد» أنه حقائق. وكما أن العلم لا يضمن الحقيقة، أنا أيضًا لا أضمن كيفية معاملة توفيق لي، سواء مهنيًا أو حياتيًا.

جلست على مكتبه في غير ارتياح، الشمس بالخارج تشلُّ السماء، متيبّسة.. الساعة تقرأ الوجود: ١٢:١٢ ظهرًا.

لم أعد أتفاجأ من رؤية الأرقام المتشابهات، تفحصتُ تلك اللوحات المعلقة على جدران حجرته اللبنيّة، رسومٌ سريالية لدمى خشبية ذوات خيوطٍ، ورجل سيء الهيئة يعبث بنموذج مصغّر لمدينة، ينفخ فيها مدورًا بوزه، فيشعل إعصارًا، ويطير

عاقلات وسيارات، كلها لوحات مسيئة للإله، تعبر عن ميول توفيق العدائية تجاه الخالق، كرسيه مُغلّف بمعطفه الرمادي.

صدح صوت شاشة هلاميّة مفتوحة على قناة: ATHEIST TV

maktabbah.blogspot.com

أيها السادة، بقيت أيام ونحتفل بذكرى وفاة مخلصنا ومنقذنا من الجهل: ريتشارد دوكينز.. رقد العظيم في سلام ومحبة.. لا تنسوا قراءة وردكم من كتاباته تعظيمًا لذكراه.. وتذكر أخي: أن الإيمان بأن الكون يتضمن سببه بداخله.. هو الإيمان الحقيقي.. لا شيء وراء هذا العالم يا صديقي.. لا شيء.

أتطلع في فضول إلى مكتبته التي حجبت معظم جدران الحجرة، لديه أمهات الكتب التراثية المعادية للإله: «وهم الإله» لدوكينز، «لقد مات الإله» لنيتشه، لمحت القرآن وسط تلابيب الكتب المُعتّقة، وبعضًا من الكتب المُتناولة للزرادشتية والبوذيّة، هذا بالطبع غير كتب الفيزياء التي تأخذ حيزًا صغيرًا من مكتبته.

عصرت جبهتي، ووضعت رأسي التعِب على راحة يدي الموضوعة أصلًا على المكتب، أنتظر بجلدٍ متناهٍ، رجلًا لا يدع أشباه الفرص، إلا وعبّر فيها عن كرهه للإله والمؤمنين به، أنتظر المتطرف الذي رماه القدر في طريقي كمشرف أول لأبحاثي، يا للعبث.

موقف توفيق تجاهي معروف منذ تعاملاتي الأولى معه حينما كنت طالبًا لديه، درس لي مادة الـ Astronomy في الصف الثالث، لم يكن إختلاف العقائد بيني وبينه هي محل الخلاف الأوحد،

معروف عنه بذاءته ولهاثه وراء طالباته، وميوله الجنسية المتطرفة التي لا تختلف شيئًا عن تطرف عقيدته، لم يدع توفيق واحدة إلا واستغل عدم إيمانها، في غرائزه الحيوانية من أجل بضع درجات، حتى وصل الأمر إلى داليا، الفتاة المسلمة.. كنت وقتها في الدفعة الأكبر منها بعام، لم أكن لي علاقة بها، ولكني سمعت عن تلك الفتاة المسلمة، ناضحة الوجه، التي رفضت إغراءات دكتور توفيق نفسه، مما أدى إلى إهانتها علانيةً، قال لها أمام الجموع في محاضرة له إن عقيدتها تأمرها بالتبرع للنكاح في أوقات الحرب، بكت وأخبرت الجميع بمغازلاته القبيحة لها ذهابًا وإيابًا في منشور على «آبدي».

تحوّلت إلى مجلس تأديب، وفُصلت صفًا دراسيًا كاملًا.

توفيق يدعي أن إلحاده هو المبدأ السامي الذي يعيش به بين الناس، في حين أن بطنه وفرجه يتكاتفان مع عقيدته في ذلك، إذ يكونا أصلًا هما السبب الوحيد لسلوكياته التي يعلمها الجميع، هو يعلم جيدًا أنني مسلم، وأنا لا أرفض الاعتراف بذلك، حتى وإن كنت ممن يهمل صلواته في أغلب الأحيان، وزوجتي داليا ليست محجبة، وقد لا يفرق المرء بينها وبين ذوي العقائد الأخرى من حيث الشكل، ولكن الإيمان يريحنا، يريح عقلي وقلبي. هم لا يفهمون ذلك، صرت أحلم أنا وداليا باليوم الذي نستقيم به في صلواتنا بدون عداءٍ من أحد، نحلم باليوم التي ترتدي داليا به الحجاب بدون قانون يجرمه بالغرامة والحبس.

دخل توفيق وما لبث أن خرج صوته الذي يقترب من نقنقة الدجاج:

- «خالد.. المكتب نوّر».

- «كيفك يا دكتور توفيق..؟»

- «ألم تكن تبدأ كلامك بالـ السلام عليكم..؟»

ساخرًا:

- ها قد بدأنا.

- «نعم.. ولكن ليس دائمًا.. أقصد أنني لست مسلمًا مثاليًا..».

- «وهل يوجد مسلم مثالي وآخر لا مثالي..؟»

ابتسم ببلاهة:

- «المسلم مسلم.. من أمر بالقتل والذبح في سبيل عقيدته.. هو أيضًا من أمر بالسلام.. وأيضًا من أمر بالتبسم في وجه أخيه..».

قاطعته:

- «الحقيقة يا دكتور أنا هنا اليوم للحديث عن أبحاثي.. وصلني أنك صرت المشرف الأول».

- «نعم هذا صحيح.. من حسن حظك».

- «غريبة، مع أنك لست مقتنعًا أساسًا بالسفر عبر الأكوان».

- «خالد.. يا خالد.. نحن نبحث عن الحقيقة.. صحيح أن على كامل اليقين بأنه لا يوجد شيء بالخارج يستحق التطلع إليه.. ولكنه العلم..».

- «آه.. طيب أنا كنت طلبت من د. منصور مد فترة أبحاثي لعام إضافي.. وللأسف تم رفض الطلب..».

لم أكملها، قاطعني بينما يتصفح أحد أدراج مكتبته مفتعلًا اللامبالاة:

- «نعم.. وأنا من أوصيت برفضه..».

زعق ببرودٍ فجأة مشيرًا إلى الشاشة الهلامية:

«شوف شوف.. اليهود قتلوا عيسى بن الروسيّة.. إنه الدين يا سادة..!»

قناة ATHEIST TV تعرض جنازة عيسى ابن الروسية.

- «لماذا..؟!»

- «إنه الدين كما نعرفه.. لا جديد».

- «لا أقصد ذلك.. أقصد رفضك لمد أبحاثي.. دعنا من ذلك الهراء الآن...!!».

- «اهدأ فقط.. أبحاثك تكلّف الجامعة ميزانية كبيرة في الشحن والتركيب، الجامعة أولى بتلك المصاريف.. لن تصل بأبحاثك لشيء..».

- «من قال ذلك؟ أنت رأيت بنفسك الذرات تتولد من عدم وتختفي إلى العدم.. التفسير الصحيح أنها تذهب إلى مكان آخر...!».

- «يا راجل يا مؤمن.. يستحيل الخروج من تلك الفقاعة الكبيرة يا خالد.. ربما تذهب إلى بقعة أرضية أخرى.. وحتى إن كان ذلك ممكنًا.. يستحيل تطبيق تلك النظريات على الأجساد العضوية ولا تعدو تطبيقها على الأجزاء الذرية ودون الذرية..».

قلت تجنبًا لجدال لا يفيد:

- «دكتور توفيق.. أنا أحتاج هذه المدّة..».

- «خالد.. يا خالد.. الكل يحتاج مد فتراته..! الإنسان يحلم بفترات حياة إضافية.. النائم يود أن يستمر في نومه.. يا رجل.. حتى النساء تحتاج فترات أطول».

ابتسم ليوصل إيحاءه الجنسي.

تابع:

- «الأمر خرج من يدي يا خالد.. قدّم طلبًا آخر..».

صمت ثم تابع:

- «ولكني سأوصي برفضه أيضًا.. أمامك شهران.. إن هُناك مخرجًا من ذلك الكوكب.. فلتجده قبل الشهرين».

زعق مشيرًا: «بُصْ كيف قتلوه...؟!»

لم تعبأ الشمس بما قاله توفيق، استمرت في تسمُّرها في منتصف السماء، صوت نقنقة توفيق ما زالت تضرب الآذان، تركت الغرفة ووجهت قدمي نحو سيارتي، قدمها وسط موجة ترابية تهرف شوارع العاصمة، ذكرتني الموجة الترابية بأيام الضباب الكبير، أقود وسط تزاحم كبير على الخبز والحياة، أتفادى أناسًا كالتماثيل منكسة الرأس والأعناق، مُسيَّرة بجانب الحائط المُصدَّع، تهيم بلا وجهة، وتأخذها أرجلها نحو فناء مُوشك، هربًا من القيد المتشعب، الجاثم ببسطاريه على مدينتهم الحمقاء.

ها قد حضر زنُّ الشيطان لابن آدم من جديد.

***

«٢»

العالم مضطربٌ لوجوده، يودُّ أن يفنى، أو يذهب إلى النوم، كفناء اهمُّ المنبعث من سكانه، والروح العابثة بين أجزائه التي أصابها الزمن بالوهن، تمنى لو أنَّ هناك بقعة واحدة ليس بها بناء أو أثر من أفاعيل البشر، فكَّر في أنه ربما كان من الأفضل لو نزل آدم بخصالٍ مغايرة قليلًا، أصغر حجمًا وأقل صخبًا، لا يلوك الطعام بصوت عالٍ، ولا يعثر بوله على أراضيه. العالم بات على وشك الكُفر، ولكنه لا يكفر، لعل السبب أن إبليس من سكانه، وهو متيقِّن من أن وجود إبليس دليل على وجود الرَّب، الذي لم يره قط. تحالف الأعداء لصدع آخر، توفيق هو من أطلق الوحش هذه المرَّة، ركنت السيارة أمام محطة المترو، تركت بها الـTBF، لا يجب أن أستقل أي وسيلة إلا المترو وأنا ذاهب لشراء القهوة، لا يجب استخدام التكنولوجيا.

تعليمات دخول منطقة الجبَّارة العتيقة:

- ركوب المترو.

- تأتي وحدك.
- ممنوع اصطحاب أي آلة حادة، أو أي سلاح.
- ممنوع اصطحاب الحيوانات.

ممنوع استخدام التكنولوجيا الحديثة.

وقفت على الرصيف، حضر المترو المتهالك، يطلق صريرًا مخيفًا، يتأرجح يمينًا ويسارًا، فُتحت الأبواب، الباب المقابل لي ما زال مغلقًا، مُهشم ومكسَّر زجاجه، تسارعت قدماي نحو باب آخر على يميني، تزاحمت مع الوجوه المكفهرة، والأجساد المُعرَّقة، غطست وسط الأرواح التي لا تعرف كيف تعيش... دخلت أخيرًا...! كل أجزاء المقاعد غير مكتملة، جميعها محطم، لا شيء في مكانه، يمر أحد الباعة، يسوِّق تلك الكريات العنصرية المسماة بـ«كريم تفتيح البشرة»، الركاب يقفون وحدهم فردًا فردًا، لا يحملون أي نوع من التكنولوجيا، لا يعرف أحدُهم ماذا كنَّا نفعل قبلها، واقفين بوجوه صامتة، لا حديث، ولا توجد نية له، يكتفون بإطلاق النظرات، حتى البسمات يخجلون من إطلاقها، شاخصة أبصارهم، كأنهم يحاسبون في الدينونة، يبصر الذين لا يبصرون، ويعمى الذين يبصرون. يفرمل المترو فجأة...! يتموَّج الكل للأمام، يتأرجح يمينًا ويسارًا...! لم تقم الدولة بأي تغيير منذ نشأته، استنفذ كل مدد صلاحيته، ولكنه الوسيلة الوحيدة لمدمني الكيف، والطبقات الكادحة ولا شيء غيره. وصلت

المحطة، لا توجد لافتات لأعرف أين أنا، ممزقة وخربة، ولكني أحفظ المحطة، عشر دقائق مشي ودخلت الجيَّارة، وقفت في طابور طويل للتفتيش، رجال عرايا الصدر يفتشون كل جزء في جسدك، لا يفرقون بين رجل وامرأة، جاء دوري، فتشني.

- «طلباتك..؟»

- «قهوة هندي..»

- «رابع دولاب في الحارة القادمة، يمين».

دلفت إلى الحارة، يصطف راغبو الكيف بجانب الحائط، لم أقف سريعًا حتى أتى دوري.

- «كم تريد..؟»

- «لفيتين، كل لفَّة ٢٥جم».

وَزَنَ بودرة القهوة في ميزان حساس، مدَّ يديه بهم.

- «٨ بيتكوين، البيتكوين اليوم بـ ١٥٠٠».

أعطيته الورق، لا يقبلون عملات إلكترونيَّة.

- «يوجد دبابيس بسعر جيد.. يوجد مزيدات للدخصوبة..».

- «شكرًا.. لا أريد».

تذكرت أني سأصبح أبًا، وما زلت أتردد على تلك المناطق الخطيرة، دارت اللائمة، تعهدت على نفسي بألا آتي إلى هنا من

جديد، ولكن... كم مرَّة تعهدت بذلك...؟! لا أستطيع العد.
ذهبت نحو المحطة بعدما دسست اللفتين في جيبي، لاح هرج بيِّن من بعيد، ألسنة النيران ترتفع في السماء، لقد خرج المترو عن مساره، لم ينج راكب واحد من تلك الحادثة، عانيت حتى وجدت سيارة أجرة تُقلني إلى حيث ركنت خاصتي.

***

«٣»

لفترة طَويلة، كنت لا أفرق بين الليل والنهار، غائب عن الوعي معظم الوقت، أشعر بحية تسير بداخلي من خليةٍ إلى أخرى فتلونها بلونها. مع كل إبرة أُطعن بها، أشعر ببرودة السائل وهي تسير مع مجرى الدماء، من حينها وإلى الآن تَتَخللني رغبة جامحة في الانتحار، طوال الوقت أُضاجع الهلاوس والأحلام الواضحة، أركض في كل كابوس إلى الأبد ولا ينتهي.. أحلم نائمًا كما لم أحلم من قبل، قفزت من بنايات وقتلت نفسي بكل أدوات القتل.. ولكن... بلا فائدة.. لست أنا من يقرر يقظتي.

لم أكن لأستيقظ حتى يقرروا هم يقظتي.

أستيقظ سويعات قلائل، فيحقنونني بما يدعونه «لقاحٌ وطنيّ»، أعود إلى داخل دماغي، حيث قيعان وهلاوس سَرمديَّة العُمق.

صرخت مرارًا وتكرارًا رجاءً بألا يحقنوني.

لا أُريد أن أنام..! لا أُريد أن أنام..!

الإجابة النَّموذجيَّة دائمًا كانت إبرة تعرف طريقها إلى عُنقي داخل سراديب دماغي رأيت العجب؛ أبي مُتدليًا من أعلى الغرفة حيث يوجد في عنبره بالعباسيَّة، حول عُنقِه ربطة سوداء بعقدة مزدوجة، بدا مُستقيمًا لا يُفرقه عن الألف غير «همزة القطع»، وربما كانت رأسه المُطأطئة هي الهمزة.

داليا تقف أمامي تبكي وتبتعد طوال الوقت.. تبتعد.

غرقت إلى الموت في أحلامي بعدما كُنت أهرب إليها. الأحلام التي شكلت جزءًا كبيرًا من طُفولتي، ومن ثم شخصيتي. الأحلام التي شكلت مني أمهر هارب داخل دماغه في الوجود.

موقف الحياة تجاهي كما اعتاد، أجبرني على هجر العالم، العالم الذي تُركل فيه مؤخرتي يوميًا بأحذية بُنيَّة مدرسية بلا رباط بباحة المدرسة الخلفيَّة. كيف يمكن نسيان كم التراب القذر الذي غطاني أمام منزلي فقط لأن «مُمتاز» بن العمَّة «نوسة» يريد أن يستعرض نفسه أمام «تاليا» بنت الجارة الحسناء...؟! كيف أنسى الحمَّامات التي أُبرح فيها ضربًا وضربًا كتسليَّة دائمة لـ «زيتون» وباقي الشلَّة..؟!

لكل طفل ملجأ، وكانت الأحلام الواضحة في طفولتي هي ملجئي.. عقلي الدؤوب حفر لي النفق وأواني إلى الكون الأعظم، الكون الذي أنا به المتحكم في كل شيء، كنت في العاشرة تقريبًا حينما نضجت مبكرًا لأعرف في معظم أحلامي؛ أنني أحلم،

تعلمت تلقائيًا فيما بعد أن أتحكم في معظم الأشياء، لم يكن يكلفني الأمر مجهودًا أن آتي بسيف من العدم لأضرب به عنق «فريدي الأسطوري»، ذلك المسخ الذي يأتي للأطفال والمراهقين بأحلامهم فيُطاردهم ثم يقتلهم بأبشع الصور. قبل معرفتي لحيلة التحكم بأحلامي كنت لا أخشى شيئًا مقدار خشيتي لفريدي، الشخصية الأسطورية العتيقة، المبنية على مجموعة من الأفلام الكلاسيكيَّة من القرن الماضي، ولكن، عندما أمسكت الدَّفَّة، كُنت أنتقم من الجميع، أتي بهم عمدًا في أحلامي لأرد لهم جزءًا من واقعي الذي لوثوه، فأطعن البعض وأعذب البعض، أرمي بهم من بنايات، أخنقهم وأُظهرهم، أحبهم وأميتهم، كان الجميع جزءًا من ألعابي، لم أنسَ أنني كُنت أومي لفريدي الطوق ليأتي به كمثل الكلب يلهث ببراءة تامة، خلقت في جناحين حلقت بهما.

صنعت بذلة آليَّة وقاتلت وحوشًا وعبرت غاباتٍ وصحاري، علمت فيلًا ثم جبلًا، أما عند البلوغ، تسكعتُ مع فتيات جميلات، زميلاتي في المدرسة وجاراتي الحسناوات الذي لم أجرؤ حتى على النظر لهن يومًا، نمت مع من أريد منهن وقتما يحلو لي، وكيفما يحلو لي، هذا لأنني كنت أعلم دائمًا أنني في حلم، كنت لا أخشى شيئًا، لم يكن عليَّ رقيب، ولن يعاقبني أحدُهم على أحلامي.. كنت «أنا» إله أحلامي.

مرَّ الزمن وتعلمتُ بمروره المُخيف حيلًا أُخرى لتطوير مواهبي مع الأحلام، كأن أتأكد أثناء النهار بأنني نائم أم

مستيقظ، فأنظر إلى سطرٍ في كتابٍ قرأته مرتين، الأولى، يجب أن يقرأ السطر، والثانية، إما أن يقرأ فأكون مستيقظًا، وأما أن يحدث بقراءتي تشويش أو هلوسة فلا أستطيع أن أقرأ شيئًا، فأكون حينها أحلم، وفي كِلتا الحالتين تُعد الحيلة تدريبًا يزيد فرصي في استخدامها أثناء الحلم. كُنت أنظر إلى شيء أحبه في غرفتي، هل هو موجود في مكانه أم لا...؟ أنظر في مرآة فأجد نفسي مشوهًا، لا أستطيع التعرف عليَّ جيدًا، ولهذا كان دائمًا أمامي في غرفتي مرآة وكتاب، لأتأكد من كوني متيقظًا أم أحلم. لم يكن يُفزعني ما يُفزع الناس من سقوط أسناني أو سقوطي أنا شخصيًا من مكان عالٍ، أو شعوري بأني مُطارد من كثيرين، أو أنني لم أحضر للامتحان أو حتى شلل أطرافي كُلها، كُنت أعيش حياتي الحقيقية في دماغي، كان هذا هو واقعي المُعترف به لديّ.

مع كل مهارتي تلك، كُنت أتعايش داخل جامبان في حيرة مديدة، في أحلام طويلة، لا أعلم ما إذا كان يجب أن أعدها في تلك اللحظة التي أسرد فيها ما حدث؛ بالسنوات أم بالعقود...! الحكم عليها وأنا مستيقظ صعب جدًا.

ولكني أعلم أنها كانت عمرًا.. عمرًا منفردًا بذاته، خيمتي فيه بجانب نيران في غابات نخاوفي، أمسك العصا المُشتعلة طوال الوقت، أتي بالسيوف والرشاشات وكافة الأسلحة لأحمي بها نفسي، أتيت بجيش كامل ليحميني، أكلت ما أشتهي وأعلم أنه لن يسد شيئًا من جُوعي الحقيقي، قتلت نفسي كثيرًا، وكان

نصر في هذا لا يُحملني إلا الألم، ألم حقيقي فعلًا، أصبحت يائسًا من محاولة خروجي، حتى إعتدت العيش وحدي مُحتفظًا بما تبقى من عقلي حين يأتيني أحد الأموات او الأحباب فلا أنظرُ له، حتى لا يأخذني التفاعل معه فأنسى أنني في حلم طويل، أتتني داليا وأمي وأبي، أحيانًا كنت أتلهى وأنسى فأصبحت شيخًا عجوزًا وامتد الشيب إلى شعري الطويل ولحيتي التي لامست صدري، ظهري انحنى وسقطت أسناني واحدةً تلو الأخرى، إنقلبت عليَّ أحلامي... ولكني لم أستسلم، ثبتُ أحفظ في نفسي أملًا صغيرًا مبنيًا على إيمانٍ مُزعزع بالله، أشعر برغبةٍ في البُكاء، وهذه هي آخر رُقعة ورقية معي الآن، سأتوقف عند هذا الحد... غفر لي ربي.

***

رقعتان ورقيتان تحملان رقم «١٤»، وذكر فيها خالد غرقه في الأحلام الواضحة، كتتيجة تعرضه للقاح لأول مرة، أكد الأعراض الدكتور «ج.م» وزير الصحة منذ سنوات ورفض ذكر اسمه.

- فصلٌ عاشر -

«١»

بُشِّرنا بالأنس في الأسبوع التالي، ذهبنا بعد يومين من الحديث والتوقعات إلى مركز: «GAN» بالتجمع الأول، أخذت الممرضة منا عينة دم بعد حفاوة ومباركات وصلت عنان السماء، فلَفَّت في جيبي طويلًا، التقطت الورقة النقديَّة الوحيدة وأعطيتها إياه، مبديًا عليها ملامح السخط، هذه الرشاوي لا تدفع بالبيتكوين، مثلها مثل شراء المخدرات والشحاذة.

بعد دقائق، استأذنتنا بالدخول.. دخلت أنا ثم داليا إلى حجرة تصوير فوتوغرافي، معلق على بابها تعليمات على رُخامة من الأبيض اللولي:

«من الأفضل أن تخلع النظارة، أو القناع، وأن تفك شعرك المضفور حتى لا تستهلك وقت غيرك».

التُقطت لنا الكاميرا صورًا بوضعيَّة كلاسيكية وخلفية بيضاء، انتظرنا خارجًا لدقائق، جاءت الممرضة بالألبوم إنتزعته داليا منها فورًا، احتضنته، وأنا بدوري احتضنت داليا وقبَّلت جبينها، جلسنا بلهفة نشاهد الصور، ليست صورنا، إنها صور احتمالات أشكال ابنتنا.

كيف ستكون هيئتها...؟! هل هي جميلة...؟!

هذا ما عرفناه في ذلك الألبوم.

أول ما وقعت عليه أعيننا، ثلاث صور مختلفة مكتوب فوقها: «بعد عام»، تختلف الصور فيما بينها في لون الشعر، وتدويرة الذقن، وتلويز العين، وكانت في إحداها تمتلك شامة، مثل التي في وجه أمها، ضحكنا وقت أن لمحنا الشامة، قلَّبنا فشاهدنا صورًا لها في سن البلوغ، بكت داليا، وقالت داليا من شدَّة النشوة:

- «يا الله.. إنها جميلة يا خالد.. انظر إليها».

في صور الثلاثين، امتلأ وجهها بالجديَّة والجمال، كانت تشبه داليا إلى أبعد حد.

قُلت مازحًا:

- «إنها أنتِ.. هذه التقنية تمزح معنا.. ألا يكفي عليَّ واحدة يا ربي...؟!»

ضحكت كاشفة عن الحياة، وهي الحياة.

قالت:

- «فيها شبه منك على فكرة».

- «ماذا سنسميها...؟»

- «لقد حلمت حينما كُنت شابة أني سأنجب ولدًا وأسميه ذا الدين».

- «حسنًا لنسميها (ذات الدين)..!»

- «هل جُننت...؟! كان هذا حلمًا.. لا يسجلون مثل هذه الأسماء في تلك الأيام».

- «مؤسف».

- «لنسميها ذات الدين ونسجلها عن الحكومة باسم آخر، لقد سمعت أن القانون الجديد يحرم تسمية الأبناء بأسماء تحمل مرجعًا دينيًّا».

- «حسنًا.. لنفكر في اسم آخر لاحقًا.. هي الآن ذات الدين».

تبسَّمت كالشمس... تنبأ الذكاء الاصطناعي باحتمالات هيئة ابنتنا عن طريق صورنا وجيناتنا، خلق صورًا لها في مراحل عديدة من عمرها، تستطيع تلك التقنية التنبؤ بذلك وحتى ثلاثين سنة من عمرها.. الذكاء الاصطناعي لا يخطئ، لأنه في الأساس يعطي عديدًا من الاحتمالات، يجب أن يكون الشبه من ضمنها، وإن حدث وأتي طفل بشبه مغاير عمَّا تنبأنه

تقنية GAN [١]، تتوالى الكوارث، خاصةً في بلداننا العربية، لأنه دليل قاطع على أنَّ الطفل ليس من الزوج المُجرى عليه الاختبار، فيوصم الزوج بوصمة عار لا تفتأ أن تتحول إلى كارثة، منهم من يصمت، ومنهم من يستمسك بعاداتنا العتيقة ويقتل زوجته أو يطلقها، سمعنا كثيرًا عن الزوج الذي يقتل زوجته بعد عام من الولادة بسبب الشبه المغاير.. ومع أنَّ الكل يعلم بقبح تلك التقنية، فالكل يذهب لاستخدامها منذ نشأتها حتى صارت عادة أصوليَّة مثلها مثل معرفة نوع الجنين، الأسوأ من ذلك أن الوالدين يتعايشون مع صور الابن مدة الحمل كاملة، منهم من يذهب خصيصًا للـ«مركز القومي للبرمجة»، ويرمج ذكاءً اصطناعيًا للصور المخلوقة، فيخلق واحدًا افتراضيًا يتفاعل معه صوتًا وصورة عبر الشاشات الهلاميَّة، فإذا أتى الطفل الواقعي يمقته، لأنه اعتاد بالفعل النسخة الافتراضية التي لا تتبرز ولا تبول ولا تبكي ليل نهار، كما أن فقد الجنين في مراحل الحمل، بعد تفاعل الوالدين مع النسخة الافتراضية أو الصور، يجعل من الفقد أكثر قسوة، لا تختلف عن موت ابن عاشرته وتعوَّدت عليه مدَّة طويلة من الزمن...!

١. بدأت تقنية GAN قديمًا حين نُشرت ورقة علمية في ١٢ ديسمبر ٢٠١٨م باسم: A style-Based Generator Architecture for generative adversarial networks وتم إدخال التقنية الجينية لها في مارس ٢٠٨٠م لتظهر بعد ذلك إلى العامة، من طريق الخدمات المختلفة.

حدث ذات مرَّة خطأ صغير، وقرأ جهاز اختبار الحمل وجود حمل، وذهب الزوجان للكشف عن هيئة الطفل، وبعد شهرين يعلمون بخطأ الجهاز، وأن الأم ليست حاملًا من الأساس، ففقد الزوجين عقولهم، واستمروا بالتعايش مع نسخة الابن الافتراضية إلى الأبد، معتقدين أنه حقيقي.. وتداول الخبر على «آيدي» لفترة طويلة.

استُخدمت التقنية في أول الأمر لخلق صور لبشر ليس لهم وجود، لتقديم نشرات الأخبار والإذاعة والطقس، توفيرًا للمرتبات والموارد البشرية. وبعد خمسة أعوام فقط جرَّمتها الدولة إلا في الكشف عن هيئة الجنين، لأنها تحوَّلت إلى فوضى بعد ذلك، استخدمتها المنظمات الإرهابيَّة الدينية والشيوعيَّة في الإعلان عن كافة التفجيرات والاغتيالات، يعلن شخص افتراضي لا وجود له في عالم الواقع عن العمليَّة تضليلًا لقوات الشرطة، ضُللت الحكومة وقتًا طويلًا، قبل أن تعلم بوهميَّة الأشخاص المعلومة لديهم، والتي كانت تبحث لهم لأعوامٍ طويلة.

استخدمتها أيضًا شركة الـ «playboy» الإباحية وقالت في حملة دعائيَّة إطلاقًا لذكاء إصطناعي جنسي:

«صادق فتاة خُلقت من أجلك فقط».

خرجنا من مركز «GAN»، والأمل يملأ نفوسنا، تتأبط داليا

اليوم صور «ذات الدين» قبل أن تأتي إلى الحياة، استنشقنا هواءً عبقًا بزهو أشواق كادت أن تُنسى، والشمس في السماء هينة على من أراد الحياة، قدتُ السيارة وأنا أختطف نظرات إلى شامة «داليا في خدِّها الوردي بعد أن عادت إلى بشرتها نضارتها الهاربة، وتربَّعت نضاحتها على تقاطيع وجهها، التي بثُّت أملأ عيني منها من جديد.

***

«٢»

تَعافيتُ في «جاميان» بعد وقتٍ لا يدور وكوني لا يتمدَّد. تيهُ نفسي في سراديب دماغي لم يعينن على معرفة كم استغرق علاجي بالضبط، كمجرد تخمين، إعتقدت إنها مدَّة تتراوح بين الثلاثة إلى الأربعة أشهر، أخبرني الحارس الأصلع الودود الجالس معي في عربة الترحيلات أننا متجهون من جديد إلى الجنوب العسكري، متجهون إلى «ديجور». خرجت وخلفي «جاميان» في حراسة بدت مُستخفَّة بفكرة هروبي، حراسة ضعيفة، عبارة عن حارسين أصلعين يمشيان خلفي بلا اهتمام، وحارس أصلع ودود في سيارة الترحيلات، كلّ شيء أبيض في أبيض، عربة الترحيلات بيضاء ناصعة، ملابس الجميع ملوكية خالصة البياض مذهلة ومُفضَّضة مثلما شاهدت نفسي في شاشات مدينة البقر، لون جلدي أمهق، وألوان بشرة الحرس أيضًا مهقاء، بلا حُمرة من الدم، أبيض دميم وبارد، صرتُ أرى نفسي شبيهًا لهم إلى حدٍ كبير.

أثناء وجودي في عربة الترحيلات رأيت كل الطريق إلى ديجور بوضوح تام من نافذة العربة التي لا يتخللها قضبان حديدية.

لم يضعوا شيئًا على عينيَّ للمرة الثانية، لم أقيد، وأنا أصلًا لم أحاول حتى التفكير في الهروب، شيء ما بداخلي كان يريد الذهاب إلى هُناك ثانيةً. اعتقدت أن هُناك قد يقبع خلاص من كُل شيء، قد أتحدث إلى أحدهم وينتهي الأمر وأعود إلى عالمي من جديد، وقد لا يحدث وأموت وينتهي أيضًا كلُّ شيء، لقد إستهلكت كامل قوايَ وأنا نائم داخل أحلامي في ديجور، ولا أجد ذرَّة طاقة أخرى أواجه بها هذا العالم الغريب.

وصلت المحجر ودخلت بنفس الطريقة، محمَّلًا من قبل رجلين أصلعين مُرتديين الأبيض الخالص، على الرغم من أني أستطيع السير، فكَّرت أنها لابد أن تكون طريقتها من الاستقبال وقد تعودا عليها، فحفظاها بلا فهم، التشريفة كما يقولان.

دخلت حمَّامًا واسعًا دائريًا، تركني الرجلان وحيدًا بلا تبس كلمة، البخار يملأ الحمَّام السيراميكي ناصع البياض، في الأرضيَّة أحواض دائريَّة مملوءةٌ بالمياه الشديدة الصفاء، كينابيع رائقة، مرَّت دقيقة واحدة، حضرت فتاتان بلا ملابس، إحتضنتاني، عاريتان تمامًا، أجسادهما تشف، ومفاتنهما مرسومة بدقَّة تفوق خلق البشر بدرجات، سلاسل ظهورهما تتجلى من شدة رشاقتها، وعظام حوضها تنضح بالتنوءات العظميَّة الجميلة، دفعاني برفق إلى الينابيع، غسلاني بدون أي خجل، لم يهتز لهما رمش واحد، كانتا آليات، رأيت «داليا» في تقاطيع وجوههما الدقيقة، فكَّرت في كوني ما زلتُ في حلم ما، أو أن هذه (بعد كثير إستغفار هي

الجنة التي وعدنا الله)، صفقا شعري، هندمتاني، ألبستاني الأبيض المطرَّز بالذهب والفضَّة من جديد، هاتان الفتاتان هما الوحيدتان من جنسهما الموجودتين في مستجر ديجور كلُّه. لم أرى أنثى أخرى من يومها وإلى الآن.

دخلت غرفة التصوير، أُلتُقطت لي بعض الصور بوضعيات مختلفة، وكان من المفترض أن يكون على صدري اسمي، لم يكن لي اسم عندهم، فوضع المصوِّر الأصلع على صدري كلمة «مجهول» ووجهه يفضح عجبًا فضوليًا.

إقتادني رجل أصلع آخر، وهنا بت اعتقد أن كل رجل يعمل في ديجور أصلع الشعر، حليقًا بلا زغبة واحدة، حتى أنني اعتقدت أنني الوحيد الذي أملك شعرًا في هذا المكان بعد الرجل الذي حقنني بالإبرة في الغرفة القذرة، لقد كان شعره ناعمًا مصففًا.

سار الأصلع أمامي في ممر، ثم إنحرف لممر أضيق، ثم آخر، اللون الأبيض للجدران أبيض! لا بقع، ولا شوائب، ولا أتربة، أمامي الأصلع يترنح، ملابسه البيضاء الخفيفة تكشف جسده النحيل، أستطيع أن أرى جسده بالكامل إذا أمعنت النظر، أسير وراءه مُشمئزًا من مؤخرته، أنظر إلى شبشبي الخشبي الذي ارتديه، يخف من طول مشيي في ممرات بدت وقتها لا تنتهي، بعدها صرت أحفه عمدًا بالأرضية، أعبث...!

وصلنا أخيرًا، دفع باب مُبطَّن، وأشار لي بالدخول في رقيٍّ غريب. كانت غرفة شاسعة جدًّا، إرتفاعها شاهق للأنفس، قد يصل إلى عشرة أمتار، دائرية ومبطَّنة بالكامل، وخاوية من الأثاث نسبيًا إلا عند مركزها حيث تشتد الإضاءة، وكان بالمركز مكتب بكرسيه، يواجهه كرسيٌّ آخر لمن يجدُت الجالس على المكتب، بجانبه عمود إنارة طويل، هو مصدر الإضاءة الوحيد، وثلاثة صفوف دائرية من المقاعد المبطنة البيضاء، تخفت الغرفة وتُظلم تدريجيًا كلما ابتعد ضوؤها عن المركز، الظلام الملتصق بأركانها البعيدة، حيث نقف أنا والأصلع، يضفي للمكتب اهتمامًا خاصًا، المركز هو شجرة محرمة تريد أن يُقطف منها فاكهة يانعة.

أشار لي الأصلع أن أذهب إلى هناك بدون النبس بكلمة مُستمرًا في رُعْبِه المُمل. شعرت أنني لم أخرج من حلقي كلمة مُنذ مدة، السائد في ديجور إلى لحظتها كان الصمت.

ذهبت باتجاه المكتب وأنا أنظر إلى الخلف وأتلفت بحذر، رحل الأصلع من حيث أتى، جلست على الكرسي المقابل للمكتب، ولا أعلم لماذا، فقط، شعرت أنه مكاني.

احححم.. اسمي خالد.. احمم اسمي خالد.

غمغمتُ بها تحشرجًا لأتأكد أنني ما زلت قادرًا على النُطق.

تفحصتُ الغرفة أكثر، التبطين الجيد جدًّا يذكرني بغرف عزل المرضى النفسيين بالعباسية، أتذكرها منذ زيارتي لأبي، مسكين هو

وأمي، تركتها وذهبت وراء مجهول، ذهبت وراء لا شيء، إعتقدت أنني سألقى هُنا كُل شيء، ذهبت وراء هلاكي، فكّرت في أنني من الأفضل أن أكون مقتولًا على أن مفقودًا، فقدهم لي سيعانون منه حتى يتوفاهم الله، هم من سيدفعون ثمن رحيلي إلى الأبد، أما أنا، فعقابي أبسط بكثير، سينتهي ألمي بصوتي الوشيك على أية حال، أما هم فسيتجرعون المعاناة لحظة تلو الأخرى كلما يفكرون أن لهم ابنًا وحيدًا اسمه «خالد» لا يعرف له العالم طريقًا.

لاحظت مرآة كبيرة بجانبي، أرى نفسي فيها جالسًا بالكامل، وإذا وقفت سأرى نفسي بالكامل أيضًا، لم أرها من بعيد، شعري مصفف على غير العادة، لا يلوح على وجهي ندوب أو خدوش، نهضتُ واقتربت من المرآة حتى كدتُ ألاصقها، بأناملي أتلمس وجهي، كُنت كما خلقتني أمي، طفلًا لم يمكث في الدنيا إلا دقائق!..

همستُ:

يا الله، هل هذه الجنة حقًا...؟!

- «كأنك لم ترى نفسك منذ زمن..»

جلستُ سريعًا كطفل يعبث بما ليس له، خرجت منه الكلمات خارقة للسكون السائد، ثقته العالية بانت مع أول جملة، أصلع، كبير في السن، يرتدي نظارة دائرية بيتها رفيع يكاد لا يُرى، حنجرته ثُقلت النبرة باردة مُثلجة، بمجرد النظر لاحظت الندبة الطويلة في رأسه، خطان متوازيان من جانب مُنتصف رأسه وحتى جزء صغير من جبهته، وضع ملفًا على المكتب ثم جلس مُطلقًا تنهيدة إرتياح، أنزل النظارة قليلًا ولكنه ما زال يرتديها، شرع في وصلة تقليب وقراءة لما تحت يديه وهو يختلس بين فينة وفينة نظرة إليَّ من فوق نظارته الرفيعة، لسانه يلعب داخل فمه فيظهر مُكَّورًا في خده الأيمن، حركة مُفتعلة.

- «يا أهلًا...!»

إبتسامة سمجة لا تقل افتعالًا عن تكوير لسانه.

- «أهلًا وسهلًا.. يا فندم» برهبة.

أخرجتها بصعوبة بعد حشرجة وسُعال.

- «معاك المُستشار (آشر سعيد)، المستشار الأعلى لديجور ووكيل سيدي الهمّاس الأعلى بالجنوب العسكري».

أومأت رأسي كنوع من الترحيب ممتزجة برهبة لا بد منها، لحظات من الصمت ثم إستطرد:

- «تحاليل الدم والمعلومات الخلوية تقول إن اللقاح الوطني لم يدخل جسدك مُنذ ولدت إلا جزءًا ضئيلًا في لحم وجدناه في معدتك أكلته قبل إجراء الكشوفات عليك.. ما قولك...؟!»

تلجلجت، لم أجد ما أقول فأردف وهو يحك رأسه الأصلع:

- «متصمت...؟»

وأكمل بعد لحظة شرودٍ في السقف:

- «ما اسمك...؟»

- «خالد .. اسمي خالد يحيى».

- «من..؟! تقول ما اسمك..؟! ومن هذا الذي أعطاك صفة الخلود...؟!»

قام من على كرسيه وتقدم خطوات رتيبة إلى مقدمة المكتب، استند عليه بكلتا يديه وظهره للمكتب ثم أضاف باستغراب:

- «لا خالد يحيى يا بني.. لا تُضع وقتنا.. لا يوجد شخص في الجمهورية يحمل هذا الاسم.. لا يوجد لك معلومة في السجلات.. ثم.. ثم.. كيف صنعوا لك ذلك الشبه العجيب...؟!!»

الحديث يسير من طرف واحد.

فأردف:

- «هل تنوي الكلام..؟!» «يا خالد» أضافها بامتعاض..

- «الاسم غير موجود بالسجلات.. والتحاليل تثبت أنني لم أتعاطى شيئًا.. لأنني لست من هنا.. لست من هذه الأرض كلها»

- «يا رجل..؟! من أين أنت إذن..؟! من كوكب ثانٍ..؟!»

- «نعم..! من كوكب ثانٍ..!»

سمعها وهو يستدير متجهًا إلى كرسيه فضرب مكتبه بقبضة يديه مصدرًا جلبة.. انتفضت خشيةً.. تنهد تنهيدة تكشف عن نفاد صبر ثم قال:

- «حسنًا».

ضغط على زر بالمكتب فأتاه أصلع آخر يحمل كوبًا من الماء، شغَّل بعض الموسيقى من مشغِّل عتيق موجود على مكتبه، موسيقى غريبة عليّ، كلاسيكية نوعًا ما، مضافًا إليها بعض آهات رجال، ملحميَّة:

- «اشربه»..

ناولني الرجل الماء، استكان المستشار على مكتبه وعلى وجه ملامح راحة.. شربت الكوب على مرة واحدة.. كأني لم أشرب منذ زمن.. أومأ المستشار للرجل فذهب.

- «أنت عارف..؟! أنت كنز.. إذا كُنت صادقًا أو لم تكن.. أنت كنز أتى لجمهوريتنا من السماء.. من زمان جدًّا اعتقدنا أن الإله تركنا وغضب لأننا اخترنا خداع نفسنا.. طبعًا أنت فاكر إنك أول ما حضرت لديجور أخذت جرعة اللقاح الوطني فتعبت ونقلناك بسرعة لجاميان لتلقي العلاج».

سكن ثم كشف عن ضحكة خبيثة قائلًا:

– «المعاملة الراقية التي قابلتها هناك. ما رأيك فيها...؟! هل غسلوك جيدًا حينما أتيت إلى هنا من جديد...؟! كيف حال تمرجي العنايات الذي أشرف على حالتك هذه الساعات القليلة...؟!»

إرتجت الأرض تحت أقدامي، شوّشت الرؤية، أتت الهلاوس وقتها من جديد.

– «ساعات...؟!»

ضحك مبرزًا صف أسنان ناصع البياض ثم قال:

– «بالتأكيد ساعات.. هل تعتقد أنك مكثت في جامبان لشهور..؟ هل لدينا الوقت أنا وأنت لنتلقى علاجًا لشهور..؟! الحقيقة أنك لم تخرج من ديجور منذ جئت إلى هنا.. والتمرجيّة المُوكل إليها حالتك.. كانت رجلًا.. دائمًا رجل.. اللقاح كانت نسبته قليلة في جسمك.. الأطباء قالوا إنه من المتوقع إنك تكون شفته.. أنت لم تغتسل ولم تمرّ الشارع من الأساس.. الأصلع الذي ناولك كوب المياه منذ قليل حقنك بأجسام مُضادة للقاح بينما كُنت تعتقد أنك تشرب.. لأنني فقط (قلت) إنك تشرب.. لا تخف.. سترى كل شيء على طبيعته.. بعد أقل من دقيقة».

شعرت أنني عطشان جدًا.

– «ماء.. أريد كوب ماء آخر».

– «برّبك يا خالد.. أنت لم تشرب من الأساس.. كيف تُمسك كوب المياه وأنت مقيد...؟!»

نظرت إلى يدي، كنت مقيدًا، ذراعيَّ خلف ظهري.. الغرفة بلاشي بياضها تدريجًا.. يتبدل كل شيء بعكسه.. البياض يتحول إلى سواد كاحل.. لباسه ولباسي تبدل من البياض إلى السواد.. لا يوجد تبطين.. أجلس على كرسي حديد مليء بالجذاذات.. نظرت إلى المرأة وجدت نفسي أصلع.. وجهي مليء بالكدمات.. أنا في حالتي مثلما أتيت إلى هنا أول مرة.. كل ما عشته كان وهمًا.. المستشار ليس أصلع.. شعره مُهندم ومنظم.. مصفف. تبدلت الأحوال.

– «تعبت فأخذناك سريعًا لعنابر ملاحظة الطوارئ.. كان لازم نحقنك باللقاح ونوهمك أنك ستتلقى أفضل علاج.. كانت استجابتك بطيئة.. ومتقطعة.. لكن من يقف أمام لقاحنا الوطني...؟ تسلم يد أطبائنا.. الأجسام المضادة ستساعدنا في الحديث بحرية.. ستألم قليلًا ولكن لا بأس لن تموت. ها؟ الآن.. ما علاقتك بتنظيم الأندروبست...؟!».

***

أربع رقع ورقية تحمل رقم «١٥»، وذكر فيهن خالد مقابلته الأولى لمستشار ديجور وقتها.

«٣»

هُناك فجوة فارغة بين سؤاله وبين الأحداث التاليات، فقدت الوعي بعدما حُقنت بالأجسام المضادة وفور استفساره عن علاقتي بالأندرويست، هذا ما أرجّحه، عيناي معصوبتان بقطعة قماش مُبتلة شُدّت بقوة حتى كادت أن تُسقط البياض في مؤخرة رأسي، جالس على كرسي معدنه بارد، ما أرتديه مُبتل وخفيف، أشعر بنفح البرد فأرتجف كالصريع، الظلام الحالك لا يمنع ضوء بثّ ومضاته النافذة عبر جفوني، مكوّنة أشكال مُعتمة صغيرة تتحرك وسط الظلام، على أبواب مسامعي تدقّ أصوات صراخ لا يخمد، ليست أصوات تعذيب عادية، صرخات أبعد ما تكون عن صرخات شخص يُضرب، أو يُصعق حتى، صراخ زهاق روح، صراخ مُنادٍ للموت عاجلًا، مذعورًا ظللت أتمتم بدعوات نجدة من الله، كُنت عطشان، جائعًا، يلوح أمامي الموت وأتمناه، خلق لي الله ثقبًا أعبر به إلى ذكرى طفولية من واقع مُبكٍ، تبسّمت مُسيًا ألمًا خفيفًا في شفتي اللتين تشقّقتا.

كل شيء يهرول إلى الماضي، كل شيء يذهب إلى الوراء، الخط الفاصل بين الحارة والحارة، وأعمدة الضغط العالي البعيدة وسط الزروع، وأشجار السرو المُصطفة على جانبي الطريق، الكل ذاهب بسرعتنا إلى الخلف، أمي تصوِّر الأشجار وتُذيع مقاطع لايف لها وهي على الطريق، ضاربةً بكلام أبي عرض الحائط، لقد أخبرها من أول الطريق أن تتوقف عن نشر خصوصياتنا على العامة في مواقع التواصل وتستمتع باللحظات، أمي على أغلب الظن لم تسمع كلمة واحدة من الحوار الذي دار بيني وبين أبي، ونحن في طريقنا إلى والدها «جدو يونس» القاطن بالمقطم. كُنت جالسًا في المقعد الخلفي بالسيارة مُغمض العينين أرى تلك الأشياء المتحركة في الظلام بسبب ضوء الشمس المتقطع بين أشجار السرو، قُلت لأبي الذي يسوق بسرعة بينما تنبهه أمي من فينة لأخرى بأن يخف قدمه من على دوّاسة البنزين قليلًا:

- «بابا.. عندما أغمض عينيَّ تُلازمني أشياء متحركة على الدوام، بينما أفتح عيني فتهرب كل الموجودات إلى عكس ما تذهب.. لماذا تذهب الأشياء إلى الخلف وتتركنا يا أبي...؟!»

ردَّ عليَّ محملقًا فيَّ من خلال مرآة السيارة:

- «نحن من نتركها يا خالد.. نحن من نذهب دائمًا إلى الأمام.. نذهب دائمًا إلى ما نريده وليس ما تريده الأشياء يا خالد».

قُلت وقد فتّحت عيني أتأمل أشجار السرو:

- «هل تعتقد أنها حزينة...؟»

- «لم...؟!»

صمتُ ثم قُلت:

- «لأننا لسنا منتبهين لها».

- «وهل تعتقد أنك غير منتبه لها؟.. أنت انتبهت ومع ذلك لا تريد أن تخبرني أن أوقف السيارة.. وهذا خطأ أكبر.. على أية حال أنت تريد أن ترى جدك.. أشجار السرو تعرف ذلك.. تعرف أنك ستعود».

أشجار السرو تعرف ذلك.. تعرف أنك ستعود!

لا لن أعود.

قطع حلاوة الذكرى صوت كعكعة كعب حذاء فاخر، يخفق بفعل متعمد، دُلق عليَّ ماء بارد، لم يعرف الدالق كوني مُتيقظًا مُذ دقائق، شدَّ على العصبة ضاغطًا على عيني حتى صرخت، إعتقدت أن قرار عصب الأعين ذلك متأخرًا قليلًا وغبيًا كثيرًا، أنا بالفعل شاهدت كثيرًا من الوجوه، شاهدت وجه المستشار نفسه، فما الضروري لعصبة العين..؟!

- «ماذا ترى...؟»

نبرة صوته، ليس نبرة المستشار، لم يكن هو، كان صوتًا غائبًا لم يكن سؤالًا بأغبى من قرار عصب عينيّ، أو هكذا كنت أعتقد. صَمَتُّ، فلا معنى للإجابة على سؤالٍ كهذا وأنا معصوب العينين.. ماذا أرى...؟! الطبيعي ألا أرى أي شيء.. كرر السؤال

ثانية ببطء مُرعب بعدما اقترب من أذني اليسرى وزفير أنفاسه الحار يضرب حلمتها:

- «ماذا.. ترى...؟»

تلعثمت.. إرتعد قلبي داخل ضلوعي، ازدرت من فمي البور ما تبقى من لعاب.

- «لا أرى شيئًا.. لا أرى شيئًا.. سيدي».

كدكتور جامعي يَنخرط يوميًا في أبحاثه، ولا يجلس على القهوة، ولا يركب مواصلات عامة، ولا يتعامل مع بشر تقريبًا، كانت هذه من المرات النادرة الذي أنعت أحدهم بـ«سيدي».

لعلمني بغتةً بقبضة يده على أذني.. طُرحت أرضًا.. ألمت.. اصطدمت رأسي بصخر الأرض وأحسست بحرارة ما يجري عليها من الدماء.. اقترب من أذني وأنا على الأرض.. ثم قال هامسًا وأنا أزدرد باحثًا عن لعابي الذي جف.. فلا أجده.

- «أنت هكذا ترى كُل شيء».

بعدها فقدت إحساسي بكل موجود.

***

رقعتان ورقيتان تحملان رقم «١١٦»، ذكر فيهما التعامل العنيف معه في بداية وصله لديجور.

- فصلٌ حادي عشر -

«١»

«يلتزم مجلس الدولة بوقف أي فرد من أفراد الحكومة عن العمل حال إستخدم العنف غير المُبرر ضد مواطن داخل المحاجر وجلسات الانصياع طبقًا للعرف العسكري السائد مُذ نشأت الجمهوريَّة، والذي يقول نصًّا: تنوب الأكاذيب وجلسات الانصياع مناب الوسائل العنيفة بإعتبارها أدوات غير مؤذية جسديًّا ضمن ترسانة الفعل السياسي».

المادة «٦٩» من قانون أمن الجمهوريَّة

***

«٢»

قال بنبرة يتصنَّع بها غضبًا لا يليق بملامحه الباردة:

- «أقسم لك بربي أمامه ها هو.. لن أعتقه.. سآخذ لك ـقك.. الجبان يعتقد نفسه يعيش في القرون الوسطى».

أردف موجهًا كلامه إليه بدون نظر:

- «يا بيه لازم تعرف أن عصر الظلمات والضرب والتعذيب ـى».

نظر إليَّ واضعًا فصًّا من فاكهة صفراء داخل فمِّه ثم لاكها ـطء مُزعج، أكمل ثرثرته:

- «حقك.. حقك تشتكي يا خالد.. ولو قلت لي وصَّل ما ـدث للهمَّاس الأعلى سأفعل فورًا.. حقيقي.. نحن جمهوريَّة ديمقراطيَّة.. لا تحدث مثل تلك الأشياء في جمهوريَّة النَّعام»..

ـشي ضبابية، ما زلتُ أجلس على الكرسي الحديدي الساقع في الغرفة الشاسعة كالحة السواد، رائحة عطن وفضلات حيوانية

تخترق خياشيمي، المُستشار على المكتب يرتدي الأسود، ويأ...
فصوص فاكهة صفراء غامضة، وبجانبه يقف في وضعية إنتـ...
قائد الجنود الذي قبض عليَّ بنياشينه المُذهبَّة، يلوح على ...
نظرات عابثة كرجل آلي، يرتدي الأسود الملوكي، حديث السن
ورشيق، وتقاطيع وجهه تنضح بالشغف المُفرط المُسبب للحياة
على الحائط لوحة كبيرة لنعامة تدفن رأسها بالتراب، نظر إلى
المُستشار زاعقًا وهو يمضغ الفاكهة:

- «إنصراف».

سعل مما يلُوك، ردَّ عليه الضابط مُتسارعًا بصوت ضخم:

- «أمر معاليك».

إنحنى وخرج من الغرفة التي أولِّي ظهري لبابها البعيد، بعد...
المستشار البذر في تكوير يده المعمول، ثم وضعه في طبق مُسطح
واقترب مني فاحصًا الجرح بجانب رأسي وقد إفتعل جسدي
وضعية دفاع فابتعدت بجذعي خشيةً:

- «لا .. بسيطة.. لا تخف».

قالها بإستخفاف، وأنا ما زلت غارق في صمتي.. الحوار لا
زالت من جهة واحدة.

- «ما زال حديث العهد.. أرجو أن تعفيني من أن أوصل ما
حدث للهمَّاس حفظه الله.. كُن رحيمًا.. إذا وصلت تلك الواقعة

سيوضع هذا الضابط الشاب على منضدة الطعام في الغدِّ للجنود
في أقاصي البلاد».

صمت لحظة ثم أردف وهو غادٍ نحو كرسيه ليجلس:

- «متسرع.. ولكن يحب الجمهور.. ألا تُحبها يا خالد..؟»

- «بالطبع.. أحبها.. مُنذ أن جئت إليها وأنا أحبها» أنا كاذب.

- «تقصد مُنذ ولدت فيها...؟!»

- «لا.. أنا لم أولد فيها..!»

صمت بوجه لا يُستجلى منه أي تعبير.

- «الشرق فائر.. لطالما كان مُشاغبًا.. المواطنون يفترون علينا..
أنا راضي ذمتك.. ألم نعد نوفر مواد كذب جيدة..؟ نحن؟ لا
يريدون أن يستوعبوا أن الكُتَّاب أفراد من الشعب نفسه.. الشعب
من نصب أفكاره وليس نحن.. تعرف أن أحد الكتَّاب فكَّر منذ
سنوات في كذبة خطيرة لم تتداول من قبل...! عرض المعتوه على
اللجنة أن تُخبر الشعب أن الله قد مات...! هل ترى ما وصلنا
إليه من فقر أفكار...؟! يا ابن الكافرة...! بالطبع منعنا نزولها
للشعب.. كانوا سيذبحون بعضهم البعض في اليوم التالي...!»

أهز رأسي مع كل جملة.

أردفت ضاحكًا كاشفًا عن نابٍ لامع:

- «البعض يقدم أفكار مضحكة.. السيناريست المعروف.. المدعو.. المدعو.. ما اسمه...؟ آه.. السيد ذكي أمين.. قدم لنا سيناريو به كذبة مبتكرة.. ولكنها غبية.. كتب للشعب سيناريو يوهمهم أنهم مجرد قطط...! بعد صنع الفيلم وعرضه في السينمات إحتجنا وقتًا كبيرًا كي نمحو تلك الخدعة. إحتاجنا وقتًا كثيرًا وكلاب صيد أكثر للتخلص من أصوات القطط ومناظر الناس وهي تمشي على أربع وتلف حول نفسها.. ولكن هذه الكذبة تحديدًا كان لازم تنزل.. عجبت الهمَّاس نفسه».

إستمر في الضحك حتى نزع نظارته ذات البيت الرفيع مُرددًا:

- «مضحك جدًا.. مُضحك جدًا».

قال بعد وصلة ضحك إعتقدت في إنتهائها أخيرًا:

- «قل لي أنت.. ماذا نفعل...؟! وفرنا لهم كل شيء يريحهم.. لا أتكلم عليك.. أنت حكايتك حكاية.. لم تتعاطَ اللقاح أصلًا.. ولكن.. أتدري...؟ الأندروبست هم السبب.. دخلوا بين الشعب وحكومته.. يريدون تسييرها بـ(الحق) ولاد الكلاب..! يريدون ضياع ثورتنا المجيدة!».

ما إن نطق ثورتنا المجيدة حتى وضع راحة يده اليمنى على قلبه مُغمضًا عينيه، ومولّيًا نفسه تجاه لوحة «النعامة»، كاتمًا بصعوبة مزيدًا من الضحك حتى أحمرَّ وجهه، ثم ضحك من جديد وأنا أزدرد لعابي خائفًا من سكرته.

- «قل لي.. ماذا تعمل يا خالد...؟» يتنهد إيذانًا بإنهاء ضحكه».

لا فائدة من الردّ، ولكنني فعلت، لا خيار.

- «أنا مُدرس جامعي.. دكتور في الفيزياء».

- «دكتور في ماذا..؟! هل هذا تخصص طبي جديد..؟!».

مُتعجبًا يفرك عينيه مُبتغيًا إفاقة بعد وصلة ضحك هيستيري.

- «سيدي.. أنا لا أنتمي لجمهورية النَّعام».

حدجني حدجةً مُرعبة.

- «فعلًا...؟ ألم تتعلم صغيرًا أننا الجمهورية الوحيدة في العالم...؟».

- «سيدي.. أنا لا أنتمي إلى هذا العالم كُله.. لا أعرف من الأساس إذا ما كُنتم الجمهورية الوحيدة أم لا!».

صاغ في المكان سكونًا لبضع ثوانٍ ثم قال بنبرة رسميَّة:

- «خالد.. أنت مُتهم بالإنضمام إلى الأندروبست وعدم حيازتك لهوية معلومة والتظاهر والخروج على عقيدة البلاد.. مجموعة تُهم تضعك على أبواب جهنم.. سأتغاضى عن تظاهرك فقط إذا تعاونت معنا».

إرتفع ضغط الدم وزمجرت معدتي العصبية لما فيها من تقلصات.

قُلت بصعوبة:

- «كيف...؟!»

- «بسيطة.. بأن تتكلم».

- «أنا لستُ من هُنا.. أنا لا أعرف شيئًا».

تنهد بنفاد صبر. ذعرت.

أمرني أن أنظر للمرآة الكبيرة التي بجانبي ثم قال:

- «ماذا ترى؟»

فكرَّت في خطب هذا السؤال البديهي للحظات.

لما ذلك السؤال بالذات...!

نظرت في المرآة ولم أرَ بها إلا نفسي.

ثم رددتُ:

- «أرى نفسي».

- «حسنًا.. ستخرج من هُنا حينما تنظر للمرآة ولا ترى نفسك!»

ضغط على زر المكتب، فارّ دمي، أتى الضابط ذو الوجه العابث بنياشينه المُذهبَّة وزيه الأسود الملوكي، قال له بنبرة آمرة:

- «عرِّف خالد أين الحقيقة».

حقنني الضابط في عنقي بسرعة لأسقط بالكرسي مغشيًا عليّ.

***

ثلاث رقع ورقيَّة تحمل رقم «١٧»، وذكر فيهن خالد جلسة التحقيق الأولى، وأجراها له المستشار «آشر» بنفسه

«٣»

تأنقت داليا كما لم تفعل منذ شهور، ذهبت في تأنقها غاية الحسن، دعوتها لحفلٍ بدار الأوبرا المصريَّة على أنغام موسيقارها المُفضَّل: «السويفي علَّام»، عادت سعادتها فعاد اهتمامها الدقيق بمظهرها. داخليًا وخارجيًا، داليا من النوع الذي يحتاج إلى الدوبامين المُسبب للسرور، ليكون سببًا لاهتمامها بالعالم الخارجي، ومن ثم اهتمامها بي.

ارتدينا السترات الكلاسيك إمتثالًا لقوانين الأوبرا العتيقة، استعد كلٌ منَّا لسماع سيمفونيَّة «الوجود» في شوقٍ. كانت المرَّة الأولى التي نخرج فيها معًا للترويح أو التنزه أو سماع الموسيقى منذ فترة طويلة. قبيل الحفلة توقفنا أم دكانة قديمة قدم الأوبرا، دكانة «مثلجات أبو غريب» المُعتقة، نبتاع ذلك المخفوق القديم المُسمى بـ«الأيس كريم»، يأتي إلى تلك الدكانة المُعتقة أناس من أماكن بعيدة، يصطفون بصدرٍ رحب أمامه في طوابير طويلة، داليا تحب أكل ذلك المأكول النادر ليلًا، خاصةً في الأجواء الباردة.

دلفت إلى السيارة وأنا أشاهد تلك البسمة الجميلة على وجنتها وعيونها، لا أتمنى زوالها أبدًا، أعطيتها «الآيس كريم» التي طلبته بنكهة المانجو المضاف إليه الحليب الخفيف، همّت بأكله بدون أن تنبس بكلمة.

تأملتها لحظات، قطعتُ لحظة الصمت المكتومة داخل السيارة، أتودد إليها فيما كان يجب أن أتودد فيه منذ فترة طويلة.

- «متى سيخرج كتابك للنور...؟»

دهشت وتوسَّعت عيناها بينما كانت بواقي الآيس كريم لائمة على شفتيها المُوردتين.

- «أخبرني الناشر بطبعه خلال أسبوع أو أثنين».

- «ينفع أقرأه قبل العامة...؟!»

- «هل تودّ قراءته فعلًا...؟!» إستمرت في دهشتها ومزجتها بسمة.

- «بكل تأكيد.. ولم لا..؟» بادلتها البسمة.

عانقتني بحرارة ودفء لا وجود لهما في تلك الليلة الباردة إلا في أحضانها، لثمت شفتي بقبلة صغيرة لطختني بمخفوق الحليب الذي تأكله، قبل أن يرتج محيط الأوبرا بسيمفونية «الوجود» التي صدحت، آذنةً لنا بالدخول على الفور قبل أن يفوتنا الكثير.

جلسنا في الأدوار العلويَّة كما نحب، فرقة الأوركسترا اختفت انتباه داليا فورًا، دقت الطبول، وصدحت المعازف، ولوَّح السويفي بعصى سيمفونيته الشهيرة، الكورال مصطف كاصطفاف أسنان مُصطنعة بعناية دقيقة، بنات وشباب يرتدون الكلاسيك، خلف الكورال لوحة كبيرة شهيرة مسماة بلوحة «الكون»، عبارة عن دائرة ومربع ومثلث يتداخلون فيما بعضهم.

جرفني عقلي مع اللوحة والمعزوفة إلى صبيحة ذلك اليوم، والذي أهدتني فيه تلك اللوحة High-Copy، أُعجبت بها أول مرَّة عُرضت فيه مع الإعلان التشويقي للسيمفونية، شيءٌ ما جذبني إلى تلك اللوحة، وداليا لا تدع تلك الفرص تتوالى بدون أن تضع بصمتها، هي دائمًا بارعة في فن اختيار الهدايا، أو على نحو أدق، كانت تفعل ذلك في أيامنا الأولى، أهدتني تلك اللوحة وقد ابتاعتها من متجر باباتي عتيق، لم أجد أي معلومات عن تلك اللوحة أو راسمها على الإنترنت، ربما تكون عتيقة جدًا، فضاعت بياناتها مع ما ضاع يوم إنهيار الأرشيف الأعظم للإنترنت على يد مخترقين إرهابيين. قالت لي داليا وقتها: المثلث والدائرة والمربع هم كل الكون.. يصنعون كل شيء ننظر إليه.. كان تفسيرها للوحة رائعًا، ولكنه مختلف كليًّا عن تفسيري، وتفسير طاقم السويفي نفسه، أنا أقول إن الثلاثة أشكال يمثلون ثلاثة عوالم مختلفة، وربما فسَّرتُها هكذا لارتباط تفكيري بطبيعة عملي، أما السويفي الذي اتخذها واجهة سيمفونيته يقول إنها

رموز روحيَّة داخلية وكلام على التنجيم وعلم الرموز وكل هذا الهراء.

قطع إيقاع صاخب ذكرى ذلك الصباح، وتموَّجت قليلًا مع أمواج المعزوفة، ورحل عقلي من جديد إلى شبيهة تلك الليلة التي رأيت فيها داليا لأول مرَّة هنا بالأوبرا، كانت ليلة باردة مثل تلك الليلة بالضبط، ولكنني حينها كُنت وحيدًا، الكورال يصدح، تصرخ بناته، ويطلق شبابه آهات، لمحتها بالشق المقابل من القاعة، تجلس في فراندا المجلس الواحد، إعتقدت أنها تُمثل لي، فقد كُنت معجبًا بها منذ سمعت قصتها مع توفيق، عُزلت عن العالم حين تراءت، دب الصمت في الكورال، وصرت أتطلع إليها بوجدان إقتحم حصوني، تثلجت أطرافي، واختفيت في الكون طويلًا، لم أجد إلا أن أجبر نفسي على عدم التقاء الأعين الفاضحة، تشخصت عيناي تجاه الأوركسترا، وعقلي وقلبي وروحي مع تلك الكيان المُباغت، إنتهت الحفلة بعسرٍ وذهبت مسرعًا إلى الباب الذي من المفترض أن تخرج منه، تلصصت ولم أجدها، تأكدت أنه تُجيل لي حقًّا. عندما ذهبت إلى البيت، فتحت حسابي على آيدي الذي لا يعرفه أحد، ودخلت على حسابها.. «Check in Dar Al- Opera».. تأكدت ظنوني، وزاد إعجابي بها بعدما علمت إهتمامها بالفن والجمال، بالإضافة لاعتناقها الديني المائل، فضلًا عن حسنها المُدمر، والمُجمع عليه كل من يلمحها.

إنتهت الحفلة سريعًا، لم أنتبه إلا لمقطوعة أو اثنين لفرط تفكيري فيما مضى، ولكني عوضت ذلك بمقطوعات من الشبق المُتلاحم بدأت بعد دخولنا أنا وداليا باب شقتنا.. صنعنا أعظم سيمفونية في التاريخ، ضاربين بكلام الطبيب المشرف على حمل داليا عرض الحائط، بل عرض كل الحيطان.

***

- فصلٌ ثاني عشر -

«١»

كُل الموجودات تتلاشى، والفارق بين الحقيقة والباطل أصبح حلمًا، والحلم لا فرق بينه وبين الذكرى. إختلط الواقع بالخيال، وانصهر الكل في الكل، وذاكرتي تخرُّ تدريجيًا لحشوها بما لا ينتمي إليها. أكتب الآن الدفعة رقم «١٨» وأنا أنسى داليا تدريجيًا، كيف تكون...؟! وما شكلها...؟! وكيف كانت روحها...؟! أكانت مرحة، أم جادة...؟! الذكريات تتملص هاربةً مع الهواء من ثقوب جدران الزنزانة. قبيل الشروع في الكتابة على تلك الرقعة تخشَّبت لثوانٍ أتذكر إسمها، وقف حرف الـ «د» في زوْري بعدما إختلج صوت دماغي، وتلتل لساني بالنطق: د.. د..

خرج المنطوق الأحب إلى قلبي مثل ولادة مُتعسِّرة كأنه يحتمي من ظلمة «ديجور» في أحضان ضلوعي:

د.. دا.. داليا..!

كانت تُدعى «داليا»..!

لم أرض أن أنظر إلى اسمها في سابق الرقع، أردت أن أتذكر اسمها بنفسي، رأيتها في المنام اليوم، لا أعلم ما الذي رأيته بالتحديد...؟ حلم أم ذكرى...؟ تفاصيل حدثت بالفعل...؟ أم مجرد حلم عابر...؟! تلاحمت الأحلام بالذكريات، وأصبح الفارق بين الحلم والذكرى فتيلًا، أو أقل من فتيل، جاءت الأحلام بالبعيد قريبًا، مُشفقة عليَّ، وعلى هويتي الآخذة في الذهاب.. قررت فور استيقاظي أن أكتب ذلك الحلم، أو ذاك الذكرى، قبل أن أسرد بقيَّة ما حدث، لا أريد أن أنساه، أو يتلاشى مع المُتلاشيات.

مكتبة بيت الحصريات

فتحت غطاء العلبة القطيفة ذي اللون الأحمر الفاقع، فصّ الخاتم يلمَّع، فيصوغ لمعانه الساقط على بشرتها العجريَّة، لون الفجر في محيطٍ من الظل، تمايَّلت بعنقها وفي عينيها تلك النظرة التي تكاد تُرقرق دموعَ فرح، تتحامى في بعض الابتسامات فتكشف عن صفٍّ أسنان مُصطَّف بعناية إلهيَّة خاصة، تلوذ بالنظر إلى أشياء لا قيمة لها، عبثت بكعب الكأس المملوء بعصير التفاح، رمقت المطر الخفيف على الواجهة الزجاجيَّة، وأنا بين ذلك الحُسن مُتطلِّع إلى تلك الشَّامة الحسناء المُضفية عليها جمالًا فوق جمال.

كانت في الجزء السفليّ من خدِّها الأيمن.

لا.. لا.. كانت في منتصف ذقنها المدوَّر.

لا.. بل كانت في الحدِّ الأيسر.

لا أعرف...!

أنا مشوَّش...!

لست متأكدًا من أنَّ داليا تمتلك شامَّة أصلًا أم لا..!

على أيَّة حال، كُنت قد اخترت الوقت المناسب لأعرض عليها الزواج، كانت تمطر وصوت انهيار المطر، وسيلة على زجاج الكافيه الكائن بحيِّ «الزمالك»، يُضفي على الأجواء حميميَّة ودفئًا رائعين، حلمٌ كان أم ذكرى، لا يهُم، المهم أنني رأيتها اليوم، حتى وإن كُنت لا أذكر ملامحها، وهي الآن في مُخيلتي عبارة عن ضباب.

زنزانتي هي الزنزانة «أ-أرضي»، الزنازين والعنابر الأرضيَّة مُخصصة فقط لكبار المعتقلين، قادة «الأندروبوست»، أو رجال الحكومة المعترضين على عقيدة الجمهوريَّة مُجرد اعتراض، بعضهم من زاد قليلًا، ففكَّر فقط في الانقلاب على الهمَّاس الأعلى وإطاحته عن الحكم في سبيل رجوع الرتابة والاستقرار لجمهوريَّة النَّعام، هُم على علم بأن الهمَّاس الأعلى لا يعرف كيف يوفر موارد كذب جديدة للمواطنين، يقولون إنه كبر وخرَّف، وليس لديه أية أفكار لإنتاج جيل جديد من كُتاب الأكاذيب.

أخبرني المستشار بأنني «ثاني» أهم معتقل في محجر ديجور كله، من الأول...؟! لا أعلم.. سمعت قوله هذا وافتعلت إيماءة ثم صمتُّ.

تيَّقظت بعدما طعنني الضابط ذو النياشين المُذهبَّة باللقاح، رجع كل شيء مثلما كان يُخيَّل لي حين خروجي من «جاميان»، الأبيض الخالص المعهود يعلو كل شيء، لم أعد أشعر بأي جروح، الزنزانة «أ- أرضي» تبدو فسيحة، جدرانها عبارة عن مرايا عريضة بعرض الجدار كله، إلا أجزاء بيضاء من الجانبين، ومن حيث الطول، فالمرايا لا تلامس الأرضية ولا السقف، تترك جزءًا من أعلى الجدار وجزءًا من أسفله.

حينما قال المستشار آشر: ستخرج من هُنا حينما تنظر للمرآة ولا ترى نفسك..! لم يكن يمزح، كان جادًّا لأبعد درجة، عليَّ أن أنظر إلى تلك المرايا ولا أرى بها نفسي.. عليَّ أن أؤمن بأن الشمس مُشرقة في حين هبوط وابل من المطر يجرني إلى مصارف صحيَّة منسيَّة.

الزنزانة مزوَّدة بهاتف عتيق بسلك مُلولب، مكتوب فوقه على لوحة معدنيَّة:

«في حال قررت الاتصال بأحدهم.. ارفع السماعة وأخبر العميل بالاسم وسيوصلك به.. لدينا كافة أرقام سُكان الجمهورية والمصالح الحكوميَّة.. نراقبكم لنعتني بكم».

الزنزانة مزوَّدة أيضًا بشاشة عرض مرتكزة على ديكور خشبيٍّ راقٍ ومتين. يوجد مُكبرات صوت في أركان الزنزانة تنقل الأخبار والأكاذيب الصباحيَّة والمسائيَّة، به حمام بمبولة رخاميَّة مطفيَّة.

المرآة سحريَّة وغامضة، مزوَّدة بتقنية عجيبة، تعكس كل ما أتخيله أو أفكر به من ذكريات وتخيلات، كأنها شاشة مرتبطة بدماغي...! فحصتها كثيرًا، تحسست دماغي أكثر من مرَّة، لم أجد مجسَّات أو شيئًا، فكَّرت في أنه من المحتمل أنهم وضعوا شيئًا داخل دماغي، ولكن، لا أثر لأي ندبة أو جرح، أو حتى خدش، جُننت في أول الأيام أتفحص ذلك الشيء الشيطاني وأتابعه، حتى وصلت لاستنتاج مهم، أنا الوحيد من أرى ما تعكسه المرايا، لا أحد يرى ما أرى، تخيَّلت نفسي أشير بـ«الوسطى» للمستشار في تجربة مُتهوِّرة، كان يتحدث إليَّ واقفًا على باب الزنزانة، عُكِس ما أتخيَّله على المرآة المواجهة له، لا يبدي أي تعليق على أصبعي الموجه إليه! إستنتجت فورًا أني الوحيد الذي أرى ما أتخيله.

بعدها تعوَّدت أن أتخيل مناظر خلَّابة وخضرًا وزروعًا وبساتين، أصوغ ما لا عين رأت ولا سمعت أذني، أسترجع القاهرة بزحامها وبُهتانها الحلو على قلبي الآن. أستجلب الذكريات وأكتبها، أحفظ ما أذكر على تلك الأوراق، ذاكرتي تطرد بغشم كل ما تحويه، فينتشر النسيان في دماغي إنتشار النار في الهشيم.

كُنت أشاهد الحلم الذي سردته منذ دقائق أمامي على المرآة وأكتبه، حين شوَّشت وتشتت فيما يتعلق بشامَّة داليا، أخذت

الشامة تتقافز على المرآة من خدِّها الأيمن إلى الأيسر، كأن عقلي يرسمها بريشة فنان على تلك المرآة، وجه داليا كان مُضببًا، لا أستطيع رؤيته جيدًا، ولكنني أعلم في داخلي أنها هي.

يوجد أيضًا سرير وأريكة مريحة، يوجد كُل ما أحتاج إليه في هذه الزنزانة خالصة البياض، من المفترض أن أكون سعيدًا كما يردد المذياع في مكبرات الصوت ليل نهار:

أنت سعيد.. أنت في راحة.. أنت مواطن مخلص.

وهذا صحيح.

أنا دائمًا في بلادة، أشعر بالسعادة والراحة، ولكني أعلم في قرارة نفسي أن كل ما أراه هو الباطل بعينه، ولا أختلف في إدراكي لذلك الوهم عن سكان هذا العالم في شيء، هُم أيضًا يعلمون أنهم واهمون، ولكني أحمل ذرات رفضي لتلك الراحة الزائفة المبنيَّة على الباطل، في حين أنهم يقبلونها بصدرٍ رحب، لدرجة أنهم ثاروا من أجل زيادة حصصهم من الكذب..! أنا أسعى للحرية، وهم يسعون إلى سعادة من أجل مُسمى «السعادة»، مُسمى زائف لا معنى له، ولكن الجيد في الأمر على الأقل، أنني لم أعد أشعر بالجروح والكدمات التي أعلم بوجودها مُسبقًا.

وإذا كان يُقال في العموم إن الحقيقة تُرى ولا تُسمع، فأنا عرفت أن الحقيقة لا ترى ولا تسمع، الحقيقة تُدرك، وهناك من يدرك الحقيقة ثم ينبذها، وسواء من ينبذها أو من لم ينبذها، فكلنا تحت

سطوة جمهوريَّة النَّعام سواء، من المستشار والضابط والمواطنين والعمال وكتَّاب الأكاذيب، وحتى حارس زنزانتي.. صديقي، الدكتور ماجد مرزوق، أقصد «شبيه» الدكتور ماجد مرزوق.

***

ثلاث رقع ورقيَّة تحمل رقم «١٨»، وذكر فيهن خالد وصف زنزانته.

«٢»

ثلاثة أشخاص لا يمر يوم، مُنذ دخلت الزنزانة، إلا ألقاهم، المستشار آشر، والضابط ذو النياشين المُذهبَّة، ورفيق الزنزانة وحارسها، نظير ماجد في ذلك العالم، الحارس «مَطيع»، رأيته أول مرَّة وقت اصطحبني أول يوم إلى «ساحة الولائم»، فتح باب الزنزانة، صُعقت لرؤيته، إعتقدت أني أُهلوِّس كالعادة، فكَّرت في أنه تعقب أثاري وقفز إلى جمهوريَّة النَّعام ليخلصني مما فيه، صفعني المنطق لطمة حين لمحت رأسه الحليق ورداءه الأبيض العسكري كبقيَّة الحراس، فكَّرت في أنه لابد وأنه تنكر واقتحم المعتقل خلسةً، ولكن ماجد شخصٌ ودود، لا يملك شجاعة فعل مثل تلك الأمور السينمائيَّة.

«شبيه ماجد» أو «نظيره» الحارس مَطيع، هو الموكل بي، يصطحبني إلى ساحة الولائم وجلسات الانصياع كُل يوم، يلازمني دائمًا وأنا خارج الزنزانة، يمر أمام شباك الزنزانة طوال اليوم، وفي نهاية اليوم يذهب للنوم في مهاجع الجنود والحرَّاس، صحت فيه لأول وهلة: ماجد..! ماجد..! الحمد لله..!

دفعني ثم زَعق بنبرة لا تشبه نبرة ماجد:

من ماجد هذا..؟! تأدب يا كافر وإلا ندمت..!

قُرب الشبه بينه وبين ماجد يُرهب أي بشري شاهد الاثنين أشد الرهبة، يختلف الحارس عن ماجد الذي عرفته فقط بأنه لا يمتلك نفس الإيماءات، وحركات الجسد بالإضافة إلى صوته الأجش البارد، لاحظت الاختلاف بمجرد الجس، إقتادني في الممرات مع خمسة مساجين آخرين في طابور مصطف ومستقيم إستقامة ألف الوصل، أنا آخر واحد في الطابور، يسبقني قزمٌ بوجه به استطالة دميمة، يتلفت إليَّ بين الفينة والأخرى ثم يبتسم، عيناه تُبَوِّدان إلي، أسير في الطابور وأسترق النظر إلى وجه ماجد المألوف، أُملي عيني من الشيء الوحيد الذي ألفته، فكَّرت في كيفية وجود ذلك الشبه الرهيب، وتذَّكرت ذلك الوجه المرسوم على جدران الحيِّ المتمرد، لو كان ذاك الشخص المرسوم نظيري في ذلك العالم، فأنا هالك لا محالة..!

دلف الطابور إلى ساحة الولائم، وهي عبارة عن هنجر فسيح مغطى بسقف معدني عالٍ، يوجد مناضد لا حصر لها، والهنجر على اتساعه مُقسم إلى أقسام حسب المساجين، المهم فالأقل أهمية وهكذا، وكُنت بالطبع في القسم رقم «١».

جلست على منضدة، يقابلني القزم ذو الوجه المستطيل، ويقف على رؤوسنا «شبيه ماجد»، يتابعنا بحذر، ما زلت أسترق

النظرات لماجد بين الفينة والأخرى، وأحاول جاهدًا بألا يلحظ أحدٌ نظراتي إليه، رفعت الملعقة أرشف الحساء الساخن، فدلقت المرق على لباسي الأبيض بدون وعيٍّ من شدَّة التفاتي لشبيه ماجد، فنبهني القزم قائلًا:

تريَّث يا رجل.. هل فقدت أعصابك..؟ كُل كما يأكل الرجال..! ما زال أمامك طريق طويل.

تأكدت بعد تلك الجملة من ظنوني، وسرحت طويلًا فيما سيفعلونه بي، لديهم الآن واحد من هؤلاء الثوَّار الكافرين، أنا في ورطة.

مرَّت الأيام والليالي، وما زلت أسترق النظرات إلى شبيه ماجد كلما مرَّ أمام الزنزانة، كلما إقتادني للمساجين إلى ساحة الولائم، أو أخرجني لأداء تمرينات الصباح، أتمسك بالوهم الوحيد الذي يربطني بعالمي.

صحوتُ ذات يوم على صوت المذياع الصاخب يصدح: رضي الشعب بحاله، وماتت ثورتهم، وعادت الحشود إلى بيوتها لتنعم بالأمان المعهود.

وهذا يعني أنَّ الثورة كانت في أشدِّها والناس تجتاح الشوارع..! نعم، لقد حفظت واقع العالم المعكوس، خمَّنت هذا وفقط، لا أعلم ما إذا كان تخميني صحيحًا أم لا، ولكنه حتمًا لا علاقة له بما أُذيع يومها.

يومها هو اليوم الوحيد الذي لم يأتِ شبيه ماجد ليأخذني إلى جلسة الانصياع اليوميَّة، لم يأتِ أحد قط، دبَّ السكون في الكون وخلت الأرجاء من أي صوت، ومع مرور الساعات أخذت رائحة عفنة في التزايد، رائحة بول وبراز ودماء، أسعل من أثر نتنها، يتكالب عليَّ الزمن، السقف خالص البياض يقطر مياهًا عطنة، يقطر بولًا! ضلوع جسدي تتحرك كالثعابين، وجروح وجهي تنبض، وظهر جسدي فجأة جافًا ومتشققًا وكأني لم أشرب من أيام، كُنت ناحلًا حتى برزت عظامي، رأيت نفسي على حقيقتها، لا أستطيع الوقوف، شيء يدفع بي إلى الأرض، ظهر الإرهاق على كامل جسدي، ملابسي تسودُّ بالتدريج، ذعرتُ، إختنقت، واهتز الوجود وتحركت الجدران زاحفة نحوي، تضيقُ وتضيقُ، تقترب منيّ.

خُيِّل لي أنني سأفرم بين هذه الجدران المتحركة، تزعق حانية، لامستني، إستعدت عظامي للتحطيم، نطقت الشهادتين.

ولكنها توقَّفت.

تحوَّلت ملابسي إلى السوَّاد، مرقعة وممزقة، تحولت الجدران إلى صفيح من صقيع، وأنا منطوٍ على نفسي كهيئة جنين في بطن أمه، كُنت في صندوق حديدي بارد، لا يمكنني أن أمد نفسي، المكان ضيق جدًّا، بابه تحت قدمي، مربع صغير يعبر به شعاعان من الضوء إثر ثقبين من فعل الرطوبة والقِدم، علت أصوات صرخات وآلام، الجميع لم يأخذ اللقاح، الجميع تغيَّب عن

جلسات الانصياع، الجميع أحس بآلامه لأنهم لم يتعاطوا جرعتهم اليوميَّة من الخداع:

أنقذونا.. أعطونا جرعتنا أرجوكم.. أين أنتم..؟! نريد الكذب..

لم تكفَّ تلك الصرخات عن الزعق، صوتهم مفزع وما يقولونه أشد فزعًا، كان الصندوق الصغير الذي أسكنه هو زنزانتي البيضاء الفسيحة، أرضيته عبارة عن مرتبة رفيعة مُسخة، أنام عليها مُقرفصًا، عظامي تخشبت من شدَّة ضيق المكان، صُمم الصندوق خصيصًا هكذا لاستقبال أكبر عدد من المعتقلين في محجر ديجور، صناديق متراصة بجانب بعضها وفوق بعضها، كخلية نحل كبيرة، كُنت أعرف مُسبقًا أن كل ما أراه وهمٌ، ولكنني لم أكن أتوقع أن تخدعني حواسي كُل هذا الخداع، أن تضعني حواسي في الجنة وأنا أصلًا في قعر سقر..!

حاولت أن أرفص الباب المربع بقدمي، أطلقت صرخة أحسب أنها وصلت القاهرة، قدمي اليمنى بها التواء، تؤلمني عند الحركة، تلك الدفعة عصرت عضلات قدمي على عظامها عصرًا، لم أكن أعلم بإصابتي، لم أكن أشعر بها، رؤيتي تنعدم، تمنَّيت أن أفقد الوعي من ألم قدمي.

دفعتها باليسرى، خبطتها مرَّة، وفي الثانية فُتحت، كان بابًا هشًّا، وما أن فُتح، تسارعت أطرافي للزحف خارج الصندوق،

إعتقدت أنه الخلاص، وأن الثورة جرفت كل شيء وهرب جميع الحراس ولذلك لم يعطونا جرعات اللقاح.

تفاجأت بالضابط ذي النياشين المذّهبة يقف على باب الصندوق ويجذبني من قدمي الملتوية، وأنا أحفر أظافري في الصندوق الحديد حتى نُزعت أظافري من يدي، وصرخت آلاً، أصبح فوقي، فهوى بعصا على رأسي زاعقًا:

ثوّار كفّار أولاد كلب..!

وذهبت أنا كما أذهب، إلى بواطن اللاشيء...حيث الراحة.

***

ثلاث رقع ورقيّة تحمل رقم «١٩»، وذكر فيهن خالد وصف زنزانته الوهمية ثم الواقعية، وذكر ما حدث في ديجور وقت انتفاضة الغضب، ووضح كيف تلهّت الحكومة في صد الانتفاضة حتى أهملوا إجراء جلسات الانصياع لمعتقلي ديجور.

«٣»

الأمل مُسكن الأيام، وربما كان ذنبًا أن نُسكّن الأيام فننجرف مع مرورها إلى بركة من الخطايا والأوجاع، الوثوق بالأيام بعد تحذيرنا هو الخطيئة الكبرى، أشرق أمل من بين ثقوب الزمن مُنذ حملت داليا، إنحدرت بي الأيام نحو طور الوثوق بعد طور الحذر، زهت الدنيا وعادت إليها ألوانها، وثقت بها.

صباحات القاهرة لا تشبه الصبح، تلصّقت الشمس في مكانها كزينة ورقيّة في مسرحيّة هزليّة كبيرة، سئم ممثلوها من أداء أدوارهم مرغمين ومجبرين.. صرت أتغيب كثيرًا عن المنزل لظروف عملي، أوّد أن أنتهي من غرفة القفز قبل إستفاء مدة أبحاثي، إنهمكت في العمل حتى نبهني الـTBF لكاملة من صوت أنثوي رقيق، لست متأكدًا من كونه آدميًا أم آليًا:

صباح الخير يا فندم.. اسمح لي أن آخذ من وقتك أقل من دقيقة.. الآن ولأول مرّة في مصر.. ذكاء اصطناعي يعرض السجل الجنائي لكل من يتعاملون معك في مجال العمل وأي مجال رسمي.. فقط بـ ٢٠٠٠ بيتكوين.. تقدر تقسّط المبلغ

على دفعتين.. ولعملائنا السابقين عرض خاص..احصل على البرنامج مع تحديث الذكاء إلى الجيل التاسع بـ ٢٥٠٠ بيتكوين فقط.. يُمكنك تسـ..

فصلت الخط، الصوت رقيق وساحر، وغالبًا ما يشترك في تصميمه علماء نفس يعلمون تأثير تلك النبرة على العميل، نزعت السماعة من أذني اليمنى، وضعتها على أحد المكاتب البعيدة في المعمل.. قلت آمرًا:

فعِّل وضع الصمت.

وقفت على أطراف أناملي أعلق لوحة معدنيَّة مصقولة على باب غرفة القفز، منحوت عليها بالليزر:

CATION[٧]

Do not operate this room unless all interlocks and operation functions are right.

إنتهيت أخيرًا من البنية الهندسيَّة للغرفة، تم الانتهاء منها كهربيًّا وإلكترونيًّا، أنهيت أيضًا تصميمها الخارجي المبدئي، أبقيت المعادلات الفيزيائية الصحيحة حتى أصل للهدف المرجو منها، السفر عبر الأكوان مع ضمان سلامة الأجساد العضوية، تظل غير آمنة للتجربة دون المعادلة الجامعة، لا أعلم ما يمكن أن يحدث لو دخل أحدهم إلى هناك وضغط على زر التشغيل الأحمر

٧- تنبيه: لا تُشغل الغرفة إلا بعد التأكد من سلامة جميع العمليات والوظائف.

الموجود بالداخل وراء الباب، ربما يتفتت إلى تراب فورًا، وربما لن يُرى له تراب أصلًا، ربما يتفتت جسده ويتوزع على الأكوان والمجرات...!

صحيح أنني لم أنته ولكني سعدتُ باكتمال بنية الغرفة.. أنجزت شيئًا.

أحضرت الـTBF من على المكتب، وضعت السماعة في أذني، أخبرني الـTBF بأني تلقيت «١١» اتصالًا صوتيًا من داليا.

رقم واحد مكرر مرتين.

فكَّرت في أنها ستذكرني بحضور جنازة والد صديقتها المسيحية في الكنيسة «البطريركيَّة»، أو ستطلب مني تحويل عدد من البيتكوين لجلب مستلزمات المنزل.

هاتفتها مرَّة.. ثم مرتين.. لا ترد.

خرجتُ من المعمل، وما إن خرجت حتى وجدته أمامي بوجهه المفلطح، توفيق، لم أنظر له، افتعلت نظرات لبعض الأوراق في يدي، خلفه يمر طالب بنظارة سميكة وشعر «كيرلي» كثيف.. يحمل ملف عليه رقم «٥٥»..خمسة مكررة مرتين..

- «ما الأخبار يا دكتور..؟ سلَّمت الراية..؟»

يبتسم بسماجة.

أكمل:

- «كف عن المحاولة.. البلد تحتاج هذه الأموال».

- «مساء الخير يا دكتور توفيق.. مع السلامة».

تركته وذهبت وقد ثلّث شفته السفلية في سخرية، وقال بصوتٍ عال وأنا في آخر الردهة:

- «وعليكم من السلام ورحمة ربك يا..! يا دكتور..!»

لم ألتفت له.

خرجت من الجامعة.

توقفت كثيرًا لزحام مروري معتاد، أطلب داليا ولا ترد.

وصلت المنزل، تلقفت حارس العقار.

- «عم علي.. داليا فوق..؟!»

- «آه يا دكتور فوق.. خير.. هناك شيء..؟!»

- «شكرًا يا عم علي.. لا.. سلمت».

صعدت السُّلم بخطوات حصان سريعة، طرقت الباب، لم تستجب، دخلت بعد وضع المفتاح في الباب وقراءة الماسح لبصمة عيني، ناديت بصوت عالٍ:

داليا.. لقد أتيت.. كان يومًا شاقًّا.. داليا حبيبتي.. لقد أنهيت بنية الغرفة.. استعدِ لحفلة عشاء في أجمل مكان في مصر.

دلفت إلى غرفة النوم، قميصها الكريمي مُلقي على السرير، تتدلى حمالاته من على الحافة، رواية «ألم تقطف الزُّمان» تحتضن الوسادة، والدولاب مفتوح كما لو عبثت به داليا ثم نسيت إغلاقه لانشغالها.

إتجهت خطواتي نحو المطبخ، السخَّان يصفر بغليان الماء، تبَّخر معظمه، يصدر نشيشًا ويبقبق، حبيبتي.. داليا.

وجدت الحمام مضاء، عرفت أنها بالداخل، تنهدت:

بنية الغرفة اكتملت.. لم يبقى غير العثور على بقايا أشلاء تلك المعادلة العاهرة يا حبيبتي.

لا أسمع لها حسًّا بعد.

دفعت باب الحمام الذي كان بالأصل مواربًا.. وجدتها مغشيًا عليها.. جالسة على الأرضيَّة.. تستند بظهرها إلى الحائط.. دفقات من الدماء تسيل من بين فخذيها.. تخدرت قدماي.. ركعت على الأرض.. شعرت بحرَّة في حلقي وفروة رأسي.

أخبرني استقبال المشفى بعد ذلك أني حملتها بين ذراعيَّ صارخًا النجدة، حتى كاد إستقبال المشفى يعتقدون بأننا مصابان في حادث سير، من غزارة الدماء على ملابسها وملابسي.

***

- فصلٌ ثالث عشر -

«١»

لم يكن المستشار آشر يريني إياه، بل يريه إياي.

نظر إليه والنظرة الشامتة تلوح بين عينيه، يكتم خوار ضحكته السمجة بيده، وقفت أمام «غرفة الانصياع» لأول مرَّة وبجانبي شبيه ماجد، مطيعًا، كنَّا في فم الباب، قال المستشار آشر:

ادخل يا خالد. ما لك متسمِّرًا؟.. ادخل يا رجل.. الحبايب كلها هُنا.

الغرفة لا تحوي شيئًا غير كرسيّ كبير مائل للخلف ككراسي أطباء الأسنان.. حوله أجهزة كثيرة ومخيفة.. الكرسي يبدو وكأنه من صنع الشيطان.. شيءٌ لا أعرف ماهيته إلى الآن.. شيء لا يصنعه بني آدم.. يحيط به سواعد وميكانزمات شبه آلية، تعمل كأيادٍ، في أطرافها إبر، أربعة أو خمسة سواعد تحمل إبر حقن،

أفزعتني بمجرد رؤيتها، يجلس على الكرسيّ أحدهم، لا يتحرك.. بدا فاقد الوعي.. على وجهه غبشة مظلمة لم تمكنني من رؤيته وأنا في فم الباب.

يقابل الكرسي مرآة كبيرة تُغطي الحائط، وهي المرآة الوحيدة في الغرفة، عليها بكرة ملفوفة بعرض الحائط لقماش، يبدو أنه يعمل كشاشة عرض حين يُمد، النداءات الخارجية لا تتوقف عن الصدح بالمذياع:

يحيا همَّاسنا الأعلى.. تحيا جمهوريتنا العظيمة.

تتكرر وتتكرر مرَّة تلو الأخرى.

رآني المستشار مُتيبِّسًا في مكاني، دعاني ثانيةً للدخول ولم أتحرك خطوة، أتى إليَّ وجذبني من ذراعي وعيناه موجهتان نحو الجليس مُنكس الرأس على الكرسي الشيطاني، أخذت الإضاءة تتبادل بين الخفوت والسطوع مضفية رعبًا فوق الرعب، رفع جليس الكرسي رأسه إلى النور.. ما زالت الأشعة تخفت وتسطع على وجهه مشوَّشة ببصري، تمنعني عن تمييز ملامحه.. حبست أنفاسي وتذبذبت ركبتاي.. رأيت نظرة من الصدمة والحسرة على عينيه الناظرة إليَّ.. بين ملامحه علامات الهزيمة والكسرة.

نعم لقد كان هو..!

لقد كان أنا..!

لقد كان شبيهي..!

أمر الحرّاس بأخذه إلى زنزانته، حملوه من ذراعيه، التفت إليّ وهو يُجر، حدجني بنظرة يائسة.

ثبتني «مطيع» مكانه على ذلك الكرسيّ، شرع في خطوات تقييدي.

- «هل علمت الآن.. لم أنت كنز يا خالد..؟! أظنك علمت».

كُنت أتنهد بضراوة، أنفاسي تتسابق مع بعضها نحو الخروج والدخول، ما زلت إلى الآن تحت وطأة الصدمة، تشابكت كافة الخيوط، فكّرت في أنه من المؤكد، بأن قوله إنني كنز، له علاقة بشبيهي هذا، قال المستشار كأنما يفكر بصوت عال:

- «لا أعلم ما إذا كُنت تنتمي إلى هؤلاء الكفار أم لا.. والحقيقة لا أعرف كيف صنعوا لك هذا الشبه العجيب..! قد تكون توأمه مثلا..؟! ولكن كيف لم يدخل جسدك أي لقاح قط..؟! هل تخططون لذلك مُنذ عقود..؟! لا لا هذا مستبعد.. هذا الشعب لا يمكن أن يصل إلى هذا التفكير.. حتى المعارضة نفسها لن تفكر في ذلك..».

كان يفكر بصوت عالٍ ذاهبًا وغاديًا، يستفزني ويضرب على أوتار أعصابي أكثر فأكثر.

قُيدت... رأسي منبطحة للخلف ومثبتة من جبهتي بالكرسي، نفس الأمر على صدري وذراعاي وقدماي، أكمل:

- «الغريب أن أجهزة الكذب لم تسجل لك كذبة واحدة غير قولك إنك تحب الجمهوريَّة.. وهذه وحدها جريمة أخرى يا خالد.. هل تعرف ما عقوبة أن تكره جمهوريَّة النِّعام..؟»

maktabbah.blogspot.com

لقد علم وقتها أنني أكذب..! ما كان عليَّ أن أكذب على شخص يحترف الكذب..!

- «على كل حال.. هُناك احتمالان: الأول هو أنك تكون على حق.. وأنت كما تقول لست من الجمهوريَّة من الأساس.. وهُنا سأتغاضى قليلًا عن ذلك الشبه الغريب وسأعتبره صدفة.. الاحتمال الثاني أنك تكون مدربًا على مستوى عالٍ جدًّا».

بعد قهقهة قصيرة أكمل هامسًا في أذني:

- «وفي كلتا الحالتين.. أنت كنز يا خالد.. أنت نعمة من الرَّب».

سكت لوهلة ثم أكمل:

- «أعرف على أكثر مكان أرتاح فيه.. غُرف الانصياع.. حضن الجمهوريَّة للمتمردين عليها.. المكان الذي نعود فيه جميعًا إلى كنف جمهوريتنا العظيمة إذا شككنا أو كفرنا بمعتقداتها».

قاطعته وأنا أطلق زفيرًا في ذيل زفير:

- «سيدي.. لا شأن لي بكل هذا.. أنا لست من هنا..!»

- «وبعدين يا خالد؟ سواء أكان لك علاقة أم لا.. أنت هدية سماوية لا يمكننا رفضها».

زعقت:

- «أي هدية..؟! لا أملك لكم أي شيء! لا أستطيع مساعدتكم..!»

ابتسم:

- «لا تقل ذلك.. ألا تحب أن تساعد الجمهورية..؟! ألا ترى أن تنال ذلك الشرف..؟ صدقني ستناله رغمًا عنك.. تعمدت أن آتي بك وهو هنا.. سأعتبر أنك لا تعرفه.. هذا هو قائد الأندروبست.. يدعونه «زائد».. قبضنا عليه منذ أيام.. اعتقدنا وقتها أننا انتصرنا.. قُلنا سنجري عليه بعد الجلسات لنعيده إلى كنف الجمهورية.. وبعدها يلقي خطابًا على الشعب يعترف له بالهزيمة ويرجعهم إلى صوابهم. ولكننا للأسف وجدنا أن لديه جدرانًا دفاعيَّة عقليَّة.. بناها على مدار سنوات من التدريب ضد الزيف والوهم.. ولكن مع الوقت وتكرار الجلسات سيرجع حتمًا إلينا.. ولكننا لا نملك الوقت.. الشعب يخرج عن سيطرتنا. ضاق بنا الحال واعتقدنا في هزيمة جمهوريتنا...».

تنهد مُبتسمًا:

- «إلى أن أتيت أنت.. سيسطر اسمك في تاريخ الجمهورية يا خالد».

صحت:

- «لا أفهم..!!»

قال متحمسًا:

- «أنت من ستقوم بدور قائدهم يا خالد.. ستقول مباشرة على الهواء خطابًا تعلن فيه هزيمة الثورة وتطلب من الأندروبست والشعب الفائر العودة إلى البيوت.. ومن أجل ضمان أنك ستفعلها.. سنجعلك تصدق أنك قائدهم حقًا.. سنجعلك هو».

أسمع صوت أقدام بالخارج...

سأتوقف عن الكتابة وسأكمل غدًا..

إن كان هناك غد...

***

ثلاث رقع ورقيَّة تحمل رقم «٢٠»، وذكر فيهن خالد مقابلته لـ«زائد» قائد الأندروبست، وذكر أيضًا إعلامه بأنه سيقوم بدوره كذبًا لإجهاض الثورة، الرقعة الأخيرة من تلك الدفعة فارغة، غير مكتملة.

«٢»

قال بنبرة واثقة:

- «العقل يا خالد تركيبة في غاية التعقيد.. تعقيده المقلق هذا ظل يشغل عقول علمائنا قرونًا وراء قرون.. كلما ظل العقل معقد سيبقى يدفعنا إلى أفعال تؤذينا بدواع لا معنى لها مثل الحب والحرية والحقيقة والفضول.. دون وعي نؤذي أنفسنا بأنفسنا».

أكمل مبتسمًا وناظرًا نحو عيني برمش لا يهتز:

- «علماؤنا وجدوا الحل في هذه الغرفة.. غرفة الانصياع».

ظل يتحدث وينحدث وأنا مُحملق في السقف المطلي بالأبيض.. أسمع كلماته وتتابع صور شخوص من ماضي فائت لا يرجع.. داليا.. أبي.. أمي.. لقد خذلتهم جميعًا.. تركتهم جميعًا.. لم أكن نعم الزوج ولا نعم الابن.. فكَّرت في أنني تنازلت عن كل شيء في سبيل غرفة القفز، في حين أني كُنت، وبدون علم، أخطط لأعوام لملاك من نوع فريد.

- «كانت المشكلة هو أننا لا نعرف مكان تواجد الذكريات في المخ.. أي ذكرى هنا وأي ذكرى هناك..؟ كيف نمحو ذكرى ونضع غيرها بدون أن نعرف مكانها..؟»

إبتسم كاشفًا عن نابيه:

- «هذا ما تفعله البؤرة الصغيرة الموجهة إليك».

وجَّه سبابته لعدسة صغيرة مُعلقة أمام عيني ومشى خطوات لجهاز التحكم.. ضغط زرًا فأضاء البؤرة بضوء حاد.. ليزر أخضر.. موجه نحو عيني مباشرة.. يحرق جفوني.. ويلهب البقعة التي ينزل عليها.. هززت رأسي يمينًا ويسارًا صارخًا من الألم.

أطفأه وأكمل:

- «الضوء الأخضر يوجه إلى عينك اليمنى فترة ثم اليسرى فترة.. ألمه يجعلك تستعيد ذكرى غالبًا ما تكون حزينة.. مع إفرازات دماغك الخاصة بالحزن.. تتلون كل الخلايا التي تحمل الذكريات السيئة باللون الأخضر.. ونصبح الآن على علم بـ أين توجد ذكرياتك السيئة عن طريق تلك الحساسات الموصلة بدماغك.. هذه هي المرحلة الأولى.. المرحلة الثانية هي استثارة هذه الخلايا عندما نريد إدخال ذكرى سيئة إلى دماغك.. فنقحم ذكرياتنا المصطنعة بين الحقيقيَّة.. ومع التكرار والطرق على الأذان.. تتغلب المصطنعة وتذهب الأصلية إلى العدم.. ونفس

الأمر بالنسبة للذكرى السعيدة.. لأننا بالفعل حددنا الذكريات الحزينة.. فالبديهي أن تكون البقيَّة هي السعيدة».

همهم:

- «أحب أن أتفاخر بما نفعله.. أنظر إلى هذه التحفة الفنية».

maktabbah.blogspot.com

كان يقولها بنشوة بينما يمسح الكرسي الشيطاني بأنامله.

لو كان كرسيّ الانصياع عرشًا.. لكان عرشًا لإبليس..

الكرسي مزوَّد بأربع إبر: الأولى: إبرة اللقاح الوطني.. الثانية إبرة موجهة إلى أسفل حلمة الأذن لتقوية السمع.. الثالثة: إبرة تخدير، تجمِّد كل الأطراف ما عدا حاسة السمع والبصر.. الرابعة إبرة تحمل إفرازات دماغيَّة مساعدة خاصة بالحزن أو السعادة.

مزوَّد أيضًا بأنبوب تقطير، يقطر سائلًا مُنتقحًا لقرنيَّة العين وملاقط لشد الجفون حتى لا تغلق، بريدون الجليس أن يسمع بشدة ووضوح كل ما يُتلى عليه، يرى بنقاء كل ما يرسمونه.

ذهب نحو شاشة التحكم.. تحركت أجزاء إبرة التخدير من مكانها لتقذف سائلها في عنقي، أحسست بذهاب سواد عيني من شدَّة الصرع.. وما إن خرجت الإبرة حتى حُقنت بإبرة السمع، أحسست بأذني تنزف دمًا، تحركت الثالثة في رقبتي، كانت اللقاح الوطني، وأخيرًا إبرة التخدير، سار الخدر في خلاياي.. شُلَّت أجزائي تمامًا.. لا أملك فعل شيء.. لا أملك النبس حتى بكلمة.. أشاهد المستشار أمامي مبتسمًا.. يضع

الملاقط على جفوني ويفتحها.. ثم ينحني الكرسي إلى الوراء قليلًا وتقطر القطَّارة السائل في عيني بغزارة والليزر الأخضر موجه نحو عيني اللتين تدمعان.. حتى وإن اختلطت الدموع بالسائل المقطر، لم يمنعني ذلك من معرفة أنني أبكي.. أبكي بغزارة..

كُنت أسمع كل حسيسة.. الصوت العالي كاد أن يفتت دماغي..

لا أستطيع الحراك.. لو كانت هُناك نملة تدب على الأرض لسمعت صدى خطواتها كما سمعه سليمان.. لا أملك الصراخ..

ذهبت أحلامي إلى ما وراء العوالم.. تكاتف الكون مع أزمانه لمحوها محوًا.. تكالبت عليَّ الحياة هُنا وهُناك.. الضوء الأخضر حارق وساطع.. أشعر به يخرق جمجمتي ويحرق سطوح مخي..

جسدي يهتز هزَّ الصرعى.. لا أشعر إلا بالألم.. المخدر يوقف أطرافي عن العمل فقط.. يضمر أعصابي.. لا يُسكِّنها.. تمنيت أن تكون النهاية.. تمنيتها حقًا.. تمنيت الموت الجميل من كل قلبي..

ذلك العازف المظلوم في كل زمان ومكان.. الموت الجميل المحب للغناء.. الموت ذا اللكنات الكثيرة والعديدة.. أكان من سوء الأدب أن نقول بقبح الموت عبر كل الأزمنة..؟! لا يمتلك الموت حنجرة سيئة بالمطلق إن كان يمكث على أرض العتاة والقتلة..

الموت رحمة للمستضعفين وعدل للظالمين.. وقتها ذهب بي عقلي إلى مالا عين أرضية رأت.. إلى يوم مولدي.. المستشفى الدولي بالقاهرة الشاهد على نقطة البداية.

تُجيز لي الحياة القول بأن لي بدايتين، الأولى يوم ولدت.. والثانية حين تخطيت حاجز عالمي وقفزت إلى جمهورية النَّعام.. ولعل كل ما حدث هو نتاج واقع بدايتي الأولى.. بسببها اليوم أنظر إلى نفسي في المرآة فتتوه عني.

أُفتش في إجلال الماضي ولا أجد ما يعبر عن ذاتي، كسترة وحيدةٍ في دُولاب.. أو أرجوحة صدئة بباحة واسعة يضربُها الريحُ والترابُ من كل مكان.. اليوم يضخون الأكاذيب بعروقي.. وتُضرم البرودة في جسدي.. فأنسى كل دهشةٍ كانت.. كل خيبة كانت.. كل معنًى كان.. اليوم يلوح لي في الانتحار روح من الأمل.. لم أعُد أزدري شيئًا قدر ازدرائي يوم مولدي.. أثناء خُروجي من «البوابة المُقدسة» والبرُودة تلتهمُ رأسي الصغير التهامًا بطيئًا.. يوم أُجبرت بلا خيار آخر على المجيء إلى هذه الحياة.. التشريفة المُعتبرة.. والقرارات المُتضاربة، ثُنائيَّة الخروج والرفض.. ما بين بردٍ وشعورٍ لم أحسهُ من قبل.. ودفء داخل رحم أمي سئمت منه ومَللتُ مذاقه.. أبعد ما أراه رجلًا يضع وشاحًا صغيرًا على فمهِ الكبير، يفتح لي ذراعيه ويضحك بسخافة «شاويش أبله».. كأنه لا يرى أمامه طفلًا صغيرًا يُعصر .. إنه اليوم الأول في مُعتقل أشد المَخلوقات ذنبًا.. إنه يوم مولدي.. يوم نبض القلبُ نبضته الأولى خارج رحم أمي.. التفاوُض ليس خيارًا.. ولا مكان يُذكر أُرسل فيه الطَّلبات والمُذكرات إلى المسئول كي لا آتي.. لم يكن بإمكاني الدُّعاء حتى وأنا داخل أمي.. الإجابة دائمًا.. لا راد

لقضائه.. وتحت الإضاءة المُؤذية شيمة كل شيء.. حَتَّمَ عليَّ القَدر لأسبابٍ لم أُدركها أن أخوض معركة حياتي الخاسرة.. لأهجُر بعدها عالمًا أحمق.. وآتي بعد ما يقرب من الثلاثين عامًا إلى عالم أكثر حماقة من الذي وِلدت فيه.. عالم آخر مثله مثل الأول لا يحمل أبسط معاني الإنسانيَّة.. عَالم اتفق فيه الجميع على نبذ الحقيقة فنبذتهم الحقيقة.. عالم رفض فيه الجميع الحياة فرفضتهم بدورها الحياة.. تقلبت ذكرياتي وذهبت حين رأيت أبي من جديد يصرخ:

لا تأت بقاتل جديد يا خالد.

كان يبتعد.. ينظر إليَّ هو وماجد ويبتعد.. كأن الوجود يبتلعه..

لا تأت بقاتل جديد.

لا أشعر بالزمن كيف يسير.. أين الماضي وأين الحاضر..؟ أي منهما يسبق الآخر..؟ أرى تلك الليلة.. الحبوب المبعثرة على الأرض.. رأيت نفسي أصرخ وأبكي.. تقلَّبت الرؤية.. أجلس أمام الشاشة الهلاميَّة أحدث والد داليا.. أبكي.. أحسست بالتقطير يخف.. والليزر الأخضر ينقشع عن عيني.. عدت إلى الواقع تدريجيًا.. أمامي كتبة أو ملائكة.. يرتدون الأبيض.. حليقو الرأس.. أحدهم يمسك قلمًا وأوراقًا بيضاء.. يؤلف شيئًا.. والآخر يرسم لوحة مرتكزة على سواعد خشبية.. نهض الرسَّام باللوحة ووضعها أمام عيني لأنظر لها وعيناي مثبتتان بالملاقط.. اللوحة مرسوم بها أنا بينها أقتل أحدًا بحجر..!

كنا عرايا وسط البراري والطبيعة الخضراء.. الصورة ذكرتني بحادثة قابيل وهابيل.. الخير والشر.. كنت أنا الشر.. كنت أنا قابيل.. وكان الغراب ينتظر لحظة القتل التي قدرها له الإله..

أبعد الرسام اللوحة من أمامي ووضعها على العاكس الضوئي لتُعرض على شاشة العرض القماشيّة أمام المرآة.. أخذ الكاتب يتلو ما ألفه.. صوته عالٍ وواضح بفعل حقنة الأذن:

أنا اسمي زائد الحق إبراهيم.. قائد الأندرويست.. ولدت لأب وأم كافرين بتعاليم الجمهوريّة.. عشنا منعزلين عن العالم نخطط لهدم دولتنا العظيمة.

يكررها مرة وراء مرة.. لقد كانوا يعبثون بعقلي.. أتدحرج من جديد إلى داخل دماغي.. شوّشت أفكاري.. ذلك الصباح الشاطئيّ.. عندما كنت مع أمي وخطيبها..

دع الجرح يلتئم يا زائد.. حاضر يا ماما.

لقد نادتني أمي بـ«زائد» وأنا لست بـ«زائد».. أو أفترض أنني لست بـ«زائد».. لا أعرف.. إنهم يعبثون بدماغي.. كل جلسة أشوش أكثر فأكثر.. يقول لي المستشار إن عقلي مقاوم جيد، ولكنه على الأرجح لن يتبقى لي إلا أيام وأتساقط في أحضان الجمهوريّة.

دماغي تأخذني بسهولة، تعصف ريح عاتية بكومة تراب، تنشره حيث تتجه، تُرسل بي إلى ذكرى لا أعلم ماهيتها، لا أستطيع التأكد من كونها حدثت أم لا، كُنت أتسكع مع «آشر» و«كذيب»

صديقاي في أحد ضواحي الجمهوريّة.. كُنّا في سفح جبل شاهق.. نقفز ونلعب بين الصخور.. آشر شاب يافع.. بينما كُنت أنا وكذيب ما زلنا في ريعان الصبى.. كذيب هو الأخ الأصغر لآشر.. لم يكن حينها آشر قد التحق بقوّات الحكومة بعد.. كان مواطنًا عاديًا من أسرة عادية تتجرع الكذب يوميًا.. وكُان يبدو من تسكعنا الممتع أننا صديقان حميان.. قذفني كذيب بحجر فاصطدم بي صدمة خفيفة.. كان يمزح.. جريت وراءه بعدما انتشلت حجرًا من بين الصخور وآشر ينظر إلينا بلا حراك.. قذفته مازحًا فاستقر الحجر في مؤخرة رأسه.. لا أعلم ماذا حدث.. كان الحجر حادًا كفاية ليخترق دماغه ويستقر بها.. لقد خرَّ ميتًا!.. صرخ آشر من هوْل الصدمة:

ماذا فعلت يا زائد؟!!

أدفع كذيب بيدي.. أرجّ جسده أملًا في أنه قد يكون يعبث معي.. ولكن الدماء لا تكذب.. لقد قتلته.. جري آشر بعيدًا بطلب النجدة.. وبينما إختفى عن ناظريّ.. هربت طفلًا مذعورًا إلى أقاصي الجمهوريّة معتزلًا الناس.

هربت أنا.. أو هرب زائد.. لا أعلم..

***

أربع رقع ورقيّة تحمل رقم «٢١»، وفيها جلسة الانصياع الأولى لخالد.

«٣»

لبد اليأس على الوجوه، وقُدت السيارة إلى بيت هُدَّ بسقوط حمل داليا، تجلس بجانبي مكفهرة، ساهمة في تلك الطرق التي تضاء ليلًا باللون الأصفر الكئيب، تهيم بالعالم الذي يركض إلى الوراء، تنشَّفت دموعها بكاءً، لا تريد حتى أن تنظر إليَّ، وأنا بدوري أخشى النظر إليها. ربما كان سيكون لديَّ طفلة لو وضعت ساعة الأذن أثناء العمل، يا لدقة القدر المتناهي! ربما كان بإمكاني، عبر إنتباهٍ أكثر قليلًا، أن أصلح كُلَّ ما مررت به بعد تلك الحادثة. لو كان بإمكاني الرجوع إلى الماضي لزهدت في أي مجد مكتفيًا بقلب داليا الذي تهشم بلا رجعة.

لا .. لن يعود كل شيء إلى الوراء.. سنتقدم ونتقدم نحو مفرمة الأيام التي لا ترحم.

«لماذا تذهب الأشياء إلى الخلف وتتركنا يا أبي؟!».

«نحن نذهب دائمًا إلى ما نريده وليس ما تريده الأشياء يا خالد».

تمنيتُ لو كُنت وحدي، فأكبس على أنفاس دواسة البنزين بما تبقى من قواي التي خارت، حتى ينتهي الأمر برمته، كل شيء يهون إلا رؤية داليا وبين ناظريها اللوم على موت أملنا في الحياة، ساد الصمت طويلًا فمزَّق ما تبقى مني، يُمزِّع روحي، يقتلني، أريدها أن تقول أي كلمة، لتلتقِ اللوم عليَّ وتكسر ذلك الصمت الخانق.

دارت الدقائق ساعات وأنا أتنفس شيئًا آخر غير الهواء، أتنفس سمًّا، أتنفس فشلي وضياع داليا وابنتي، جلست وحيدة تحتضن ألبوم صور «ذات الدين» في وقتٍ متأخرٍ من الليل، تجلس كالتمثال بلا حراك على طاولة الطعام، تُحملق في أي تجاه إلا تجاهي، تزوي ما بين عينيها.. قُلت بعدما سحبت كرسيًا وجلست أمامها:

– «أعرف أنه لا يوجد شيء يعوض فقدها.. ولكن هذه إرادة الله»..

صامتة.. أبكي:

«سامحيني يا داليا.. أرجوكِ.. لو كُنتِ تحتاجين راحة مني.. أفعلي ذلك.. لكن أرجوكِ لا تتركيني.. ليس من بعدك حياة..».

– «أنت لم تكن موجودًا يا خالد. احتجتك ولا أجدك..».

– «ما حدث مُقدر.. لقد كانت مصادفة..!»

- «لا تقل مصادفة ولا تلقِ كل شيء على القدر.. أنت لم تحبني يومًا يا خالد..».

- «ماذا..؟ كيف لا أحبك..؟ هل نسيتِ أيامنا؟! أنا أحبك».

- «نعم أنت تحبني.. ولكنك تحب نفسك وعملك أكثر مني، لا أريد العيش معك.. هذه هي النهاية».

اِقتربت منها، احتضنتها.. زعقت:

- «اتركني.. لا تلمسني.. لا أريد أن أراك. ارحل.. ارحل..».

لم تسترق الأيام قلب داليا، وظل مُتفحمًا محروقًا على طفلة لم تأت، لم تستطع داليا تحمل فكرة أنها لن تحبل من جديد، هذا ما كان يخبئه لنا القدر بين خبايا الأيام، لا تخرج من غرفتها إلا تترنح للشرب، نائمة طوال الوقت، شفَّ وجهها ونحل عودها، لا يلتقي ناظرانا، ولا تنبس بكلمة واحدة بالأيام.

ذات ليل، سحبت أغراضها وهمَّت بالرحيل، استوقفتها:

-«أنا أحبك لا تفعلي بي ذلك».

زعقت باكية:

- «ارحل من أمامي.. أنا أكرهك.. أكرهك».

بكيت تحت قدميها:

- «سنبدأ من جديد.. ستتبنى طفلًا».

استلقت على كتفي بعدما خرَّت ركبتاها من شدة نحيبها.

رجعت عن قرارها مُشفقة عليَّ.

في ليلٍ آخر، بكت بحرقة وهي مستلقية على سريرها، ساكنة في حجرتها التي زخمت بالعطن:

- «لم يبعث الله لي إشارات من يومين.. خذني يا الله.. خذني».

بعد أسبوعين هدأ صدرها، وهمدت نارها، انكفأت على كتاباتها من جديد، صدر كتابها وحقق نجاحًا واسعًا، اِنشغلت بحفلات التوقيع ومتابعة آراء مُحبيها، ولكنها ما زالت ترفض أي تواصل بيني وبينها، نجح بالفعل كتابها الذي لم أقرأه حتى حينها، ومع نجاحه الكاسح، هبط وابل من الانتقاد اللاذع على العالم الجليل الذي كتبت زوجته أشياء عن الأرقام والروحيات وما وراء الطبيعة، ضاقت بي أركان الكون، ولم أجد إلا أبي الذي تعوَّدت الحديث معه قبل أن أعرف داليا.

انطلقت إلى العباسية، وسط القاهرة، أشق الطرق المُزدحمة، أسمع ضوضاء وتغمغم لأناسٍ يتعايشون الحياة، يركبون قطارًا ضالًا يحملهم إلى الهاوية.

وصلت إلى العباسيَّة، لا أعلم ماذا جاء بي إلى هُنا، لم أقصد مورستان العباسية، بل أقصد ذلك المرستان الكبير، الدنيا، فكَّرت لو أن بيد الجميع الخيار لرفض الكل الدخول إلى ذلك الاختبار، غنيها وفقيرها، عتيها ومظاليمها، الاختبار سخيف

على الكل، ولكنه يجب أن يكون سخيفًا، لا يوجد اختبار ليس سخيفًا، هكذا تكون الاختبارات.

قالت لي موظفة الاستقبال إن الزيارات للعزل ممنوعة، سألت على دكتور ماجد، آسفة لم يأتِ بعد، انتظرته في الاستقبال ما يقرب من الساعتين، أريد أن أرى أبي، أريد أن أحدثه وأفرغ ما بداخلي من قهر.

أتى ماجد، عانقني بود وابتسامة لم يجد مقابلها عندي، كُنت حزينًا متهجمًا.

- «ما بك يا خالد؟»

صمتُّ فأكمل:

- «لِمَ لم تأت إليَّ في العيادة..؟»

- «سأخبرك.. سأخبرك بكل شيء..».

أخبرته بالقصة كاملة وقال لي بعد تأسف:

- «زوجتك تحتاج إلى رعاية نفسية يا خالد.. حاول معها ثانيةً.. حالتها حسب ما تقول لي.. في غاية السوء».

- «سأحاول».

- «هل رأيت أباك..؟»

- «لا.. أنا منتظرك لتدخلني له.. الموظفة تقول إن الزيارات للعزل ممنوعة».

- «لِمَ لم تخبرها باسم والدك..؟ والدك خرج من العزل منذ أسبوع».

في أثناء السير فسَّر لي خروج أبي من العزل قائلًا:

- «لقد تحسنت حالته تدريجيًا منذ زيارتك الأخيرة.. كأنه كان يحتاج أن يراك.. كأنه افتعل الانتحار ليرى أحدًا يحبه بجانبه».

دخلت عنبرًا جماعيًا، معظمه لمسنين انتهت إقامتهم الفعلية في الحياة الخارجية.. لا يجدون مع أعمارهم مكانًا يمارس فيه الجنون غير ذلك العنبر.. جنونهم المتراكم عبر سنين وسنين يؤرق الحاكم والمحكوم، يؤرق أناسًا حايية بجانب الحائط.. الحائط الموشك على التداعي.. العنبر به المرأة والشيخ، الساهم والصامت والمهرج.. رجل مفتعل الشيب والجنون هربًا من مخالطة عقلاء الخارج.. وأبي الباحث عن الخلود والساعي نحو الانتحار في آن واحد.. أعقل المجانين يستند بظهره إلى الحائط الأبيض الداكن، قُسُر طلاء الحائط وشُقق من قبضة الزمن.

فؤجئ خالد!

عانقني كما لم يعانقني منذ زمن.. بكيت على كتفه بغزارة.. بكيت كطفل تنساب منه الدموع بكل سهولة.

– «ما بك يا بني..؟»

– «سقط حمل داليا».

ربت على ظهري ناظرًا إليَّ في أسف.. قصصت له كل ما حدث وما وصلت إليه حالة داليا، أحسست براحة لحديثي مع ماجد وراحة أكثر لحديثي مع أبي.

قال:

– «لا تدع الحزن يتملكك ويلهيك عن عملك.. هذه إرادة الله.. ستعلم بعد ذلك ما إرادته في ذلك».

– «ولكن.. داليا..؟»

– «داليا امرأة.. وأنت تعرف النساء.. دعها تأخذ وقتها.. اعذرها.. لقد ماتت فرصتها الوحيدة في أن يكون لها طفل».

أكمل:

– «أتعرف يا خالد؟ أنت كُنت ستموت أيضًا».

تعجبت:

– «متى..؟»

– «حين ولادتك.. أنت نزلت في دوَّاسة السيارة يا خالد».

ضحك وضحكت معه.

– «كيف..؟!»

– «كانت الثانية عشرة ليلًا حين أتى والدتك الطلق.. كانت الحرب مشتعلة.. إضاءات الشوارع معظمها مطفأة ومعظم المستشفيات أُغلقت وهرب أطباؤها إلى بيوتهم.. أخذت والدتك وانطلقت في الظلام أبحث عن مشفى يوجد بها أطباء.. وجدت المشفى الدولي قائمًا على العمل.. مُنارًا.. ما إن توقفت أمامه حتى خرجت رأسك من رحم أمك وسالت السوائل في دواسة السيارة.. كدت أن تموت أنت وأمك.. اختنقت ووجهها قلب على الأزرق.. ولكن شاء القدر أن يسعفوك أنت وهي وتدخل غرفة العمليات وتخرج أنت للحياة.. لقد جئت إلى هُنا بأعجوبة».

– «غريبة.. لم لم تخبروني بتلك القصة..؟»

– «لا أعلم.. قد يكون السبب انشغالنا عنك بمشاكلنا معظم الوقت..؟»

– «ماذا حدث بعد ذلك..؟»

– «لا شيء.. المصالح الحكومية كانت مغلقة لأيام الحرب.. لم نتمكن من تسجيلك حتى فُتحت.. سجلناك بعد..».

أمسك جبهته يتذكر.

– «نعم.. سجلنا اسمك بعد ٢٢ يومًا».

اثنان مكررة مرتين.

- «٢٢ يومًا..!»

أكملت:

- «يعني أن يوم مولدي هو.. ٣/ ٣ وليس ٢٥/ ٣..؟!»

ثلاثة مكررة مرتين.

- «نعم كان كذلك».

دارت الدوائر، كشَّرت الموجودات عن أنيابٍ مصفحة، ضرب الصدع دماغي، كل تلك الصدف من المتشابهات أكثر من محض صدف، هذه الأرقام لازمتني قبل معرفة داليا، لازمتني منذ ولدت، شعرت بدوار، غثيت نفسي، كل ما حولي يغمغم، وصلتني رسالة من الـTBF، أعطيت أذنًا له بقراءة الرسالة:

مثلما ماتت وأنت منشغل بالخارج.. ستموت وأنت منشغل بالخارج.. لا أستطيع التعايش مع فقدها.. ساعني يا خالد.. لقد تركت لك مخرجًا من طريقك الضال.. أبي يزعق: خالد.. خالد.. ما بك..؟! هممت بالنهوض موجهًا قدماي نحو الباب.

لم أرد عليه.. الدوار يتملكني.

ظهر ماجد على الباب يعترض طريقي.. أدفعه.. بدت دفعتي قوية.

أركض نحو الباب الذي يهتز.. ركبت السيارة واضعًا المفتاح في مكانه بصعوبة.. أطلبها ولا ترد.. أطحن دوَّاسة البنزين.. أقود

بسرعة شديدة.. أتفادى السيارات.. أهادن الموت.. أقاوم الفقد الذي بات قريبًا.. وصلت البيت.. المفتاح يتلعثم في يدي.. عيني ترتعش أمام الماسح.. وجدت نفسي في غرفتها.. علبة المهدئ مرميَّة على الأرض.. يتبعثر منها حبتان.. رائحة الموت تملأ الغرفة.. داليا مستلقية بلا حراك على سريرنا.. حملتها بين ذراعيَّ باكيًا.. أنحب.. أنحب بشدة.

***

- فصلٌ رابع عشر -

«١»

اللعنة على الفقد. تاهت الشمس، لم تصعد من يومها حتى الآن، الأمطار الهاطلة حزينة، انهلال غزير وكئيب، ركعت على ركبتاي، بكيت على قبرها كما لم أبك من قبل، صرخت، أصرخ، سأصرخ، بحَّ صوتي، القطرات تهطل حتى بلَّت البذلة السوداء، يد أمي تربت على كتفي، تحتمي تحت مظلة مدوَّرة، تلطخت ساقاي بالطين، لا أستطع التحمل، رحلت، لا أحد سيشعر بما أشعر به، لا أحد يعي هول ضياعي.

اللعنة على الفقد، لم أتلقَّ عزاها، أغلقت كل وسيلة اتصال تربطني بالعالم الخارجي، إعتزلتني هي فاعتزلت العالم، لزمت البيت، إنسحبت من المسرحية التي طالما عانيت من الانخراط فيها، أغلقت داليا الستار. أجلس بين مُقتنياتها، أجلس في أماكن

جلوسها، أبحث عن رائحتها في كل ركن، أحدث أباها بالساعات عبر الشاشة الهلاميَّة، يسألني:

- «أين داليا..؟»

أبكي.. ثم أنتحب..

- «لمَ تبكي..؟»

لماذا أبكي..؟! هل لو أخبرته سيفهمني..؟

اللعنة على الفقد.

أتلطع إلى سمكة التونة مستقيمة في الطبق، أنادي: داليا..إنها التونة المقليَّة.. لا بأس بوزن زيادة.. لا أمانع يا داليا..! أجلس أمام التلفاز، أحدِّثها، أناقشها فيما يُعرض، لا ترد، لا ترد، أنظر إلى مكانها، أجده فراغًا، أبكي: داليا..! داليا..! أين ذهبتِ؟

أستحم بدش هواء ممزوج ببعض الرذاذ.. لا أصل بالفرشاة إلى آخر ظهري.. ركبتاي تنثنيان.. أنتحب.. أتمنى أن أسيل مع المياه إلى تلك المصارف.

اللعنة على الفقد.

الذكريات تهبط على ظهري كالسوط، أنظر إلى لحيتي في مرآة الحمام، محيط عيني أدكن من أي وقتٍ مضى، أحاول أن أشذب لحيتي لأخرج قليلًا عما أنا فيه، أراها في المرآة باسمة كأروع ما

تكون عليه البسمات، أبكي، أتحسس المرآة بأناملي، أخر أرضًا، أستند برأسي إلى الحوض، أترك لحيتي كما هي.

اللعنة، كل لعنات الله على الفقد.

تتحول ذاكرتي من ذاكرة السمك إلى ذاكرة حاسوب عملاق، فيها شبه منك على فكرة. أتألم بلا نهاية.. لنسمها ذات الدين. ترن في أذني طريقة همسها المبحوحة بكلمة: «أحبك» وسط غبار علاقة هادئة، أتذكر ضحكاتها على الرمال الصفراء وفي يدي أحجار شاطئية، أريها إياها. أحتضن تلك اللوحة التي أهدتها لي.. عارفة أنها عجيبتك.. رأيت ذلك في عينيك. اشتريتها لك High copy.

مكتبة بيت الحصريات

اللعنة على تلك الآلة المُدمرة المسماة بالفقد، تستمر في القتل ولا يموت ضحاياها، ما أمرَّ تلك الليالي التي عشتها بعد رحيلك يا داليا!! أحيي منعزلًا عن الأحياء.. أنام طويلًا.. وأحيانًا أخرى أبحث عن النوم ولا ألقاه. بدأت بتعاطي المهدئات.. تريحني، تجعلني أقرب شبهًا إلى داليا، تغوص بي في نوم عميق بلا أحلام. لم أعد أميز يومًا عن آخر.. أتناسى كل شيء.. لا أعرف في أي يوم أنا.. في أي شهر أنا.. تمر الأيام كأني تائه وحيد على جزيرة ضائعة، بدأت أشمئز من راحة البيت. أرج علبة «البلوبيف»، لا تُنزل شيئًا.. نفد الطعام.. قذفتها في الحائط بغضب.. انتشلت قميصًا تكسرت تفاصيله، قفزت في أول بنطلون رأيته، تبخترت نحو الباب أتأفف، لم أكن أريد الخروج إلى ذلك العالم الذي لا يحمل أي معنى من معانيّ، فتحت الباب، خطوت خطوة اتجاه

الخارج، دهست شيئًا ورقيًا بقدمي، نظرت تحتي، مظروف صغير وضع على مشايَّة الشقة، إلتقته، مؤرخ في ميعاد استلام يرجع إلى أسبوعين، يبدو أن صاحبه سئم من إجادي فتركه.

السيد الدكتور/ خالد يحيى .. نظرًا لاستفائكم مدة أبحاثكم المقررة سلفًا.. قررت جهات سيادية إيقاف جماعي لكثير من الأبحاث التي تكلُّف الدولة ميزانيات يحتاجها الوطن.. جاء الإيقاف بتوصية مباشرة من المشرف المباشر على أبحاثك د.توفيق.

تبدلت وجهتي تلقائيًا من البحث عن «الطعام»، إلى البحث عن «عُنق توفيق»، لا أذكر الفترة بين قراءتي للخطاب وحتى دخولي مكتب توفيق، الشعور بفقد كل شيء يدفعني نحو كارثة، أطبقت على رقبة توفيق بكلتا يديَّ.. كل الموجودات تغمغم، تتحدث، أصوات تصدح داخل دماغي، أرى عيون توفيق تبتز، وجهه تشوبه زرقة سريعة، أشعر بأناس يتشلونني من فوقه، ناح بصوت مجلجل وهو يضع يده على عنقه: أمسكوا ذلك الإرهابي.. يريد أن يقتلني كما قتل زوجته.. أمسكوه.

لم أنبس ببربع كلمة، فككت نفسي، وجَّهت إليه لكمة أسقطت له سنين، يتلع أسنانه: أخرجوه برًّا.. أخرجوه برًّا.

رحلت عن الجامعة بعد تحويلي إلى مجلس تأديب، قال لي رئيس المجلس: أنت لم تعد على ذمة الجامعة، المرَّة القادمة سيكون العقاب من الشرطة.

سُقت السيارة وسط شوارع القاهرة التي كنستها الريح، هائم نحو شقتي التي أصبحت معزولة عن باقي الكون، أعود إلى عالم آخر غير الكون التي فقدت فيه كل شيء، أشق الريح التي ضربت الشارع الخالي حتى نظّفت أسفلته وتراءت نقره وجذاذته الصخرية، أعواد الإشارات تتأرجح، أنظر إلى العدّاد، يقرأ ٨٨ كم/ ساعة، بجانبه الساعة ٨:٠٨، ثمانية مكررة بطريقة تدعو إلى الجنون، أزيد السرعة نحو خلاء الشارع، أتفادى رؤية رقم ٨٨ على عدّاد السرعة، أتفادى رؤية رقم «٨».

..٨٨

.. ٩٠

..١١٠

برقت أمامي يمامة ضالة. اعترضت طريقي.. هبطت على ساقيها تدور حول نفسها، اصطدمت أشعة الفوانيس بعينيها الضيقتين، ذعرت، همّت بالطيران، دهست الفرامل وانحنيت قليلًا، لم تكن سرعتها كافية، سمعت صوت ارتطامها بصدام السيارة، قتلت اليمامة، فقدت السيطرة على عجلة القيادة، تترامى السيارة يمنة ويسرة، ابتسمت، انتظر مواجهة الموت، تراءت أمامي داليا متبسمة، سعدت لقربي منها من جديد، تدور كل الموجودات، هبطت الصاعد وصعد الهابط، صرت رأسًا على عقب، تركت عجلة القيادة اللعوبة، كففت عن المحاولة.

شخصت عيناي في دواكن الظلام.

«٣»

مرّت إلى الآن ما يزيد عن «٣٠» جلسة إنصياع، قال لي المستشار آشر إنني أحرز تقدمًا كبيرًا نحو الخضوع والتحرر من أفكاري السافرة، وحتى إن كُنت من خارج الجمهوريّة كما أدعي، فسوف تضيف جلسات الانصياع لي السعادة والحياة التي لطالما أردتها. المستشار على علم بتقدمي من التقارير التي يقدمها له الضابط ذو النياشين المُذّهبة من إستجوابه لي بعد كل جلسة، عجبت في أولى الجلسات من قوله المتكرر بأني أحرز تقدمًا، لم ألحظ ذلك بطريقة مباشرة في البدايات، لم يكن اللعب على أوتار دماغي في أول الأمر يشوّش على أفكاري. قال لي المستشار إنّ جلسات الانصياع تشبه الحياة إلى حدٌ كبير، البدايات فيها شيءٌ ولواحق البدايات شيءٌ آخر، قال إن النتائج تظهر في آخر ثلاث جلسات وقد لا تظهر إلا في آخر جلسة، أي بعد إنتهاء الجلسات كلها. أنا الآن أصدقه، إنه اليوم رقم «٢٢» مُنذ بدأت الكتابة على تلك المناشف، وحتى تلك اللحظة، لم أصاب إلا بتشويش يأتي ويذهب بعد كُل جلسة انصياع. بعدما يذهب الخدر عن جسدي، يذهب بي «مطيع» إلى

مكتب الضابط ذي النياشين المذهبة، غرفة المكتب معلق على بابها لوحة خشبية بيضاء، مكتوب عليها بالأبيض الداكن: «غرفة الاستجواب ونتائج الخضوع».

أجلس أمامه على كرسيٍّ راقٍ، وهو في الحقيقة لا يمتُّ بالرقي بصلة، ولكني أسرد ما أراه. الضابط عادةً ما يكون نعسان، إلا حينما يدخل المستشار، أو يأتي معي من غرفة الانصياع.

كل ما في الأمر هو سؤال واحد، واحد فقط، يتكرر ويتكرر على مدار أكثر من «٣٠» جلسة:

ببرود:

«من أنت..؟ ما اسمك..؟»

في أول جلسة: صمت، يذهب الضابط ليأتي بشيء يلوكه ويأتي بعد دقائق غير مهتم بصمتي:

- «من أنت...؟ ما اسمك...؟»

- «اسمي خالد..»

- «نعم.. خالد.. جيد»..

وبعد دقيقة:

- «من أنت..؟ ما اسمك..؟»

يظل ما يقرب الساعتين يكرر نفس السؤال، تلجلج لساني من شدَّة التعب والتكرار، أتعرق:

- «خالد .. اسمي خالد».

فكَّرت في أنهم ربما يريدون أن آخرهم يأتي أُدعي «زائد»، فعلتها مرَّة واحدة حتى أنتهي، وكانت النتيجة أن صدحت المكبرات بإنذار في إشارة بأني أكذب أو بمعنى أدق، في إشارة بأني لا أصدق ما أقول.

حدجني حدجة عاقدًا حاجبيه، أرعبتني، وقال:

- «لا تكذب».

يكرر السؤال:

- «من أنت؟.. ما اسمك؟»

- «خالد.. خالد.. قُلت لك أدعى خالدًا..!»

يذهب إلى الحمام، أسمع من وراء بابه صوت قرقرة بوله في المبوَّلة، يأتي ويكرر:

- «من أنت؟ ما اسمك؟»

بملل:

- «خالد».

يتركني ويذهب ويأتي بعد ساعة:

- «من أنت..؟ ما اسمك..؟»

أنعس وأسعل:

- «خالد».

بعد حين:

- «من أنت..؟ ما اسمك..؟»

أكاد أنام في آخر الاستجواب فلا أجيب، يلطمني بيده فأفيق:

- «اسمي خالد.. خالد.. هل انتهينا...؟!»

نفس السؤال يتكرر حتى سئمت الألسن من حروفه المكررة، لا يحاول حتى أن يغير الصياغة، لا تتغير ملامحه الباردة على وجهه، يبدو متمرسًا في ذلك الأمر التافه الذي يمكن أن يفعله كل الناس، يقضي يومه كله في سؤال واحد لا يغيره، تقاريره كلها تقوم على ذلك السؤال المسكين، سؤال عن الهويَّة، لا أعرف ما الذي جعله يقول في تقاريره إني أحرز تقدمًا..! قد يكون السبب أني صرت أتلجج كثيرًا وأنا أنطق «الخاء» و«الألف» في «خالد»، أو أنني بعد عدة جلسات صرت أنتظر فيئة لأجيب كأني أستدعي اسمي من أعماق الذاكرة.. أفكر كثيرًا قبل أن أجيب. آخر مرة كان على طرف لساني حرف الـ«ز» في كلمة «زائد»، ولكني أكتمه خوفًا من الضابط وأجهزة الإنذار المتوقع صدحها، لا أعرف ما إذا كان سبب ذلك كرسي الانصياع، أم أنني سئمت من نطق فاعل اسم الخلود: «خالد».

ما أعرفه جيدًا أن هويتي بدأت في التهاوي بالفعل، كما حذرني السجين القزم، القزم الذي يعتقد بفعل الشبه أنني «زائد» قائد ثورتهم، القزم الذي يعتقد أن في يدي خلاص أهله وشعبه، هو لا يعلم أني لا أعبأ بهم من الأساس، ولا أرى أمامي سوى العودة إلى القاهرة أو الموت والراحة الأبديَّة.

في كل مرة أريد أن أقول له إنني لست «زائد»، وأن «زائد» معتقل أيضًا، وأن ثورتهم في طريقها إلى الفشل، أشفق عليه وعلى تلك النظرة الآملة بين عينيه، وعندما أفكر في أنني من الممكن أن أساعدهم، وأحقق أحلام الطفولة في أن أكون بطلًا أو ما شابه، ترفض نفسي ذلك التفكير.

لعدة أسباب.. أولها:

كيف أخلص أحدًا لا يريد في قرارة نفسه الخلاص...؟

***

رقعتان ورقيتان تحملان رقم «٢٢»، وفيهما ما يحدث في غرف الاستجواب ونتائج الخضوع.

«٣»

لي وجبة واحدة يوميًا، أتناولها على مدار الأيام السابقات أمام ذلك القزم ذي الجبهة المستطيلة، نذهب إلى ساحة الولائم بعد فترة قصيرة من سماع بوق الاستيقاظ، البوق الذي يشبه زميره زمير بوق إسرافيل المعمول عند القيامة والبعث، نستيقظ ككائنات أسطورية في أزياء بيضاء مُصممة بعناية فائقة، نصطف واحدًا وراء الآخر في أفاعيل معتادة نقوم بها بلا إنتباه، نقوم ببعض التمارين الرياضية، ثم نتمشى في الطرقات دقيقة، ثم ندلف إلى هواء مليء بروائح الطعام النفَّاذة، هواء ساحة الولائم العبق بالطعام، كلٌ منَّا يعرف منضدته وكرسيه، أجلس أنا في القسم رقم «١» وأمامي القزم، نأكل في اثنين وعشرين دقيقة، عددها أكثر من خمس مرات، وفي كل مرَّة أعد «٢٢» دقيقة. يقدمون لنا الحساء وفقط، لم أمضغ شيئًا منذ أتيت حتى كدت أشك في وجوه أسناني، أشرب الحساء الساخن ولا شيئًا غيره. من بين أربعة أو خمسة أطعمة متناثرة على الأيام، لم أميز إلا طعم الدجاج، والباقي غريب وغامض، ولكنه لذيذ، أو يُهيأ لي أنه لذيذ. سألت القزم

ما إذا كان أحد الأطعمة هو طعم اللحم، أصُبت بوسواس لجهاء ما يأكلون مُنذ أن رأيت اللحم البشري يتدلى من خطافات القصابين، قال لي مندهشًا: لحم!! مثلنا لا يقدمون لهم اللحم!

وددت لو أخبره بأننا المفلحون، ولكني فضلت الصمت، لا أريد أن أرى رد فعله عندما أخبره أنَّه قد يكون قضى حياته كلها بالخارج يأكل لحم أخيه.

بعد الأكل، ينفخ أحدُهم في البوق فنذهب إلى الزنازين، وبعد لحظات من الفراغ تقترب من الساعتين، تُستدعى إلى جلسات الانصياع، وبعد زوال التخدير والضمور الناجمين عن الكرسيِّ الشيطاني في جلسة الانصياع، نذهب إلى غرف الاستجواب ونتائج الخضوع.

اليوم كله حسبته بالثواني والدقائق الأرضيَّة، لم أشاهد ساعات قطُّ، ولا أعلم على ماذا يعتمدون في تقسيمهم لليوم، ظللت يومين أعدُّ الثواني في عقلي تقريبيًا وأحسب الفراغات التي بين أبواق التيقظ والطعام وجلسات الانصياع ثم النوم.

ذات مرَّة قال لي القزم هامسًا بأنني يجب أن أكتب كل ما أذكر، يجب أن أحفظ هويتي لأنها أملهم الوحيد بالنجاة: إذا تمكَّنوا منك.. سيقلبونك ضدنا.. تماسك ولا تضيع ثورتنا.. إذا ذهبت هذه الانتفاضة هباءً.. سننتظر قرونًا أخرى حتى يحدث مثلها.. فقط أكتب..! قال لي تلك الكلمات قبيل إطلاق الأبواق مباشرةً،

رجعنا إلى زنازيننا وظللت أفكر فيما قال، كيف أكتب..؟ وعلى ماذا أكتب..؟ أتذكر أنني لم أنم يومها قط، ظللت أفكر فيما قاله، أنتظر وقت الطعام حتى أعرف منه كيف أكتب..؟ ليلتها لاحت الكتابة لي هي الجنة بعينها، المتنفس الوحيد في تلك الزنزانة المثالية المملة، الشيء الذي سأخفف به أعباء الحياة حين أضعها على الورق.

maktabbah.blogspot.com

طلع الصبح وعددت الدقائق حتى أتى ميعاد الطعام. وقبل المنضدة بأمتار، اصطدم بي أحد المساجين العاملين بمطبخ المحجر..! أوقع قدر الحساء الذي يحمله على الأرضيَّة، سبَّني يا كافر يا ابن الكلب. إنقض عليّ وهمَّ بضربي، وبينما هو فوقي، قال لي هامسًا: اقتل نفسك. لم يكن في نيته ضربي من الأساس، ويبدو أنه افتعل بي ذلك الاصطدام عن عمد...! أمسكه الحرَّاس وأبعدوه عني.. أخذوه بعدما هوى عليه الجميع بالعصيان والبساطير، جرّوه وهو ينظر إليَّ مبتسمًا، الجميع يعتقد أنني زائد، ويبدو أن منظري منظر شخص يتهاوى فعلًا نحو الخضوع. جلست على المنضدة أمام القزم، سألته عما قاله، فأشار بعينه تجاه المناشف الورقيَّة المقدمة مع الطعام، مناشف من الورق الجاف تشبه مناديل «الكلينكس» الموجودة في عالمي، لا يوجد عدد محدد للمناشف التي تقدم مع الحساء، مرَّة منشفة واحدة، ووصلت مرة إلى خمس مناشف. ناولني من جانب الطبق سنًّا صغيرة من الجرافيت القاتم، طوله يقترب من ٢ سم وقال هامسًا بينما ينظر مطيع إلى الجهة الأخرى:

- «لا يمكنك الخروج بهم من هُنا.. خبأهم في جسدك».

صُدمت مما قال، كيف أخبئهم في جسدي:

- «كيف...؟!»

- «أدخل الحمام.. أبتلع المناشف.. وأغرز السن تحت أظافرك».

زعقت هامسًا:

- «ماذا تقول..؟! هل أنت مجنون..؟!» رميت له السن.

تلهيت بالطعام أفكر، علا صوت البوق ومعه صوت مطيع: هلمُّوا إلى الزنازين.. قال القزم وهو ينهض:

- «لك الخيار.. لا تخذلنا».

ظللت يومين أتجاهل ما قاله، شعرت بعد اليومين بأنه محق، يجب أن أكتب، عقلي يتهاوى، وبعد بضع جلسات، لن أعرف من أنا. دخلت إلى الحمام بالمناشف وقد طلبت من القزم السن، دسست المناشف قطعة قطعة، في حلقي، فعلتها، لم يكن ابتلاعها صعبًا، الجزء الصعب هو أن أغرز السن تحت أظافري، ستتيمتران طول كبير نسبيًا، قصقصته إلى شطرين، ونزعت لباسي ووضعته على فمي، غرزت الأول تحت ظفر سبابتي وأنا أزجر وأضغط على الزي الأبيض حتى كاد أن يتلاقى فكاي، غرزت الثاني في اليد الأخرى، غسلت الدماء وحبستها بإبهاميَّ وخرجت على صوت بوق إنتهاء الطعام ومطيع يقول: فاتك الطعام يا فالح.. انهض..

هيَّا.. ذهبت إلى الزنزانة وأخرجت السنَّان، وكُنت قد تركت جزءًا من أطرافها، لأتمكن من نزعها من اللحم، وضعت يدي في زوري وتقيأت الورق، عصرته بين يدي والأرضية، أخرج منه البلل، أعجن القطع بعضها مع بعض، وأمدها كالورق، أعمل منها رقعة أو اثنتين أو ثلاث، الرقع صهباء اللون مُدماه بدماء معدتي التي جرحت، وبها صفار لون الحساء، أتركها تنشف تحت مرتبة السرير ومعها الجرافيت، المرتبة الذي عرفت مسبقًا أنها مرتبة صغيرة مُنسخة على صندوق صفيح بارد، إنها مخبأ رائع للورق والجرافيت.

***

رقعتان ورقيتان تحملان رقم «٢٣»، وذكر فيها خالد كيف جليت الورق الذي كتب عليه.

- فصلٌ خامس عشر -

«١»

نسيب إسمها، ونسيت يوم زفافنا، قلبتُ في تلك الأوراق فعرفت أنها تُدعى: «داليا». لم أجد شيئًا مذكورًا عن يوم زفافنا، هل قُمت بأدوار الزوج بطريقة جيدة يرمها..؟ أكانت تجربة سلبية أم إيجابية...؟ حين يتحول المرء إلى زجاجة فارغة يُفكر في أشياء لم يُفكر بها من قبل، يستعيد ذكريات كان يستهين بها في معظم الأوقات؛ كيف كانت ليلتنا..؟ بعد كم عام أنجبنا..؟ هل أنجبنا أصلاً أم لا..؟ لم يخطر ببالي أن أسأل نفسي تلك البديهيات قط. مضت أكثر من «٢٥٥» جلسة إنصياع، أنا الآن في رواق الثلاثي، كُل ما يجول بخاطري ذكريات لم تحدث عن معارك وأناس قتلتهم، أشياء متداخلة، لا يمكنني تمييزها عن بعضها البعض، أشعر بحكة في كامل جسدي. أعتقد أنني عليَّ أن أكرر ذلك الآن، افترضت في أول رقعة ورقية أنني أدعى «خالد يحيى»،

من أجل تلك اللحظات التاليات التي لن أفرق فيها بين خالد وبين ما يريدوني أن أكون، لقد كان فعلًا صائبًا، لأني الآن بالفعل على وشك التحوّل إلى المدعو: زائد.

***

نصف رقعة ورقيّة تحمل رقم «٢٤».

«٣»

غاص وجهي في الطين، أسعل فأتنفس التراب، رمت بي السيارة خارجها على جانب الطريق من قوة تقلباتها، الشارع مظلم وخاو من السيارات والناس، أتحسس بخدي تربة مبتلة بدمائي الدافئة، نهضت بدون آلام عظميَّة، رأسي ينز دماءً أكتمها براحة يدي، أشعر بدوارٍ طفيف، إصابتي خفيفة، أتأمل سيارتي المهشمة، غُرِزَ في سقفها حامل إعلاني حديدي كبير، يتناثر منه الشرر الكهربائي.

أتقدم الخطوات لأتأمل الإعلان. إعلان عن كتاب داليا.. «رسائل أخرى من الاله».. يتجلى من أسفل جانبه الساعة.

١٠:١٠..

عشرة مكررة مرتين!

***

«٣»

سلام ربي على من يقرأ تلك الرقع الورقيّة، وجدت تلك الصفحات تحت مرتبة الزنزانة، كُنت أبحث عن شيء ولا أعلم ما هو، ويبدو أنني وجدته، يبدو من تلك الصفحات الصهباء أنني «خالد يحيى»، وعلى الرغم من أنني لا أعرف في تلك اللحظة الفارغة من هو «خالد يحيى»، إلا أنني أؤمن أن تلك الأوراق تنتمي إليَّ، لستُ متأكدًا إذا ما كان هذا خط يدي أم لا، ولكن المكتوب على الأوراق يُحدث قلبي، يخاطب جزءًا مطمورًا من عقلي، ليست تلك الحادثات الموحشات التي مرَّ بها كاتب الصفحات، وإنما طريقة كتابته وذكرياته التي تدرت بين الرقعة والرقعة.

أنا ذلك الرجل، أنا خالد يحيى، وهذه كلماتي.

دماغي الآن فارغة إلا من بعض الذكريات الغريبة، لا أشعر أنها تنتمي إليَّ، إنما من صنع دماغي الذي عودوه على الزيف والوهم، لقد وجدت في تلك الأوراق الروح التي تنقصني، الروح التي باحت لي بالكيان الذي لطالما بحثت عنه في الليالي السابقة.

تلك الإنسانة التي تدعى: داليا، زوجتي.

لقد إنتهيت منذ يومين من جلسات الانصياع، أو بالأدق هي من انتهت مني، قُلت بثقة للضابط ذي النياشين المُذهبة بعدما سأل عن هويتي:

إسمي زائد.

تعجبت من أنه سأل عن إسمي الذي يبدو معروفًا لديهم، تبسَّم متنصرًا، وذهب سريعًا ليحضر المستشار، ليقول لي بساجة: مرحبًا بك في أحضان الجمهورية يا زائد، سنجري عليك في الأيام القادمة عملية تعديل وجهي خفيفة.. يقول إنَّ هُناك بعض الندبات يجب أن تكون في وجهي، لم أعلم لماذا، إلا حين قرأت تلك الأوراق، يبدو أن «زائد» الحقيقي، يحمل بعض الندبات في وجهه لا يراها مُتعاطي اللقاح، استنتج أنني لم أرها أيضًا حين قابلته مرَّة، كما هو مكتوب هُنا.

أعلم أنه في الغالب لن يقرأ أحد تلك الأوراق، كما قلت في أول رقعة، وعلى الرغم من ذلك كتبتها، والآن وبكل قناعة، سأتوقف عن الكتابة مجبرًا، لا يوجد ما لدي أكتبه، ودماغي لا تتطاير فيها إلا الأكاذيب.. وهذا.. أقرر أنا المدعو خالد يحيى، البحث، كل البحث، عن سبيل للهروب من ذلك المكان المظلم، لا يوجد لدي ما أخسره، ويبدو أنني كُنت في حاجة إلى تلك الذكريات العنيفة التي وضعوها في دماغي حتى أقدم على ذلك القرار الشجاع.

أوقع: خالد يحيى

***

رقعة ورقيَّة أخيرة، تحمل رقم «٢٥».

- فصلٌ سادس عشر -

«١»

أهتُ بشدة، ذعرت ناظرًا إلى السماء، قررت أن أترك كل تفكير يدنو بي من الصدفة، لا يمكن أن تكون كل هذه الأرقام المتشابهات محض صدف..! صدحت بأذني آخر كلمات داليا.

لقد تركت لك مخرجًا من طريقك الضال.

ماذا لو لم تكن تقصد بالمخرج انتحارها..؟!

لو لم تكن تقصد انتحارها.. ماذا كانت تقصد إذن...؟!

برقت سيارة سرعان ما وقفت من هول منظر السيارة المقلوبة، أخذتني إلى المنزل بعد إلحاح طويل بالذهاب إلى المشفى واجهته برفض قاطع.. دخلت الشقة بسرعة، أبحث عن كتاب داليا، يتدفق الدم في عروقي، ينز الجرح مزيدًا من الدماء بعدما

سكن، فككت لفافة بن وكتمت بها الجرح، أزعق في نفسي بصوت عالٍ:

أين هو..؟!

الشقة عبارة عن أشياء مبعثرة فوق أشياء، أصص نباتات الزينة البلاستيكية مهشَّمة وملقاة على الأرض، القمصان في كل بقعة. على الأرضية علبة «البلوبيف» ما زالت مكانها وقد ندت عنها قطرات من الزيت، فتشت في مكتبتها التي حوت بجانب الكتب علب مهدئات وأدويَّة للتركيز والقولون العصبي، أرمي الكتب والعلب على الأرض بسرعة وقوة زدت بها عشوائية المنظر، أهمس إلى نفسي: أريد نسخة.. أريد نسخة.. وجدته، كأني وجدت كنزًا، وضعته على طاولة الطعام بعدما أزحت بيدي أطباقًا متسخة فوقعت مصدرة رنينًا صاخبًا، تنهدت تنهيدة، قرأت العنوان: «رسائل أخرى من الإله»، فتحت الكتاب، وشعرت كأنني على وشك أن أحظى بحوار آخر مع داليا.

إهداء إلى..

خالد يحيى..

الذي لم يؤمن بالأرقام الإلهيَّة قط.

قرأت في الفصل الأول:

بدأت تلك الرسائل الإلهية في ذلك اليوم الجميل البعيد، يوم قابلت أفضل إنسان رأيته في حياتي، زوجي، الدكتور خالد نجيبي... لم يكن من قبيل الصدفة أنه أخبرني بحبه يوم ٢٢/ ٢، كان ذلك غريبًا وجميلًا، بتنا شهورًا نعتز بذلك التاريخ وتلك الصدفة التي ثلَّثت رقم «٢» في أول يوم حب، ولكنني لم أكن أعرف أن الأمر بداية لتجربة مثيرة وأشد غرابة من صدفة يوم واحد. فقد توالت الأرقام المتشابهة في الأيام والشهور والسنين، لا توجد الثقافة إلا ووجدت بها رقمًا متشابهًا، إشارات المرور، إعلانات الطعام والملابس، الأسعار، كل شيء يحوي أرقامًا متشابهة، الساعة، صفحات الكتب.. كل شيء.. كل شيء حرفيًا.

توقفت عند ذلك النص مسترجعًا كلام أبي عن تأخير توثيق ميلادي، ربطته بكلامها عن بدء الأمر مع دخولي بحياتها، داليا لم تعمل قط، كانت جليسة البيت ليل نهار، وكل ما ذكرته من أماكن تروي بها تلك المتشابهات، كنت في الأغلب معها.

إشارات المرور! أنا دائمًا من أقود وهي بجانبي.. الإعلانات والأسعار والساعة..! كانت تحدث لها أمامي وتخبرني وقتما تحدث حتى سَئمت من رد فعلي البارد من التكرار.

هذه الرسائل كانت لي من البداية ولكنها لم تعلم ذلك..!

تركت الكتاب وطلبت من الـTBF عرض أرشيف طفولتي.. استرجعت أول يوم ذهبت به إلى المدرسة.

أتذكر أنني ذهبت متأخرًا لأيام نظرًا لرفض أبي ذهابي للدراسة في بداية الأمر.. ها هي أول صورة لي بالمدرسة، صورتها لي أمي بالفصل، مؤرخة بتاريخ.. ١٢/ ١٢..!

قلبت في صورٍ كثيرة، أدقق في كافة التواريخ.. صورة مُجمعة من حفل تخرجي، مؤرخة بتاريخ ١١/ ١١..!

لي صورة مع أبي أمام ساعة «بيج بن» بمدينة «لندن».

العقارب تشير إلى ١٣:٣٣! تقريبًا..!

انتفضت، قلَّبت في الملفات والورق الخاص بي، ورقة أخرى اختبار لي بالجامعة، حفظتها للذكرى، لقد كان يوم ١٠/ ١٠!

كل شيء مقدر من يوم مولدي..! كل شيء مقدر من البداية..!

كل الإشارات لي ولم أنتبه لها مطلقًا حتى نبهتني داليا، إيماني بالعلم الشديد أجبرني على عدم الالتفات لهذه الصدف.. بالإضافة لإيماني الديني الكافي وحده لأرفض، دون وعي، أي تفسير روحي ونجمي للأرقام، حتى أتت داليا ونبهتني لها..!

هل من الممكن أن أكون المتسبب في حادثة موت أم داليا في مكوك «أموت مصر ٢٠-٢٠»..؟!

فقط لأن داليا ستكون زوجتي يومًا ما وستكون الحادثة واسم المكون جزءًا من الحياة....؟!!

هذا غير ممكن..!

قلّبت صفحات الكتاب..

قرأت في الفصل الرابع:

متابعة الأرقام وتوثيق كل ما أمر به وأراه كانت أول خطوة في الاتجاه الصحيح، هذا هو الطريق الوحيد لحل الشفرة الإلهية وسط الحروب والدموية الرابضة على العالم.. لقد أراد أحدهم أن يطمأننا ويقول لنا كما قلت سابقًا: «الستم وحدكم، الرب ليس على الحياد».. ولهذا قررت أن أسجل كافة الأرقام المتشابهة وأوقات حدوثها بالأيام والشهور والسنين، والأحوال المحيطة بها، لعلي أفك تلك اللغة التي منَّ الله عليَّ بها.

قلّبت.. قرأت في الفصل العاشر:

في الحقيقة، أنا مشتتة ولست متأكدة من أن تلك الرسائل من الله أو من كائن فضائي، أو حتى رسائل من الكون نفسه، ولكني أعلم أنني لست وحدي، زوجي هو الآخر يراها، ولكنه يرفض أي تفسير تجمي لها لخلفيته المادية والعلمية، وأيضًا لإيمانه الديني. الأمر ذهب لبعيد حين قررت أخيرًا البحث عن تلك الحالة على الإنترنت، فوجئت أن هناك حالات مشابهة لما يحدث لي أنا وزوجي في كل مكان بالعالم! تأكدت بعدها بأنني لست وحدي.. وأن تلك الرسائل للعالمين جميعًا.. أنا لست وحدي.. وحتمًا لا يمكن أن يكون كل هؤلاء مرضى بأي نوع من الأمراض النفسية والعقلية.

الفصل الحادي عشر والأخير:

قررت أن أقف عند الرقم ١١ تقديسًا لتلك الأرقام، ولكني عندما فكرت مليًّا، وجدت أنني سأقف لا محالة عند ذلك الفصل، لا يوجد شيء يُكتب، ولا يوجد تقسيم فصول أفضل من هذا.. لا أعلم قارئي ما إذا كنت ستصدق أنني أيضًا لم أختر عدد صفحات الكتاب أم لا.. ولكنني فعلًا لم أختره.

٢٢٢

عدد صفحات الكتاب ٢٢٢ صفحة.

داليا لا تعلم أن عدد صفحات كتابها لم يكن متعلقًا بها قط، الأمر متعلق بعيني التي يجب أن تقرأ تلك الأرقام في تلك اللحظة.

كل شيء مقدر بعناية، شعرت بأنني دمية خشبية لأول مرَّة في حياتي، الخيوط تراءت الآن، ولكني لا أرى من يتحكم في الخيوط..!!

انتهيت من قراءة الكتاب وسارعت في البحث في أدراج داليا، أقلب في كتاباتها وملاحظاتها، من المؤكد أنها لم تكتفِ بذلك.. وجدت ما كنت أبحث عنه، أوراقًا مُسجلًا فيها أرقامًا متشابهة موثقًا بجانبها تاريخ حدوثها وأحوالها، ومجموعة من الصور و screenshots للشاشة الهلامية تظهر بها الساعة متشابهة في

أرقامها. كل شيء كان موثق، عدد صفحات كتابها، عدد الفصول، كل رقم متشابه رأيته هي في خلال مدَّة طويلة من الملاحظة والتوثيق قامت بها داليا.

الملاحظات مرتبة من الأقدم للأحدث، أشارت في الأرقام غريزي الرياضية، أتيت بالسبورة، أتعثر في الأشياء المبعثرة على الأرض، وضعتها على الطاولة، كتبت عليها الأرقام من الأقدم إلى الأحدث، أتيت بالمراجع واسترجعت القوانين، وظللت طول الليل أحاول أنا أستنتج شيئًا من تلك الأرقام.

أي نظام معين ومكرر يخرج معادلة ما.

الأوراق متناثرة، كتبت على السبورة مئات الاحتمالات، مسحتها مئات المرات، جفناي يتهاويان، والنعاس مع خدر الجرح يشدني نحو غيهب النوم، الأرقام تقترب من متتالية ما، ولكنها غير مكتملة، هُناك شيء ناقص في تلك الأرقام والتواريخ، الأرقام في الأصل كانت إشارات لي أنا، لم تكن أبدًا لداليا، فحتمًا قد تكون أغفلت بعد الإشارات التي رأيتها أنا ولم تراها هي.. ظللت ساعات أفترض أرقامًا، أضع فروضًا وأتخيل متشابهات أسدُّ بها الناقص من المتتاليات والمتتابعات.. غرقت في حسابات عديدة.. وأخيرًا.. نجح الأمر..!! اكتملت الأرقام.. كتبت المعادلة وسط السبورة.

نظرت إليها وعرقي يتصبب بغزارة، أتنهد وأجهش، لقد عرفت بمجرد النظر أنها المعادلة الجامعة، أنه أكبر اكتشاف حدث على الإطلاق..! لم تبقَ سوى تجربة تلك المعادلة على غرفة القفز الموجودة بمعمل الكلية.

الكلية التي طردت منها للتو..!

***

«٢»

صحوت وسط الأوراق المتناثرة، نائم على الأرض، علت دقات باب الشقة، تُطرق بهمجية، فُزعت، ظننت أنهم رجال الشرطة، أتوا للقبض عليَّ بعد فعلتي مع توفيق...!

نهضت أقاوم الجاذبية، شعرت في لحظة ما أن ليلة البارحة كانت عبارة عن حلم، طرفت المعادلة على السبورة، وعيت أن ما حدث بالأمس كان حقيقًا، لقد اكتشفت المعادلة الجامعة ولا ينقصها غير التجربة، تقدمت نحو الباب الذي لا زال يدقُّ بقوة، وقت أمامه، شغلت نظام الشفٍّ، تحوَّل الباب إلى مرآة شفافة، أرى ما بخارجها..

لقد كان عم عربي..!

استقبلته بحفاوة، دخل يسير وسط الفوضى بحذر، أزحت له بعضًا من العلب والمراجع والأوراق من على الكنبة ليجلس:

- «جئت للاطمئنان عليك بعدما سمعت ما حدث لك البارحة.. هل ذلك صحيح..؟ الجميع يقول بالكلية إنك ارهابي.. يقولون إنك قتلت زوجتك..!»

- «وهل صدقت هذه الترهات يا عربي..؟!»

نظر يمنة ويسرة، يتعجب من فوضى الشقة، وقال:

- «بالطبع لا.. ولكنك بالتأكيد لست بخير.. لست دكتور خالد الذي أعرفه.. هل تريد أي شيء..؟ هل لديك نقود تكفيك..؟ .. أطلب أي شيء.. خدمات حضرتك كثير».

نظرت نحو السبورة.. فكَّرت مليًا..

- «أعتقد أن هناك ما يمكنك مساعدتي به».

- «ما هو..؟!»

***

«٣»

بحلول الليل كُنت في باحة الكلية مرتديًا سترة صفراء، رداء فنيي نظام التكييف والتبريد، جلبهُ لي عم عربي، وقابلني خارج أسوار الكلية، أعطاني إياه لأتمكن من الدخول ليلًا، لقد قال لي مسبقًا: سيطول الأمر كثيرًا.. الصنائعية بدأوا من هذا المبنى.. يعملون فقط ليلًا.

تخطيت رجال الأمن بسهولة مرتديًا السترة الصفراء، تقدمت نحو المعمل، فتحه لي عم عربي، أوصيته أن يراقب الأجواء حتى أخرج، وقفت أمام غرفة القفز، أحمل بيدي الحسابات الجديدة.. بدأت في العمل سريعًا.. أجري كل التعديلات التي أودُّ أجراءها، طلع الفجر سريعًا، لا أستطيع إنجاز أي أعمال أخرى.. سيبدأ اليوم الدراسي بعد ساعات.

طرق عم عربي باب المعمل:

- لابد أن ترحل يا دكتور.. العيَّال يرحلون.

خرج العمال، لاحقتهم وقد رميت السلام على الأمن وأنا منكس الرأس نحو الأرض.. لم يبق لي إلا تصميم بذلة القفز الواقية، لتحميني من خطورة الانتقال، والحرارة، وتحميني من موجات التمزق في الزمكان.

لم أنم يومها.. ظللت عاكفًا عليها حتى أنهيت تصميمها، استأجرت ورشة لمدة ساعتين، أنفقت في الساعتين كل رصيدي البنكي من البينكويين حتى أبتاع الخامات وأستخدم الآلات الموجودة بالورشة، صنعت نظارة وخوذة.

بالليل كنت في الكلية مرتديًا بذلة القفز تحت الملابس حاملًا على ظهري حقيبة بها بعض الأوراق والخوذة والنظارة.

كُنت أعلم أن نجاح الانتقال غير مضمون، الانتقال يشبه الموت، إذا لم ينجح لم تكن لتأتي من هناك لتعرف أين الخطأ وتصلحه، لا يمكن التنبؤ بما سيحدث، أسوأ الأحوال أن تحول إلى غبار كوني في برق البصر، أو أجد نفسي وسط الفضاء أتجمد في لحظتها، كُنت أعلم أنها عملية انتحارية، ولكني لم أتردد في ترك ذلك العالم، حتى لو كان أحد الاحتمالات يلقي بي في أحضان الموت، في كلتا الأحوال، لقد حان وقت الرحيل.

انهمكت في اللمسات الأخيرة، ضبطت معدلات الأمان، سمعت وقع خطوات خارج المعمل، صوت عم عربي يصدح عاليًا، لكنه يصلني غير مفهوم.

تسحَّبت تجاه الباب، أتلصص من خلفه على ما يحدث.

إنه هو..! دكتور توفيق..!

عم عربي يلهيه، ماذا جاء به إلى هُنا ليلًا..؟!

بحثت عن أي شيء أغلق به الباب، دفعت مكتبًا خشبيًا بصعوبة ووضعته خلفه، أحدث ضجة من احتكاكه مع الأرضية، جاء صوت توفيق من وراء الباب:

من بالداخل يا عربي..؟! تلعثم عربي.. ما بك..؟! أنطق من بالداخل..؟! ما هي إلا دقائق حتى أتى الأمن يدفع الباب بقوة نزعت ملابسي إلا بذلة القفز، أحكمتها جيدًا، ارتديت الحذاء وأنزلت النظارة بكفين مرتعشتين، أصبحت الغرفة مهيأة للرحيل، دخلت الغرفة، وضعت يدي على الزر الأحمر بداخلها، فكرت لحظة أن أتراجع عن الضغط عليه، دخل توفيق والأمن، ضغطت الزر، أُغلق الباب، ضخت الغرفة البخار بداخلها، صدح صوت صفير، ومضت الأنوار بالضوء الأحمر إنذارًا للخطر، لقد حدث خطأ ما..! ذعر توفيق، ابتعد عن الباب، فزعت، أطرق الباب من الداخل، أستنجد بالذي كنت أهرب منه منذ لحظات، أستنجد بتوفيق، فات الأوان، تذكرت داليا ببسمتها المعتادة، وكان آخر ما رأيته هو ثلاث فجوات محيطة بي، كل فجوة بشكل هندسي، فجوة على شكل مثلث، وأخرى على شكل مربع، والأخيرة على شكل دائرة، برقت في عقلي لوحة الكون، شعرت بروحي تتمزق

بين الثلاث جهات، تتخطف ذراتي حبيبات وراء حبيبات، كل شيء داخل الغرفة تبتلعه الثلاث فجوات، الهواء الشفاف يتجلى أمامي أبيض مكثفًا من شدة جذب الفجوات له، وكان الزمن بطيئًا كفاية لأشاهد رجال الأمن وتوفيق مجرد أصنام بلا حركة، ولأشاهد نفسي كأني أرى بثلاثة أذهان مختلفة، كل ذهن ينظر إلى الفجوة المقابلة له، عبرت من الفجوات وتزايدت الأشكال الهندسية وتداخلت.. إسودت الرؤية أو أبيضت.. لا أدري.

***

- فصلٌ سابع عشر -

«١»

نظرت عبر شباك الزنزانة، أتفحص الممر، أتأكد من كامل خلوه، لا يدب على الأرض صوت حشرة، لا عسكر، لا سجّان، الجميع غرقى الجحور في نوم عميق. تقدمت نحو الباب بخطوات رتيبة، دفعت الباب بكفي دفعة خفيفة..

لا يفتح..! موصد بقوة، كيف..؟!

فكّرت، هل يجب أن أدفعه بقدمي لأنه في الأساس تحتها..؟!

دفعته بقدمي دفعة خفيفة.. فُتح...!

تنهدت، أحبيبت أتلفت يمنةً ويسرةً، نظرت نحو الناحية المؤدية لساحة الولائم، الناحية الأخرى من الممر عبارة عن طريق مسدود، حائط أبيض، شهقت حابسًا كمًّا من هواء كاذب

في رئتيَّ، تأهبت للعدو بكل سرعة.. وانطلقت... نحو الطريق المسدود...!

قرأت في الرقعة الأخيرة من الثلاث رقع ورقيَّة المرقمة برقم «١٩» أن باب الزنزانة هو قطعة مربعة من الصفيح الهش، يكفي لطمة مرَّة واحدة ليُفتح.. خبطها مرَّة، وفي الثانية فُتحت، كان بابًا هشًا..

على هكذا اعتمدت في خروجي من الزنزانة، كتبت ذلك بعدما أهمل المحجر سُجانه حتى كادوا يهربون وقت اشتداد الشغب بالبلاد.

الباب هشٌ، والخروج من الزنزانة يسير، ولكن الأمر حتمًا ليس بتلك السهولة، لا يكفي الخروج من الزنزانة وحدها للهروب، فالسجان «مطيع»، شبيه ماجد، كما قرأت في الرقع الورقية، كان يتجوَّل ذهابًا وإيابًا في الممر خارج الزنزانة طوال النهار، يتفحص الزنازين من شبابيكها كل حين، كما أنني لا زلت لا أعلم طريقًا للخروج من المحجر كله..! محاولة هروبي خارج الزنزانة ممكنة، ولكن تبقى محاولة هروبي خارج محجر ديجور خطيرة ومجهولة النتائج. حاولت أن أفكر في خطة ما، ولكن أي خطة...؟! فأي خطة تظل مرتبطة بالمعلومات التي أتلقاها من محيطي، والذي هو بالتأكيد «وهم خالص»! . كما أنني لا أضمن سلامة جسدي الذي يؤهلني للهروب، فاللقاح الوطني يجمع لي كل ما هو جميل ومريح، فقد قرأت في الرقع الورقيَّة التي كتبتها،

أن هُناك إصابة مؤلمة في قدمي، لا أعلم ما إذا كانت موجودة أم زالت.

حاولت أن أرفص الباب المربع بقدمي، أطلقت صرخة أحسب أنها وصلت القاهرة، قدمي اليمنى بها التواء، تؤلمني عند الحركة، تلك الدفعة عصرت عضلات قدمي على عظامها عصرًا، لم أكن أعلم بإصابتي، لم أكن أشعر بها.

هذه الرُقع الورقية زرعت الشك في كل ما أنظر إليه، لا أعلم ما الذي يجعلني أصدق ما قرأت فيهن على ما أرى حولي غير حدسٍ داخلي بأنني من كتبت هذه الأوراق.

بزغ الصبح، وأقول «بزغ الصبح» بلا رؤية شمس. استيقظت وشرعت منظومة المحجر في العمل. قررت الملاحظة والتفتيش عن أي نسيل أستمسك به للخروج من هنا، أي معلومة تمكنني من الهرب.

أخرجونا من الزنازين وأمرونا بالتمشي في الممر لدقائق، هذا ما أكدَّلي قليلًا صدق ما كتبته على الرُقع الورقية، لماذا يطلبون منا السير وتحريك أوصالنا المُتخشبة إن كانت الزنازين نفسها فسيحة..؟! الزنزانة كما كتبت «أنا» على الرقع الورقية.. عبارة عن صندوق لا يتحمل جسدًا ممدودًا..!

تمشيت وعددت خطواتي بدقة، عدةٌ عدة، كم عدد الخطوات على يمين الزنزانة، وكم عددها على يسارها..؟ ما طول الممر

كله..؟ تأملت كثيرًا خطوة «مطيع» الواسعة، حفظتها ومشيت مثلها، مشية عسكرية مختالة، اعتاد فتح برْجل حوضه واسعًا. كل المعلومات التي استخلصها، أضعها موضع شك، فعلى الأغلب لن تكون صحيحة، ولكنها تبقى السبيل الوحيد الجلي للهروب، عليَّ أن أعتمد عليها في وضع الخطة.

الممر ذو تجاه واحد يؤدي إلى ساحة الولائم، متفرع منه ممر آخر مؤدي إلى غرفة الانصياع، ومكاتب الضباط، ومكتب المستشار، ومهاجع الجنود. والاتجاه الآخر، وهو تجاه اليسار، كان مسدودًا.

تصميم المكان يوحي بأنه بلا طريق للخروج، وهذا ما كُنت أتوقعه.. لا يمكن أن يريني اللقاح أي طريق للخروج من ديجور، ولذلك فالاعتماد على الرؤية يجعل الهرب من ديجور من المستحيلات.

في الليل، وقبيل النوم، ظللت أعد خطوات «مطيع» العسكرية نحو اليمين والتي تنتهي بباب ساحة الولائم، وأعد خطواته نحو اليسار المؤدي إلى طريق مسدود.. مجموع الخطوات هو «٤٧» خطوة تزيد أو تنقص.. مرور مطيع الأول كان «٤٧» خطوة بالضبط، المرور الثاني كان «٥٠» والثالث كان «٤٨»، غالبني الملل، وبت أفكر في ملاحظة أخرى غير عدِّ خطوات مطيع المتمايلة من النعاس، فلا شيء غير مألوف في خطواته النائمة، يذهب ويغدو بطريقة اعتياديَّة، ظللت شاخص البصر نحو النافذة، أفكر، أرى

مطيع يذهب ويغدو، إلى أن أتت تلك اللحظة التي اختفى فيها بسرة فقط ما يقرُب الـ«٤٠» خطوة، وأكمل مطيع الممر كله في «٨٥» خطوة..!

برقت لي فكرة أن الطريق المسدود من الممكن أن يكون ليس مسدودًا..! ممكن أن يكون هو نفسه طريقًا الخروج..! ويمكن أيضًا أن يكون مطيع نفسه قد غالبه النعاس في يسار الممر فوقف مكانه، أو استند إلى الحائط الذي يسد الممر يفعل شيئًا.

كل الاحتمالات ممكنة.. ولكني أختار الأمل.. إنتظرت حتى صفّرت مكبرات المحجر إيذانًا بالنوم، ذهب «مطيع» مختالًا لمهجع الجنود، أُغلقت أنوار الزنازين التي ليس لها وجود من الأساس، وبقي ضوء خافت آتٍ من الممر. تأهبت لمحاولة هروب من المعتقل الذي لا باب له.

***

«٣»

أعدو نحو حائط مسدود، أخاطر بلا دليل بأنه يحجب طريق الحرية، أتلفت ورائي أخشى استيقاظ الحراس على وقع أقدامي، أنزع الحذاء، ألقيه وأنا أهرول، فيبتعد ورائي في الممر، أجري بسرعة هرٍّ مذعور، الضوء يذهب ويحضر، يتبدل الممر بين الضوء والظلام، أتمتم مذعورًا: لا.. لا تنطفئ الآن.. أتعرق وأمسح جبيني في كم ردائي الأبيض، يسكن تبادل الضوء والظلام إلى ظلمات خانقة، لا أستبين كف يدي إذا ما وضعته أمام عيني، صوت عواء ذئب يندفع من آخر الممر، والقدر يستعد للكشف عن سخامه المنتظر، سطع ضوءٌ من آخر الطرقة يبرز الحائط المسدود، يُلمّعه، ويجعله الشيء الوحيد المنار بالممر، باقي الممر أعتم، أستمر في العدو لهاثًا نحو الحائط المسدود، أتخطى ذلك العواء المستمر القادم من خلاله أملًا بالحرية، أملًا في فرصة ضئيلة للعودة إلى الديار، يركض خلفي الزمن بما أتاه الله من قوة، أهرول نحو حقيقة مغلقة ناثرًا العرق على الأرضية التي تمتد تحت أقدامي الحافية، الممر يطول كما لو كانت ذراته

تتكاثر وتنبثق من عدم، أعدو بسرعة لم تعهدها عضلاتي قط.. وعلى الرغم من سرعتي يبدو وكأن الممر يأبى أن ينتهي، يأبى المحجر هروبي كأن حي يعي، كأنني في بطن حوت ضخم يرفض التجشؤ، أتنفس الوهم، أركل هلاوس لا نهاية لها، ما هذا المكان المرعب..؟!

أي مكان خلقه الله أشد رعبًا وغرابة من محجر ديجور...؟! أي مكان أكثر عبئًا من جمهورية النَّعام...؟! هل أغرق في الأحلام كما كُنت في جاميان...؟! الحائط يربض على الأفق لا يقترب قيد أنملة، الظلام يتسرب إلى ضلوعي، يتست من الوصول نحو المنتهى، وقفت ألتقط أنفاسي وحيدًا في ظلام كاحل الفه الجدران.. الممر لا ينتهي..! الأنوار تنفتح من جديد..!

فكّرت، هل علم أحدهم بهروبي..؟!

أتلفت خلفي.. لا أحد.. أنظر من جديد نحو الحائط المسدود.. لأجده أمامي مباشرةً...! لو وصلت إليه..!

لا يفصلني عنه سوى خطوة.. وضعت راحتي على الحائط.. أسحب شهيقًا ممزوجًا بخشية ألا يصح تخميني.. دفعت الحائط.. يظهر في الحائط حز لمستطيل مضاء بالأصفر.. أدفعه أكثر.. يشع نورًا ساطعًا يؤذيني فأضع يدي على عيني اتقاءً.. إنه باب كما توقعت...! تأتي من خلفه ريح مملوءة بالصهد اللافح.. انخفضت شدة الوهج تدريجيًا.

فُتح الباب.. إنها صحراء جرداء..! لا يظهر في أفقها أملًا..!

ها أنا أهلوس.. تقلبات الرؤية لا تنتهي.. تعتصر الموجودات بعضها.. ينصهر المنطق بالجنون.. تدور الأرض وتمتد ثم تتمطى.. يأتي من خارج الباب صوت زمجرة وحش..! زمجرة حيوان مفترس..! الرمال تتحرك كالثعابين نحو الممر.. أتراجع إلى الخلف.. ينساب خط رمال مرسوم نحوي.. كأنه حيَّة تداعبني.. يتلوى.. لا أصدق ما أراه.. خط الرمال ينساب ويكتب شيئًا على أرضية الممر.. يخط عبارة ما.. يخط لام، وألف: «لا».. وأكمل «لا هر..» كتب «لا هروب ☺»..!

كتب خط الرمال عبارة «لا هروب» وبجانبها ابتسامة سمجة..!

الرمال تتحرك فتنساب للداخل.. تبدو وكأنها تهاجمني.. يهتز صوت الزمجرة الآتية من الخارج مرة أخرى.. أظهر من جانب الباب بالخارج بطريقة اسطورية.. رأس حيوانًا ما.. أنه.. أنه ذئب...!

ذئب بعيون وهَّاجة بيضاء، يتساقط من فمه لعابه على الرمال الصفراء، وأنيابه الطويلة التي تحتضن بعضها حتى الجذور، توَّاقة لاحتضان يفصله عظم..! أتراجع وأسقط من شدة الرعب.. هل عليَّ ألا أتحرك..؟! تصنمت مكاني أملًا بألا يهاجمني.. سكن موجهًا عينيه المضيئتين نحوي.

مكتبة بيت الحصريات

ركض تجاهي..! هرولت بدوري نحو الخلف وأنا أتساقط من حين إلى حين.. انقض عليَّ وأنا على ظهري.. أناوشه بكلتا يدي.. فتح فكيه وعضَّ كف يدي الأيمن.. صرخت صرخة مكتومة جزرت على شفتيَّ حتى لا أخرجها.. لا أريد أن يسمعني العساكر.. وضعت أصبعي في عينه اليمنى.. فقأتها.. أطلق عواء ألمًا.. وهرب تجاه الباب.. وقف عليه ينظر إليَّ بعين مضيئة وأخرى تنزف دمًا.. نهضت ويدي تنبض بالألم لما هشمت أنيابه عظامها.. صنعت شكل فكه بالدماء مكان غرز أسنانه.. ظلَّ واقفًا بلا حراك كأنه يعلم دوره جيدًا.. لا يريدني أن أعبر ذلك الباب.

تشققت جدران الممر.. ملأها التصدع كأن المحجر ينهار أو يتعرض لزلزال يفتك أساساته.. أختلقت جحور من رحم التصدعات.. برزت من الحجور فئران قرمزية.. كتلك التي رأيتها أول مرة حين أتيت إلى هنا.. في تلك الغرفة العفنة.. فئران كُثر.. تحيط بي من كل تجاه.. الممر كله أصبح وكأنه مفروش بالفئران القرمزية.. تحوَّل لونه من أبيض خالص.. إلى قرمزي لا يحوي بياضًا..!

الفئران تتسلق ساقيَّ.. أركل.. ألتف حول نفسي.. الذئب يستعد لهجوم جديد.. همَّ بالهجوم راكضًا.. أغمضت عيني.. أثنتم لنفسي: كل هذا ليس حقيقي.. كل هذا ليس حقيقيًا يا خالد.. فتحت عيني لأجده يقفز نحوي ويخترق جسدي كأني ضوء هلامي..! صار خلفي.. وجلس على الأرض ككلب أليف حتى غطته الفئران بالكامل ولم تذر منه إلا عظامًا...!

أكلته...!

عبرت الباب إلى خارج ديجور نحو صحراء جرداء بلا نهاية.. شمسها حارة لا تشبه شمس جمهورية النَّعام.. بل كانت شمس كوكب الأرض..! أين أنا..؟!

مشيت ساعات تحت القيظ حتى اختفى الباب من خلفي.. الشمس في السماء لا ترحم.. وكل الاتجاهات ترمي بي نحو الموت.. شفتاي الجافتان تريدان قطرة ماء.. سقطت أرضًا.. أعتصر حفن الرمال الساخنة بيدي من الغيط.. إنها النهاية.. لقد هربت من ديجور إلى الموت...!

ظهر ظلٌّ خفيف بجانبي.. أنزع وجهي من الرمال التي تلاصقت به لأرى مصدر الظل.. لأجد رجلًا بحذاء فاخر في جلباب بدوي مُعمم.

اعتقدت أنني نجوت.. وثارت البسمة في داخلي عوضًا عن شفتي المشققتين واللتيين لا تقدران على التبسم.. أنظر لأعلى أستبين وجهه.. لقد كان هو.. إنه آشر.. المستشار آشر.

دوت أبواق تشبه أبواق الاستيقاظ.

***

«٣»

استيقظت على دوي زمير الاستيقاظ الرخو، طرقات الأحذية العسكرية تصدر جلبة. تصمّم مطيع أمام الزنزانة كأي يوم عادي، ينتظر خروجي لأداء التمشية الصباحية، نظرت إلى يدي اليمنى، سليمة، بدون أية جروح، لا أرى عليها أثار عضّ، الحذاء الذي رميته ما زال في قدمي، لا أبدو أنني حاولت الهروب أصلًا...! ما الذي حدث البارحة...؟! الأمر يبدو وكأنني نمت كأي يوم عادي...! هيًا يا زائد. اخرج.. فالمطيع فخرجت أتمشى بالممر الذي كُنت أعدو به ليلًا، أو هُيء لي، بأنني كُنت أعدو به ليلًا، وليس هذا وفقط، بل اخترقت حائطه السد أيضًا..!

ما هذا الجنون..؟! لا أعتقد أن ذلك حدث بالفعل...!

خرج المستشار من أحد تفريعات الممر، وقف جميع الحراس انتباهًا.. أمرنا الحراس بالتوقف حتى يمر.. نظر إلي مبتسمًا: أليس يومًا جميلًا..؟ بادلته البسمة ورحل.

صدحت المكبرات بالخداع، الشوارع خالية والجميع منهمك في عمله، الجميع في سعادة وأمان في ظل جمهورية النَّعام المُعظمة.

أنهينا التمشية وعُدت إلى الزنزانة الواسعة البيضاء بالرؤية، الضيقة الخانقة بالإدراك.

قبيل الذهاب إلى ساحة الولائم وقف المستشار أمام الزنزانة، لا يستطيع بالطبع الدخول إلى ذلك الصندوق الضيق، لا يعلم أنني أعرف سبب وقوفه بالخارج مما قرأته في الرقع الورقيَّة، أي حوار بيني وبينه عند زنزانتي تستوجب خروجي أنا إليه.

- «في خلال أيام سنجري لك عملية تجميليَّة.. ستكون بعدها على استعداد لإلقاء خطابك على الشعب.. كم تحبك بلادنا يا زائد...!»

هززت رأسي متبسمًا، أصرخ في نفسي: كاذب! أنت كاذب! بلادك لا تحبني.. وأنا لستُ زائد أصلًا...!

حضر الليل وحضر معه أمل جديد في الهروب، قررت تحويل ما رأيته البارحة إلى حقيقة، حتمًا كان حلمًا، ولكنني قررت أن أفعلها الليلة، التعبيرات على وجه آثر ومطيع طبيعية، لأبدو وكأنهم يواجهون سجينًا هرب بالأمس..!

سأفعلها كما لو كانت أول مرة.

دوت صفارات النوم، غُلقت الجفون، رجع مطبع مختالًا في نعاسه إلى مهجع الجنود، غُلقت أنوار الزنازين التي يتوَّهمها المساجين، بقيت إضاءات الممر التي باتت تتبادل بين الظلام والنور كما تخيلت البارحة...! دفعت الباب بقدمي دفعة خفيفة، الباب في الأساس مربع صفيح هشّ، فُتح، نزعت حذائي ووضعته بجانب الزنزانة، حتى إذا فشلت محاولة الهروب، عُدت أدراجي كأنه لم يحدث شيء.

عدوت عدو المذعور، أثير العرق وأمسحه بكم ردائي الخفيف، يسكن تبادل الضوء والظلام إلى ظلمات خانقة، لا أستبين كف يدي إذا ما وضعته أمام عيني، تمتص الأرض أقدامي، لا أكاد أتمكن من رفع قدم. حضر النور إلى الممر ثانية، وجاء معه برياح عاتية رطبة، بها رائحة بحر مالح، كالح، مدهوش من السريالية التي تفتك بدماغي منذ البارحة، يتناثر في الممر أوراق كثيرة، تتطاير نحوي، تتكاثر وتندفع، تدور وتتموج مع دوامات الرياح الرطبة، تلتصق الأوراق بجسدي ووجهي من غزارتها، حواف الأوراق تخفني فتشطر بشري شطرين، تؤلمني..! يكاد يصل حومها لحمي سكين..! حادة ومُعذِّبة.. أتألم في آنٍ مكتوم.. الأوراق تحمل أرقامًا وأشكالًا هندسيَّة متقاطعة.. أرقامًا متشابهة...!

٥٠٥ ٧٧٧ ٥١٥ ٥٠٥ ٣٣٣ ٣١٣ ١٠١ ٩٩٩ ٩٠٩ ٢٠٢ ٠٠

٨٨٨ ٦٦٦

▲●■▲●■▲●■▲●■▲●■▲●■▲●■

٥٠٥ ٧٠٧ ٥١٥ ٥٠٥ ٣٣ ١٤١٤ ١٠١١ ٩٩ ٠٠ ٢٢ ٨٢٨٨

٦١٦ ٠٠٠٠

▲●■▲●■▲●■▲●■▲●■▲●■▲●■

الممر تشوبه زرقة والجدران تشع نفس الأرقام ملونة بلون الشرر الأصفر، أقوام تيار الرياح العاتية الآتية من آخر الممر المسدود من الأساس...! المحجر يحي هروبي، المحجر يكترث للسجين الأهم بديجور.. يهتز الماضي فينفث ورقًا.. هل أهرب من المحجر أم دماغي...؟! .. كيف أهرب من دماغي...؟! كيف يهرب المرء من سراديب دماغه...؟ كيف يهرب من وهمه...؟

جلدي المشطور ينز دماء.. الأوراق تستمر بالقطع والتطاير. أطلق صرخة مكتومة خشية أن يسمعها الحراس، تسكن الأوراق من فورها، تسكن في الهواء.! مكوَّمة في حزمة كبيرة وكثيفة ومعلقة وحدها في الهواء...!

تتحرك من جديد، تتجمع لتشكل جدارًا ورقيًا سميكًا.. يسد الممر.. يمنعني المحجر من العبور.. يمنعني دماغي عن الحرية.. استجمعت قواي.. وحركت قدميَّ الرهيفتين الحافيتين نحو الجدار الورقي.. غُصت به.. أسبح بالورق.. أضرب بذراعيَّ وأنفض الورق عن يميني ويساري.. الأرقام والأشكال المكتوبة على الأوراق تعبث بدماغي.. كأنها مكتوبة على دماغي، لا على

الأوراق.. الحائط الورقي يبدو سميكًا بطول الممر كله..! أكاد أختنق...! خرجت من الأوراق ساقطًا على الأرض.. أمام الحائط السد.. أستنشق هواء الوهم.. أستعد للحرية.. دفعت الحائط.. أسحب شهيقًا ممزوجًا بخشية ألا يصح تخميني.. يظهر في الحائط حز لمستطيل مضاء بالأصفر.. أدفعه أكثر.. يشع نورًا ساطعًا يؤذيني فأضع يدي على عيني اتقاءً.. إنه باب كما تخيلت.. الريح الرطبة تزداد.. معبئة برذاذ بارد.. فُتح.. انخفضت شدة السطع تدريجيًا لأرى ما خلفه.

إنه.. محيط...!

أنا على سطح بارجة حربية وسط محيط ليس في أفقه يابسة...! وقفت مدهوشًا.. أتطلع إلى الأمل المتلاشي مع أمواج البحر.. قبل أن تدوي أبواق في السماء تشبه أبواق الاستيقاظ.. أصرخ في السماء بقهرٍ.. أستيقظ في زنزانتي على زمير الاستيقاظ.

***

- فصلٌ ثامن عشر -

«١»

لا مفر من محجر ديجور.

تُفتح أبواب الزنازين، السجّان والمساجين في الجمهوريّة سواء.. «لا هروب!».

أنا في حربٍ سريالية مع دماغي.. أنا في الأساس أحاول الفرار مني، كيف أهرب من سراديب دماغي...؟! العسكر يتثاءبون.. لمَ الخوف من مساجين لا يملكون حق الأمل..؟! لهم الحق في التثاؤب، هذا سجنٌ لا يُحرس، محجر ديجور منزوع من متعة الهروب.

في الصباح، شُدَّ أحد المساجين ميتًا على وجه.. يلحس أرضية الممر.. الموت يأتي من الداخل.. فقط حين ترفض النفس الحياة.. لقد مات في زنزانته وهو يحاول الهروب! قالها لي ذلك القزم ذو الهامة العريضة على الطعام.

كيف حاول الهروب وقد مات في زنزانته..؟!

اقفز في المحيط أو مت في بقعة نائية من الصحراء وستموت على فورك في زنزانتك الضيقة التي لم تبرحها أبدًا.. اللقاح الوطني عابث بالأدمغة، الوساوس الكاذبة تجعل من المحجر معتقلًا بلا باب حقًا.. يجب علينا التغلب على أفكارنا قبل التغلب على وطاويط الظلم.

أحاول الهروب من جديد.

كل هذا وهم.. سأعبر الصحراء.. سأقفز في المحيط.

أنزع الحذاء.. أطوي الممر الذي كاد تقديسه وشيكًا.. أجري في امتداده إلى مالا نهاية.

يتهدَّم الممر.. أسقط في متاهة باردة.. جدرانها عالية.. أهرول ضالًا أبحث عن نهايتها.. أركض بركبتين نخشبتا من البرد.. أنفث البخار.. هذه متاهة دماغي.. جدرانها هي جدران الحجر البيضاء.. أحل لغز دماغي.. وصلت نهاية المتاهة.. أصل للحائط السد.. أدفعه.. لأجد نفسي في أرضٍ مجمدَّة.. ثلجٌ أبيض لا حد له.

صحوت وما الصحوة باختياري.

أحاول الهروب.. أركض في الممر بلا نهاية.. أدفع الجدار كما دفعته مرارًا.. تسحبني مادة الكون السوداء في فضاء شاسع.. معلق في اللاشيء.. فضاء كاحل لا ينيره نجمة.. أختنق فأتذكر

أنه وهمٌ.. صحوت، وهذه المرة لم أكن في زنزانتي، بل كُنت مقيدًا على ذلك الكرسي الشيطاني أمام المستشار آشر الذي قطب حاجبيه من الغضب.

***

«٢»

أمر المستشار آشر، مطيعًا وحارسين آخرين، فذهبا من فورهما وأتيا بالقزم ذي الوجه المستطيل، والذي بدت سحنته لوهلة أكثر استطالة من أثر الكدماتِ، انتفخت بوجهه بقع، ودهست بقع، وإن كانت البقع كلها تتفق في الزرقة المغطاة بالدم. يتلفت مذعورًا بعدما رُمي على الأرضية أمام المستشار، الضرب في قوانين الجمهوريَّة مُجرم قانونيًا، ولكنه كأي معتقل يمكن أن يُخترق به كل القواعد، في أصفى النوايا يمكن أن يُضرب أحدُهم في لحظة غضب عارم، وهذا ما بدا واقعًا أمامي. مرر مطيع الرقع الورقيَّة خاصتي إلى آشر، لقد وجدوها..!! لوَّح بها إليَّ ثم أخذ يتلو بصوت مُتضخم وكأنه يتهكم أو يمثل على مسرح ما:

قال لي القزم هامسًا بأنني يجب أن أكتب كل ما أذكره، يجب أن أحفظ هويتي لأنها أملهم الوحيد بالنجاة.. «إذا تمكَّنوا منك.. سيقلبونك ضدنا.. تماسك ولا تفضح ثورتنا.. إذا ذهبت هذه الانتفاضة هباءً.. سننتظر قرونًا أخرى حتى يحدث مثلها.. فقط اكتب...!»

قلَّب الأوراق، يصطنع لامبالاة لا تناسب الموقف برمته:

يجب قبل كل شيء الاعتراف بأني على دراية كاملة، بأن قراءة آخرين لتلك الأوراق هي المستحيل بعينه، لن يقرأ تلك الأوراق شخص يمكنه مساعدتي، وإذا قرأها أحدُهم، فعلى الأرجح سيكون المستشار «آشر» أو «مطيعًا» أو ذلك الضابط ذا النياشين المُذهبة والمُفضضة، وحتمًا سأكون حينها في مأزقٍ مأساوي. أقول ذلك لأبين لنفسي أولًا، أنني لن أستفيد شيئًا من تلك الكتابة، سوى الحفاظ على هويَّتي الآخذة في التلاشي، تنفيذًا مُتأخرًا لمقترح السجين القزم، والذي بدا لي أنه على حق. استرسل بتعجب بينما ثلَّث شفته السفلية:

– «إذن.. أنت تلاعبنا..! تعبث معنا...! لقد خدعتنا يا.. يا خالد»...

أكمل:

– «لا داعي لقول زائد إذن».

– «من الأفضل ألا تتكلم عن الخداع».

صمت ولاح وكأنه فوجئ من نبرتي بالشجاعة، والتي لم يسمعها قبلًا:

– «هل تعلم ماذا فعلت بذلك القصير المسكين..؟»

نظرت إلى القزم وقد استمر في ذعره بلا توقف.

استرسل آشر:

- «لقد قدمته كلحم بارد للشعب الذي تضحيان أنتما الاثنان من أجله.. لا يعرف أنك بهذه السذاجة لتذكره فيما تكتب.. علام كل ذلك؟ من أجل من...؟!»

وجه كلامه للقزم:

- «من أجل من تهزون استقرار قرون من الأمان...؟! من أجل من تفسد على الجميع سعادته واحتفاءه بيأسنا الاعلى...؟!»

ذهب ذعر القزم وأتى بعده صمت واثق.. شعر المستشار بثقته فأمر الحرّاس:

- «خذوه».

في حين تفوه القزم بصعوبة وألم:

- «أنت لم تتسبب في قتلي.. لا تشعر بأي ذنب.. لا تخفض لهم يا هذا.. ساعدنا.. ساعدنا..».

تخافض الصوت إلى أن ذهب، والمستشار مثلي، نظر إلى الباب حتى انقطع الصوت، ثم قال قبل أن يلتفت نحوي كليًّا:

- «لم لا تقص عليَّ مغامرات هرويك من ديجور يا خالد..؟ هل عقلك مؤلف جيد لنستمع بما رأيت..؟!»

دهشت! كيف عرف..؟!

أكمل:

- «وجدناك مرميًّا خارج زنزانتك أكثر من خمس مرات.. بعد المرة الأولى أخبرت كل من يتعامل معك من الحراس أن يعاملوك كما لو لم تحاول الهروب.. في كل مرة تضعك في زنزانتك بعدما نستمع إلى ما تتفوه به وأنت غارق في الأوهام.. ومن هنا.. عرفنا قصة أنك تكتب على رقع الطعام الورقيَّة.. فتشنا عنها في زنزانتك ووجدناها.. أنت من وجهتنا لمكان الورق».

تبسم كما لو أن كلامه بعث في نفسه نشوة انتصار.. استفزتني بسمته ودفعت بدني ميامني وميامسري بلا فائدة.. أنا مقيد في الكرسي كامل القيد.. جمّعتها داخل فمي.

وبصقت في وجهه.. سالت على وجهه، فمسحها في برود ولم يغمض عينيه أو يرمش جفنه:

- «أفضل ما فعله أجدادنا يا خالد.. هو التخلي عن البحث وراء الحقيقة.. لم يا خالد..؟ هل تعرف..؟».

أكمل:

- «لأن معرفة الحقائق.. تقتل».

فصرخ ونادى: مطيع..! مطيع..!

أمره بأخذي إلى زنزانتي من جديد.

***

«٣»

أمرني الطبيب فارتديت قفازين من البلاستيك الشفاف في الكفين، ومثلهما في القدمين، دخلت غرفة الجراحة مستلقيًا على عربة جرار، لا يتراءى في سمائي وأنا في تلك الهيئة إلا الطبيب بكمامته الزرقاء، كأنها سحابة عابرة ضالة، أخذت بعد وهلة من إبرة المخدر، في التخفي وراء الضباب، حتى غابت مع صاحبها، أو غبت أنا.

عندما أفقت نظرت إلى المرآة بجانب السرير الطبي، والمستشار والطبيب يعانيان إنجازهما التاريخي في نشوة، لقد أجريا عليَّ عملية تجميليَّة، لقد أصبحت المسخ الذي يريدانه..! لم أشعر بتغيير كبير، لأن زائدًا في الأساس كان يشبهني لأبعد حد، وكأنه نظيري في ذلك العالم، إلا أنه لاح على وجهي، بعد تركيز عميق، ندبة صغيرة بالجبهة، وبعد تقاطيع في الفم والأنف لم تكن موجودة، تلك التفاصيل الصغيرة لا تُرى في أغلب الأحايين بالعين العادية، إلا أن الخطاب الذي سألقيه على الشعب أجبرهم على إجراء تلك التعديلات، هم لا يشكون بطبيعة الحال في أن

الشعب سيصدق الخطاب كله، من الصعب التشكيك في ذلك، ولكنه إجراء يخص جماعة الأندروبست والأفراد الذين كفوا عن تناول اللقاح، هم فقط من سيبحثون وراء الحكومة وسيتقصون من كل أخبارهم والصور المعروضة عليهم، من يدري..؟

قد يلاحظ أحدُّهم الاختلاف البسيط ويعرضه على الشعب. الخطاب هو خطة الجمهوريَّة والمعجزة السماوية التي نزلت من السماء لمساعدة الحكومة العاجزة تجاه الحشود الثائرة، لا يمكن المخاطرة بأدق التفاصيل. مجرد أن أتكلم أمام الجميع عن انهزامي وخضوعي للجمهوريَّة، حتى يعي الجميع انهزام قائدهم، وهو أمر سيدمر كافة تخطيطات الأندروبست، ويقصف أي أمل للشعب في الثورة على الحكومة.

لاحت الحرية الآن من ضروب الاستحالة، والأمل في الهروب أو الرجوع إلى عالمي بات أمرًا منتهيًا، وسواء محاولات الهروب الواهمة أو الكتابة لحفظ هويتي، فكلها كشفت، ولم يبق لي إلا مزاولة باقي أيام حياتي كما يريدون هم، ولست كما أريد أنا.

فيما بعد، وفي صباح أبعد عن الروتينية العادية، وقف آشر أمام زنزانتي ولم يتوانَ عن إخباري لحظة، بأني سأتلو الخطاب على الشعب «غدًا»! وأعقب: باقي لدينا شيئان آخران يا خالد.. أحدهما أن نعيدك إلى صوبك من جديد.. وهذا بسيط.. يكفي جلسة انصياع واحدة.

أنت سمعت كلامه حتى تقافز فيَّ الخوف، وتعاظم الفزع الذي قد خمد من الاعتياد على روتينية المنظومة بدون جلسات الانصياع، أنا على وشك تجربة الجلسة وكأنها أول مرَّة، لم يتجاهل عقلي ما كتبته وما وصفته من آلم ورُعب ذلك الكرسي الشيطاني، أتذكر المكتوب على الرقع الورقيَّة، أما ما شعرت به فلا أتذكره على الإطلاق، لأنه في عقل زائد الذي أحله الآن، لم يحدث..!

قادني المستشار إلى أحد غرف الانصياع، التي بدت أوسع من سابقتها. مطيع ورائي في أي مكان أذهب إليه، في منتصف الغرفة طاولة بكرسيين، يبدو أنهما وضعا لأجل سبب ما، جالس على الكرسي من..؟!

أنه زائد...!! زائد الحقيقي...!

رأسه منكس، لا يمكنني أني أرى ملامحه، ولكن من الذي يرى نفسه ولا يعرفها غير كاذب أو مغبون...؟! مقيد في الكرسي بأربطة متينة، ما زالوا يحشون فكره على الرغم من انهيار جسده.

تقدمت نحو الطاولة أجر قدمًا وراء الأخرى، لا أصدق أنني أمام نظيري، قرأت في الأوراق أني رأيته مرَّة واحدة، ولكني الآن يمتلكني الانبهار لأول مرَّة، لا توجد في عقلي ذكرى كهذه..! مشاهدة نفسك هو اللحظة الأكثر غرابة ورعبًا التي قد يتوقعها أحدٌهم.. لا شيء مُرعب في العالم الواقعي أكثر من نفسك..!

أمر في المستشار آشر بالجلوس ضاغطًا على عضدي، ولم يكن في وسع زائد حمل رأسه المنكس من شدة الوهن، تيبَّس آشر في مكانه، يتابع بشغف ذلك اللقاء الأسطوري، تتناثر الشماتة من عينه تجاه زائد، أمسك بشعر زائد الذي تكاشف عن إهمال، شدَّه للوراء رافعًا رأسه حتى كاد أن يمزق فروة رأسه: ما رأيك بتلك المفاجأة يا قائد؟ هذا أفضل أليس كذلك..؟! عين زائد لم تكن كهيئته المتهالكة، كانت متماسكة، ثابتة كالجبال على الرغم من يأسه الذي وبالتأكيد يلوح لأي مُشاهد له.. لقد انتهى الأمر.. لقد هُزمتم وفازت جمهوريتنا المُزعومة.. جاء أحد العسكر راكضًا يطلق لهاثه ككلب، التفت له المستشار وما زال ممسكًا بشعر زائد، وحدث وقتها ما لم يُتوقع من ذلك الصنم ذي العين الثابتة، ابتسم زائد ابتسامة خفية ناظرًا إليَّ، كأنه انتظر تلك اللحظة التي يلتفت المستشار فيها بعيدًا..!

قال العسكري الغلبان وهو في حلق الباب: سيدي.. الهمَّاس الأعلى يحاول الاتصال بك من مكتبك. إنه أمر عاجل..!

ترك شعر زائد التي تلاشت بسمته فورًا: سأعود حالًا.

ووجه نظره إلى مطيع: انتظر على الباب يا مطيع.. يبدو أنهم في حاجة إلى خلوة مع أنفسهم...!

وتبَّسم ابتسامة مُتكلفة ثم رحل.

العالم كله مزدحم، فلما وجد أحدُهم نفسه وسط زحام الكون كله. وسط زحام العوالم التقيت بنفسي، على الرغم من أنني فتشت شرقًا وغربًا في عالمي، ولم أجده، وجدته خارج عالمي، أجلس أمام نفسي المقيدة، يلوح على الوجوه يأس كونين، صدح صوته سريعًا عميقًا من بين العالمين:

- «من أنت..؟»

- «اسمي خالد».

- «خالد..؟ لا تبدو كخالد».

- «هذا اسمي وليس صفتي».

- «وهل هناك فرق..؟ كيف جئت إلى هنا..؟»

سار الحديث هادئًا رتيبًا، كأنه حقًا بين الذات ونفسها..!

- «أنا من عالم آخر.. لست من جمهوريَّة النِّعام.. قد يكون ذلك ترهات بالنسبة لك.. ولكنه الحقيقة».

- «الحقيقة..؟ أنا أصدقك.. لقد جعلونا نصدق أننا الجمهوريَّة الوحيدة في العالم ونحن صغار.. قد نكون لسنا العالم الوحيد أيضًا.. من يدري..؟»

استرسل بنبرة حسرة:

- «من المؤسف أن تكون أنت عقاب الله لذلك الشعب الغافل بعد كل هذه السنين.. لقد انتظرنا طويلًا لتتحرك المياه الراكدة.. حتى وإن كانت انتفاضة الشعب طلبًا لمزيد من الخداع.. هذا الشعب سيصحو يومًا ما.. لا تقف أمامه يا خالد».

- «أنا لا أقف أمام أحد.. ليس بيدي حيلة».

- «الجميع بيده حيلة.. منَّا من يراها.. ومنَّا من يجد في تجاهلها راحة».

- «لقد قاومت.. لا تحملني ذنب غفلتكم...!»

- «لا تلقي ذلك الخطاب».

- «كيف؟ وهل تترك لي أجهزتكم الشيطانية أي خيار..؟! ماذا أفعل..؟!»

نظر زائد بغتة نحو الباب الذي يقف عليه مطيع، قال:

- «أنا من سأفعل».

وفي غضون ثانية، كان زائد قد حل من قيد الأربطة وقفز بغتة من على الطاولة قفزة فهد بكامل قواه! انقض عليّ.. ولفَّ الرباط المتصل بين ساعديه حول عنقي.. صارخًا: آسف يجب أن تموت.. مُت! مُت!

يذهب الوجود نحو العتمة.. انسحقت رئتاي لا تجد نسيمًا واحدًا يغيثها.. استند في إنقاذي على مطيع الذي يقف خارج

الغرفة.. تأخر مطيع حتى وعيت أن الموت قريب.. لاح لي ظل معتم لداليا وراءه. كيف يبدو شكلها يا تُرى..؟ يبدو أنها توافقه ذلك الحل.. موتي سيريحني وينجي شعبًا كاملًا.

جاء الحراس وبينهم مطيع يدفعون زائدًا بعيدًا عني، وأنا أسعل وأشهق مخنوقًا.. أتطلع إليه وقد رفع كفيه الاثنين على رأسه واضعًا إبهاميه وسبابتيه على عينه وأذنه، ولم يعق تلك الحركة الرباط المتصل بين ساعديه، فقأ عينيه وأذنه وأخذ يقهقه بينما تتناثر الدماء من رأسه كله:

لم أمت على كذبكم. قاوم يا خالد.. قاوم أو اقتل نفسك.. قاوم أو افقأ عينيك واخرق أذنك.

في مساء ذلك اليوم.. أخبرني المستشار باسمًا بخبر إعدام زائد.. قبل أن يجرني مع حارسين إلى جلسة انصياع أخيرة، استعد بها لإلقاء الخطاب التاريخي.

***

- فصلٌ تاسع عشر -

«١»

لتنطلي الخدعة على الشعب، كان عليَّ أن أُلقي الخطاب كُله على الهواء مباشرةً. نظرت إلى الكاميرا التي شعَّت ضوءًا مؤذيًا من جانب العدسة، وبدأ المخرج منتشيًا بنصرٍ مُسبق بالعد: سنكون على الهواء بعد ٣.. ٢.. ١.. سنخرج للبثّ..؟! لا لم يكن عدًّا للخروج على الهواء مباشرةً؛ لقد كان وقت هروبي..!

دوّت صافرات الإنذار بعدما أنهى المخرج عدَّه، سواء أكان الأمر مدروسًا ومرتبطًا بوقت بدأ التصوير أم لا، ولكنه بدا حقًّا وكأن المخرج يعد إيذانًا ببدوي صافرات الإنذار بالانطلاق.

هُناك.. من يخترق.. محجر ديجور..!

هُناك من يخترق المستحيل..!!

أفاق هذا الشعب من نومه «العضوي» على إعلانات عبر كل وسائل الأعلام البصريَّة والسمعيَّة عن ذلك الخطاب الذي سيغير مجريات الأمور.

سيلقي اليوم زائد، قائد الأندروبست تصريحات خطيرة من داخل محجره بجنوب البلاد، فترقبونا...!

تهيَّب الشعب واستعد الجميع لتلك اللحظة الفارقة في تاريخ جمهوريَّة النَّعام، احتشد الكل في الميادين لأول مرَّة جنبًا إلى جنب، لم يجمعهم غير ذلك الفضول الذي نسيه معظمهم وسط غبار الروتين وتحت تأثير اللقاح الوطني.

بالتوازي مع ذلك التجمهر الذي تركته الحكومة لأول مرَّة منذ بدء الانتفاضة بدون فض، كُنت قد خرجت من غرفة الانصياع بعد آخر جلسة عُدت بها إلى أحضان الجمهوريَّة، لم يساورني شكٌّ بأنني «زائد»، الكافر بتعاليم الجمهوريَّة، قائد الكفرة، قائد الأندروبست، أخذوني بقيادة المستشار آشر إلى الوحدة الإعلاميَّة بالمحجر، وقف آشر أمامي بعدما طلب مني النهوض بضع ثوانٍ لألقي القسم الجمهوري، صورت الكاميرات تلك اللحظة التاريخية، انطلقت الفلاشات والومضات تصور زائدًا وهو يخضع لتعاليم جمهوريته ويرجع عن كفره وأفكاره السافرة، تلوت مرددًا خلفه القسم الذي بدأ بـ«أقسم بالحق المتواري خلف السماوات» وأنهيته بـ«بأني سأدافع عن أمن جمهوريَّة النَّعام وتعاليمها مهما كلَّف الأمر.. الكذب.. الوطن.. همَّاسنا الأعلى».. كانت نبرتي

رسمية مثله، ألاحظ نفسي كالآلي، أردد كلماته ونبرته، أتعجب من نفسي ولا أجيد غير التعجب، كُنت كسمكة ضالة، لا أفكر إلا في اللحظة الحالية، كأني أولد من جديد كل ثانية بنفس الذكريات والمشاهد التي تتقافز أمامي عيني بوضوح، مشاهد من حياة زائد، سواء حدثت أم لا. أشعر بنفسي وأنا أفتعل إيماءاته وحركاته الجسدية كما علموني في غرف الانصياع، يستجيب جسدي لهم كامل الاستجابة، وبين كل هذه الأمور، استمر جزء من عقلي يعلم أن كل ما أفتعله وأراه هو وهم، ولكني جسدي يأبى أن يستجيب لذلك الجزء الضامر من الحق.

دخل وزير الإعلام الغرفة متأخرًا، تأسف للمستشار عن التأخير، وكان عسكريًا أيضًا، نياشينه المذهبة بدت لو أنها تثقل حركته، على كتفه ثلاث نعامات ذهبية. أضاع ما يقرب عشر دقائق في تلقينه الإعلامي لي، بينما وقف المستشار يتعجله ويتأفف، وكان تلقينه عن تلك الأشياء التي يجب أن تحدث أمام الكاميرا، لا ترتجل، ضع يديك على ركبتيك أثناء الجلوس، انظر إلى الكاميرا بعينين لا تهتزان.. وأخيرًا عُرض الخطاب على شاشة بجانب العدسة والفلاش اللامع، وأعطوني الأمر بالتأهب.

انتهى العد التنازلي.. ٣.. ٢.. ١.. وبدأت بدورها صافرات الإنذار بالدوي وسط جلبة، وتلفُّت من آشر والوزير والحرَّاس، وتُركت الكاميرا على الهواء مباشرة لثوانٍ ثم أمر الوزير مخرجه بالتوقف! فيما زعق المستشار له:

- «لا تتوقف...!»

فرد الآخر عليه:

- «لا يمكن أن تظهر تلك الصافرات بالخطاب.. سيعي الشعب وجود مشكلة.. خُذ حراسك واذهب لترى ما يحدث..!».

ونفذ المستشار الأمر، ليس لأن الوزير رتبته أكبر منه فحسب، بل لأن الأمر كان يتطلب ذلك فعلًا. وفي أثناء ذلك، كُنت جالس على الكرسي كالصنم، أنظر لمن يركض ويغدو، ومكث الوزير والعاملون على الخطاب ومطيع معي في الغرفة فيما ذهب الآخرون لقضاء حوائجهم.

المستشار يتفقد محجره الذي على وشك الاقتحام من مجهولين، والضباط والحرَّاس كلٌ منهم في مكانه، ورفعت حالة الطوارئ لدرجة أن أنوار المحجر كانت تتبادل بين الأحمر القاتم والأبيض.

بعد دقيقة أو تقل، بدأ مكبرات الصوت تصدح بصوت المستشار آشر بوجوب قتل أي غريب يدخل محجر ديجور:

- «لا تتهاونوا أقتلوا أعداء الجمهوريَّة.. أقتلوا هؤلاء الكافرين!»

كل الحرَّاس شدت أجزاء الأسلحة مصدرة تكتكة متداخلة بعد تلك الدعوة الواضحة بالقتل، ودخل الضابط الشاب ذو النياشين بعدما بدا وكأنه أخذ أمرًا خاصًا بحراستي شخصيًا،

واستمرت الجلبة وخفقان الأحذية دقائق أخرى حتى سمعنا صوت أطلاق نار يعلو المحجر، الحرب بدت لو أنها قامت في بقعة واحدة، انبطح الكل لا إراديًا بعد أول طلقة، كما لو كانوا مدربين على فعلها معًا، فيما اكتفيت أنا بعدم الحراك كحجرٍ لا يعي، أنت أوامر بإخراج الوزير وكل العاملين المدنيين بالأعلام إلى الخارج.. خرجوا منبطحين وبقيت أنا ومطيع والضابط.. وحين اشتد دوي إطلاق النار، أتى مطيع وبطحني أرضًا بعنف، تأذى قفصي الصدري من يبوس الأرضية وقوة البطحة، وضع مسدسًا خلف عنقي، ضاغطًا عليه فيؤلمني بوزه، ارتاح الضابط لفعلة مطيع، حتى رفع مطيع المسدس، ولم أكن أرى في تلك الوضعية غير الضابط الشاب واقفًا موجهًا مسدسه نحو الباب.

خر ساقطًا فجأة..! لقد ضربه مطيع..!

مُطيع، ليس مُطيع!

بقيت عين الضابط مفتوحة، لقد كانت رصاصة تشل الأعضاء، عرفت ذلك، لأن مطيع ضربني بها بعد ذلك مباشرة. دخل المقتحمون الغرفة، يرتدون أقنعة، ولباسًا موحدًا، لا يحملون أية أسلحة، كانوا خمسة أو ست أشخاص من بينهم قائدهم الذي أخذ بالإشارة لهم دون نبس كلمة.. شعرت بفزعٍ غير مبرر تجاههم، على الرغم من أنهم هنا لإنقاذي.. عرفت بعد ذلك أنه من تأثير اللقاح والجلسات.. حواسي تعمل وجسدي مشلول عن أي حركة، يبدو أن تلك المادة تشبه إلى حدٍّ كبير المادة التي

حُقنت بها مرارًا بجلسات الانصياع.. الخوف تزايد حتى تهيأ لي أن هؤلاء البشر وحوش، أو ثعابين! قادوني محمولًا ومعهم مطيع تحت أطلاق نار لا ينتهي.. يتقدمنا قائدهم المُقنع، تقدمنا نحو الخروج نخترق حوائط مسدودة! لا يخافون أي ذئاب تعترضهم! بدا وكأنهم لا يرون تلك الحيطان، لا يرون ما أراه.. وقفنا عند باب كبير، أنزلوني وأوقفوني على قدميَّ ممسكين بي، فتحوا الباب، نظرت إلى أسفل وفزعت..! لقد كُنَّا على شفا جبل شاهق..! لا يظهر من تحتي غير الضباب..!

بدوا أنهم سيرمون بي من على تلك الحافة..! وقف قائدهم بجانبي، أهز له رأسي يمنة ويسرة، لا تلقِ بي..!

نزع القائد قناعه.. لينسل شعرها من تحته.. ويلوح على وجهها ملامح جادة.. همت بها غاية الهيام، نسيت نفسي، وزُجَّ بي من أعلى الحافة، وظللت أنظر لها بينما أهوي كحجرٍ ثقيل، وهي مشرئبة من على الحافة تتأملني.

لقد كانت هي.. لقد كانت داليا.

***

«٣»

عرفتها من أول نظرة، رغم أن دماغي لا تحوي أي تصور لملامحها بعد آخر جلسة انصياع، ولكني عرفتها، أنها هي، أنها داليا.

استيقظت في غرفة فارغة إلا من سرير مُستلقي عليه، ومحلول طبي مُتدلٍ من عمود، يصل بين كيس المحلول وجسدي أنبوب بطرفه إبرة، ما هي إلا لحظات حتى عملت حواسي المعطوبة، لست وحدي بالغرفة، اتجاه نظري نحو السقف، يغشاني الضباب، لا أرى الوجوه التي تهمهم، دخل أحدُّهم حيز الرؤية، عانيت لأستبين ملامحه التي تبددها غبشة.

- «إنه يفيق!»

كان صوتها.. صوت داليا.

تم تنقية الرؤية بالتدريج، فسحبت نفسي للخلف خالقًا مساحة واسعة من الرؤية، ستة أشخاص من بينهم داليا ومطيع،

ما إن نهضت نصف نهضة حتى همُّوا بالتصفيق معًا، داليا ترتدي ملابس غريبة، رمادية، تنتمي لذلك الطراز الخفيف من ملابس الجمهوريَّة، وعيت أن كلهم يرتدي الرمادي.

- «اتركونا وحدنا».

قالتها بنبرة قيادية قبل أن يذهب الجميع من فورهم، وتقدمت داليا بخطوات نحوي مقتضبة، تكلمتُ أقطع صمتي.

- «كيف..؟!»

- «كيف ماذا..؟!»

- «داليا..!»

- «من داليا..؟! أتحتاج مزيدًا من الراحة..؟»

تذكرت وقتها ما كتبته على الرقع الورقيَّة وقرأته فيما بعد، إذا كان مطيع شبيهًا لصديقي ماجد الذي عرفته في عالمي.. فمن تقف أمامي الآن هي نظير داليا في ذلك العالم..!

- «أُدعى دانية.. النائب المباشر لقائد الأندرويست.. بألفاظ أخرى.. نائبتك يا زائد».

- «أنا لست زائدًا..!»

تبسمت ثم أومأت برأسها في إشارة لأنها تعرف.

- «مطيع كان يخبرنا بكل شيء منذ دخولك لمحجر ديجور.. أعرف من أنت.. وحتى لو لم يمدنا مطيع بأية معلومات.. كُنت سأعرف.. لقد كان زائد زوجي».

بدت تتحامل على نفسها حتى لا تبكي على زوجها الذي أعدم مُنذ أيام.

- «هل مطيع..؟!»

- «نعم.. معنا».

أردفت:

- «جميع من يدرك حقيقته ويتصالح معها يصبح معنا».

همت بالنهوض ووجهت سيري تجاه الباب.

- «أريد أن أرجع من حين جئت».

لم تمنعني واستمرت في كلامها بثقة وثبات:

- «هذا الشعب يريد مساعدتك».

- «هذا الشعب يريد أن يساعد نفسه».

فتحت الباب لأجد عليه رجلين بردائهما الرمادي، اعترضا طريقي.

قالت:

- «اتركوه».

أتت ورائي بخطوات متسارعة:

- «نعرف أنك مررت بوقتٍ صعب.. ما مررت به يمر به كل إنسان على ظهر جمهوريَّة النَّعام.. لقد شوهوا هويتنا جميعًا.. نحن مسوخ تحتاج مساعدتك».

وقفت مكانها وأنا أستمر في السير حتى وصلت إلى الخارج حيث الثلاث أقمار الذي لم أرهم منذ مدَّة.. أمام مقر الأندرويست الخشبي باحة فسيحة، لا يحدها جدار ولا يتخللها قائم، باستثناء شجرة وحيدة متوسطة الحجم بأوراق عريضة.

- «لا يمكنك أن ترحل هكذا وتتركنا».

نادت:

- «خالد.. إذا كان لديك زوجة مثلي مُتحملة مسئولية خلاص شعب كامل.. هل تتركها هكذا..؟ لا تتركنا.. لا تتركني يا زائد».

تلفتُّ.

وقلت بنبرة يائسة:

- «أنا لست زائدًا».

تقدمت نحوي:

- «يجب أن تكون هو.. لأيام فقط..».

استطردت:

- «إحساس بشع أن تدافع عن أشخاص يقفون في طريقك طوال الوقت.. الحكومة لا زالت تستحوذ على عقول معظم الشعب.. لا وقت لدينا.. ولا أعلم ماذا أفعل لكي أقنع ذلك الشعب بعدم موت مُلهمهم.. نحن نحتاجك.. لن تتكرر تلك الانتفاضة مرة أخرى.. هذا حلم زوجي.. يجب أن أحققه.. أنت المنجي الوحيد يا خالد».

نظرت بعيدًا لأرى سربًا من النعام الطائر الملون يهبط في وقت واحد، فيستقبله أحدهم بالتدليل وأطباق يأكل منها بنهم مصدرًا زميرًا، لقد كانوا يروضون ذلك النعام الملون الطائر..!

***

«٣»

استندت إلى الشجرة، أتأمل النَّعام الراكض بسرعته الرهيبة، بعضه يرفرف بجناحيه العريضين في السماء، يطلق زمير، باستمرار، يهبط فينفث التراب حتى يكنسها كطائرة مروحيَّة ضخمة، أو كتنين أسطوري، لم يأتيني النعاس تلك الليلة مطلقًا، لقد شبعت نومًا طيلة حبسي بمحجر ديجور، لم أكن أريد النوم أبدًا، قالت لي «دانية» إنني سأستعيد هويتي تدريجيًّا، لست مضطرًا بعد الآن أن أتناول أي طعام أو شراب به اللقاح الوطني، الأندروبست يزرعون الأرض ويربون أغنامًا لاستكفاء احتياجاتهم، ولا يشربون من أي صنبور له صلة بالنهر، فلديهم قنوات تنقية عالية الكفاءة، يعمل بها أناس متخصصون بإزالة طفيليات اللقاح من مياه الشرب التي تسمم بها الحكومة أدمغة مواطنيها، بدا لي أن مجموعة الأندروبست تعيش كذلك النَّعام، تعيش عيشة البريَّة. استرخيت قليلًا ناظرًا إلى الأقمار الثلاث، والتي يقطع نظري إليها بين الفينة والفينة نعامة ملونة طائرة.

maktabbah.blogspot.com

هل أساعدهم أم لا..؟! قد أتورط في مشكلة جديدة إذا ما قررت ذلك، أريد العودة إلى موطني، ولكني أحتاج إليهم في إيجاد المعدات والمواد اللازمة للعودة، خاصة أنني لا أتذكر معظم الأمور، ويستحسن أن أبقى تحت رعايتهم حتى أستعيد عافيتي وهويتي.. ولكن هل يستحق أناس تلك البلد المساعدة...؟!

غالبني النوم فجأة، وفي غضون لحظة شعورية رأيت السماء تنور، إنه الصبح الذي لم أره منذ مدَّة طويلة، تقف فوق رأسي نعامة تزمر، رأيت بعيون مجفلة، دانية تمتطيها، نهضت منشرحًا بذلك القدر الذي نمته تحت نسيم الحرية في أرض فسيحة لا جدار لها.

- «هل صرتم تركبونها..؟».

- «نعم».

باسمة وهي تمسح على النعامة براحة يديها:

- «أنتِ من روضتيها..؟»

- «النَّعام لا يروض.. هو من اختار الوقوف بجانبنا.. لقد سئم هويته الضعيفة الكاذبة، تجرَّد منها على الرغم من النَّعام هو اسم الجمهوريَّة وشعارها، إنه سلاحنا الوحيد ضدَّهم».

- «ستواجهون البنادق بالنَّعام..؟!»

- «نعم.. لا تستهن بها.. من تمرد على نفسه وجسده يستطع التمرد على العالم.. أليس كذلك يا سُهيلة..؟»

زمرت النَّعامة كأنها تعي اسمها جيدًا.

- «رائع..!»

أكملت عبثًا:

- «كيف حدثت تلك الطفرات الجينية لها؟ هل كان تطورًا موجهًا؟!»

- «ماذا..؟! ماذا تقول..؟!»

تذكرت أنني أتحدث إلى فتاة في قوم لا يعرفون معظم العلوم التي أعرفها، أخذتني الجلالة ونسيت أنني أتحدث مع دانية، لا داليا! ولكنه كان مؤشرًا جيدًا على أنني أرجع لتلك الطريقة من التفكير! إنه سؤال مهم، كيف تحول ذلك النَّعام..؟

يبدو أن النَّعام الملون اكتسب ذكاءً حادًا حين قرر الإدراك، يبدو لي أن ذكاءه يقترب من ذكاء الدولفين في عالمي، ولكن الغامض لدي يبقى هو كيفية حدوث تلك الطفرة الجينية في مدَّة ضئيلة جدًّا بالنسبة للتطور الذي يحدث عبر ملايين السنين! هو من قرر تحوله وتلوُّنه، هو من قرر كيف يكون شكل جناحيه، كيف يكون ذكاؤه.. فقط حين أدرك حقيقته.

- «خالد.. أين ذهبت بعقلك..؟»

- «معك».

- «هل تشعر بتحسن..؟»

- «نعم.. أنا في طريقي إلى نفسي».

- «في غضون أيام سترى نفسك على حقيقتها.. قد تتألم قليلًا لجروح لا تراها.. فلا تخف.. لقد عالج أطباؤنا كل جروحك.. جميعها سطحية.. ستكون بخير».

خرج مطيع من البيت الخشبي يهرع نحونا.. لاح الخوف بين أعين دانية.. ما أن وصل إلينا حتى شهق شهقات متلاحقة من شدة الركض.. وقال بتقطع:

- «لقد حضر النَّعام الاستكشافي.. يبدو أن قوات أمن الجمهورية علموا بمكاننا.. إنهم في طريقهم إلى هنا!»

نظرت إليَّ دانية بدون أن تنبس بكلمة.. العينان نفسها كانت دومًا تتكلم بدون زمزمة شفاه.. نفس الوجه.. نفس الإيماءات.

لما لا تكوني داليا لوقتٍ قصير يا دانية..؟

- «أنا معكم».

- «حسنًا.. لنخلص ذلك الشعب من شروره».

***

- فصلٌ عشرون -

«١»

يجب ألا يعلم أي فرد من المجموعة أنك لست زائدًا، لقد أخبرت مطيعًا بألا يخبر أحدًا، سيكون أفضل ألا يعلموا أنهم فقدوا قائدهم..

هكذا قالت لي داليا قبل اجتماع المجموعة.

في الليل، اجتمعنا على طاولة على شكل حرف «U» نوزِّع الأدوار، أطلعتني دانية على الخطة التي يجب أن ألقيها على المجموعة، أخبرتني أيضًا بالخطاب الذي سألقيه على الشعب على الهواء مباشرةً، الخطاب كان بخط زائد نفسه، كتبه في زنزانته في عجر ديجور، وسربه مطيع إلى المجموعة ليتم إلقاؤه على الشعب من قبل أي أحد آخر، ولكن الآن، الوضعية باتت أفضل، سألقيه أنا بنفسي، ولكن بتعديلات طفيفة، ليظن الشعب أن زائدًا لم يمت كما أعلنت الحكومة، وأن الثورة ما زالت قائمة.

الخطة كانت كالتالي:

ركوب النَّعام والتحليق فوق سماء العاصمة، والهبوط السريع أمام الصرح الإعلامي، اقتحامه وبث الخطاب على الهواء مباشرةً.

maktabbah.blogspot.com

تبدو الخطة بالبداهة سطيحة وساذجة. كيف سنقتحم أكبر صرح إعلامي لدى الحكومة، وفي قلب العاصمة؟! هكذا سألت دانية بتعجب! قالت لي إن ركوبنا للنَّعام الطائر هو شيء مباغت لقوات الأمن والحكومة، الأمن لا يضرب طلقًا على النَّعام، إنه الاسم الرسمي للجمهوريَّة والرمز الأعظم تقديسًا لديهم، ، تمرد النَّعام هو السلاح الأكبر فتكًا لدينا.

قُلت:

- «تتحدثين كما لو أن اقتحام صرح أعلامي على ظهر نعامة أمر في غاية السهولة..!»

- «ليس سهلًا يا خالد.. ولكنك لا تعي شيئًا مهمًا.. لا تعرف أن جميع منشئات الحكومة هشَّة التحصين.. الحكومة تعتمد على جبن الشعب ووهمه.. كل من يقترب من تلك المنشئات يموت من تلقاء نفسه.. يرى أشياء لا وجود لها.. يرى متاريس وأسلحة لا وجود لها.. صحيح أن الحكومة زادت من تأمينها بعدما عرفت أن فئة كبيرة كفت عن تناول الطعام والشراب.. ولكنه يبقى صرحًا سهل الاقتحام لأناس يرون الأشياء على حقيقتها.. إنه الوقت المناسب لنعتمد على حالة الهرج التي أنشأتها الحكومة

لتقصيرها في تقديم موارد الكذب.. سنغير تفكير الشعب نحو التخلص من الوهم نهائيًا».

– «ما فائدة إلقاء خطاب على أناس لا قابلية لديهم لتقبل أي رأي آخر..؟! هذه الخطة فاشلة».

– «لا ليست فاشلة.. دعني أكمل لك.. حين اقتحمنا ديجور.. كان الغرض الأساسي هو هرويك.. ولكنه لم يكن السبب الوحيد..».

– «ماذا تعني..؟!»

– «لقد اقتحمنا مخازن المحجر.. وأخذنا كمًّا لا بأس به من مضاد اللقاح.. سيتكفل بعض النَّعام بإلقاء زجاجات منه في النهر.. سيدرك الناس بتلك الكمية يومًا كاملًا على الأقل.. سنكون قد ألقينا الخطاب في خلال ذلك اليوم.. وسنعتمد على تلك الفئة التي سترفض الوهم لإكمال ثورتنا».

فكرت مليًّا.. تبدو الخطة مُعدة مذ زمن.

– «متى سيلقي النَّعام بالمضاد..؟»

– «صبيحة الغد.. وسنرحل نحن حين تغرب الشمس.. قد تصل الحكومة إلى هنا في غضون يومين.. لا عربات تعبر إلى هنا.. الطريق ليس ممهدًا والرياح تعيق الطائرات عن الطيران بين تلابيب الجبال الشاهقة».

وكل إليَّ مسئولية شعب كامل في أرضٍ لا أنتمي إليها من الأساس، شعب عجيب، تاريخه لا يماثل أي تاريخ درسته أو قرأته

عنه في القاهرة، لم تكن العلاقة بين الشعب ورئيسه، علاقة رعاع وديكتاتور، لم يكن لجمهورية النَّعام حكومة مستبدة أو ديكتاتور فاشٍ، بل على العكس، الهمَّاس الأعلى يخدم شعبه بكامل قواه، يوفر لهم ما يريدون من موارد الكذب والأمان، تنفاني الحكومة كامل التفاني في تحقيق العدالة للشعب، وكان ذلك هو الخطأ الوحيد، فما إن تعوَّد الشعب على رتم عالٍ من الإفك والكذب، حتى لاحت له أكاذيب الحكومة الجديدة تافهة ولا تلبي احتياجاته، خصوصًا مع تقدُّم السن بالهمَّاس الأعلى الذي يحكم من يوم عرفوا جمهورية النَّعام.

maktabbah.blogspot.com

حمل النعام زجاجات المضاد الشفَّافة بين حوافرها، أكثر من سبعين نعَّامة تكفلت بمهمة إيقاظ الشعب من غفلته العتيقة، بقيَ لدينا عشرون نعَّامة، بعدد أفراد الأندرويست الذين سيقتحمون الصرح الإعلامي، حلَّق النَّعام سريعًا، وراح يلقي الزجاجات في النهر بكامل قواه الذهنيَّة، لقد تجرد من جبنه وضعفه، يودُّ لو أن جميع أحياء جمهوريَّة النَّعام مثله، بشر وحيوانات ونباتات نسيت هويتها التي جبلها الربُّ عليها، تطلق زمرها إيذانًا للحريَّة.

تقدَّم كلٌّ منا نحو نعامة، قالت لي دانية بحرص:

– «هذا النَّعام بلا لجام.. يعرف طريقه جيدًا.. نحو من نساعده للتمرد.. وليس هو من يساعدنا.. أتركه يذهب بك إلى حيث يريد ولا تخف».

- «حسنًا».

أومأت برأسي..

لا يمكنني ألا أخاف.. سأطير الآن على ظهر نعامة..! الشيء الذي كُنت أسمعه صغيرًا في الحكايات الأسطوريَّة.. المختلف قليلًا الآن، أنني سأركب نعامة طائرة، وليس تنينًا ينفث اللهب..!

ركبت النعامة التي نزلت لي قليلًا لأمتطيها، طارت كلها في وقت واحد، زمرت، زثرت، ذعرت قليلًا، خاصةً حين النظر إلى أسفل، بجانبي دانية على نعامتها، وخلفي على نفس الجانب مطيع على نعامته، دخلنا أجواء الحضر، الدخان والنيران يتصاعدان من كل مكان في الجمهوريَّة..!

الجمهوريَّة كلها محترقة، ليس كما تقول الحكومة إن الأوضاع مستقرة، أسمع طنين الناس التي تشبه النمل من أعلى السماء، الناس كلها في الشوارع غاضبون، يريدون مزيدًا من الكذب، فوق مدينة ما طائرة صغيرة تُحلق قرب الأرض، تلقي بالطعام إلى الناس فيهرعون إليه كحيوانات مُدجنة، كأنهم موتى أحياء أو دجاج يتقاتل على الطعام، لقد سمعت دانية تقول في الاجتماع إن الحكومة منعت الطعام عن الشعب حتى يعلم قدرها جيدًا، ويبدو لي أنها سلبته أيضًا الأمان الذي أعطته له حين خضوعه، الشعب على وشك أن يقتل نفسه بنفسه.

دخلنا حدود العاصمة الجوي، عجبت حين رأيتها، كانت هادئة ومستقرة، بنايتها المرتفعة المتينة ومراياها النظيفة أعطتني

انطباعًا بتقدمها عن سائر الجمهوريَّة، لقد صممت بلمسة جمالية فائقة الدقة، كُتم ذلك الطنين الناتج عن التزاحم، لقد كانت شبة خالية، على أطراف العاصمة بقايا بنايات لم تنتهِ، تعلوها الأوناش ويعمل بها العمال على قدم وساق، صدق من قال إذا أردت أن تُسكن شعبًا وتلهيه عن كوارثك الأخرى، ابنِ له بناءً، وهذا ما كانت تفعله الحكومة فعلًا، ولكنها اكتفت بالبناء في عاصمتها التي تنقلها القنوات الفضائيَّة إلى الشعب، حتى يعمم عقله ما يراه على كل شيء بسبب اللقاح الوطني.

ظهر الصرح الإعلامي، بجانبي مطيع يشير إلى البقية نحو الصرح بأمرهم بالاستعداد للهبوط، زمر النعام زميرًا غريبًا، أطلق صخبًا، انحنى مضطربًا يمينًا ويسارًا في حركات متلاحقة.

وفجأة، خرقت طلقة نعامة مطيع خرقًا، تناثر زُغبها مع الدم على جسدي وجسد النعامة التي أمتطيها، وهوَّت في الحال ومعها مطيع وهو يصرخ..!

تفرق النَّعام مذعورًا ونظرت لي دانية بعينين متحسرتين، لقد أدركت فشل خطتها..!

قوات الأمن لا تأبه لمقدسات أو غيره..!!

ستقتلنا جميعًا بلا أدنى رحمة..!

***

maktabbah.blogspot.com

«٢»

دارت طلقات النار تجاهنا بكثافة، ولاح الفزع على وجوه الجميع، واضطرب النَّعام إلى درجة فقدانه السيطرة على تحليقه، إطلاق النار على النَّعام ليس اعتياديًا، حتمًا كان بيننا جاسوس وشى بالخطة لقوات الأمن.

هرب النَّعام من طلقات الأمن، زمَّر كل النَّعام كما لو كان يخاطب بعضه البعض، وانقض نحو الأمن هابطًا في خطوة انتحارية، فقط زاد الأمن من الطلقات ولم ينجُ من الهبوط إلا خمس أو ست نعامات من بينهم نعامتي أنا ودانية.. ركضت النعامة التي أمتطيها نحو باب المسرح، تدفع بقوة من يقابلها فتقذفه كحجرٍ صغيرٍ منهم من يسقط على عنقه فيموت، ومنهم من يسقط على ذراع أو قدم فتتحطم، دخلت الباب، وما إن دلفت إلى المسرح حتى هوت نعامتي أرضًا، لقد أصابها أحدهم من الخلف، طرت وسقطت على ذراعي اليمنى، ثم تدحرجت على الأرض، صرخت، لقد كسرت ذراعي..! قفزت دانية من على نعامتها، استندت عليها ووجهنا خطواتنا نحو أحد غرف

البث المباشر، والنَّعام الباقي خلفنا يقاتل الجنود بقوة مع أفراد الأندروبست التي لم يعد يتعدى عددهم سبعة أفراد. سابقتني دانية نحو غرفة البث وسط الفوضى المتنامية داخل المبنى، أنظر خلفي، زحف اثنان نحو غُرف التحكم المركزي كما كان موكلًا لهم في الخطة، يجب أن يذيعوا الخطاب على كافة القنوات، أفراد الأندروبست الخمس المتبقين يتساقطون واحدًا تلو الآخر.

دلفنا الغرفة، وأنا أتحمل الألم، جلست أمام الكاميرا على منصة كمنصات القنوات الإخبارية، أمسكت لي دانية الورقة وهي خلف العدسة التي تضيء بضوء أحمر رفيع، وقالت: الآن..

تبيَّس لساني، ووقفت دانية خلف الكاميرا، تنتظر هي وجميع أحياء جمهورية النَّعام لحظة نطقي بالخطاب، شخصت في وجهي، الباب يُرج ويُخبط خبطات عنيفات.

همست: تكلم!

تنهدت.. ثم..

شعب جمهورية النَّعام..

إذا صارت الأمور كما توقعنا، فأنتم الآن ترون بشكل صحيح. لن أقول إنكم تروا بشكل أفضل، لأن الأفضل ليس دائمًا هو الصحيح. أنا زائد الحق إبراهيم، قائد مجموعة الأندروبست، مجموعة منكم حاولت التمرد على العقائد الواهمة التي ورثناها من عتيق الزمان، أعلم الآن أنكم متعبون ومرهقون، جوعى

إلى أقصى درجة، أعلم أنَّ فئة كبيرة منكم قد سئمت من الوهم بعدما رأت الحقيقة، أنا الآن أتحدث من الصرح الإعلامي الذي ظنه الجميع منيعًا، على باب الغرفة قوات الأمن تستعد للدخول لقتلي أو اعتقالي، قد أكون ميتًا الآن أو بعد دقيقة، ولكن لا يهم، إذا كانت مقابل حياتكم حياتي، فما أرخصها حياتي..

سكان جمهوريَّة النَّعام..

أنتم لم تكونوا يومًا أحياءً بالمعنى الحقيقي، لقد استمات كل فردٍ منكم عن قصد أملًا في أمان وراحة زائفين. إنني أعلم جرائم تلك الحكومة كلها، وأنتم أيضًا تعلمونها، لكنني اخترت التحدث، وأنتم اخترتكم دفن رؤوسكم كالنَّعام، حتى النَّعام تمرد وأنتم كما أنتم، لقد سئمت من تناول لحم البشر على أنه لحم بقر، سئمت من الجمال الزائف، سئمت من العيش كالحيوانات، كيف تتحملون إنجاب أطفال لتأخذها الحكومة وتعطيها لأب وأم آخرين، موهمين إياهم بأن ذلك هو ابنهم، تلك الحكومة خشيت أقل الحقائق، حتى انقلب السحر على الساحر، وثرتم عليها بمجرد قلة جودة الأكاذيب وخصخصة مصانع الكذب لجهات غير معلومة. لقد سعت هذه الحكومة طوال تاريخها الذي يمتد لقرون على توطيد تعاليم تؤمن على حياتنا صوريًّا، طمست حياتنا وحرياتنا، شوهت إنسانيتنا وهويتنا. وأنا هُنا كما يدري معظمكم، ولم أمت كما صرحت الحكومة، أنا في قلوب من يبحث عن حقيقته وهويته، لا أعريكم ولا أشجعكم على

الفوضى ضد تلك الحكومة التي لم تتهاون في قتل أبنائكم للدفاع عما يسمونه استقرارًا وأمانًا، لقد حان الوقت للثورة على أنفسنا ولندافع عن حقيقتنا التي كانت عاجزة، كل ما أطلبه منكم هو إضراب عن الطعام والشراب، حتى تروا كما أرى، حتى تدركوا ما أدركه.. أعلم أن هذا صعب، ولكنه ثمن الحقيقة والحرية.

والسلام على جمهوريَّة النَّعام.

اشتد الصخب بالخارج، يتداعى الباب، يلوح الذعر على وجه دانية:

- «أرجعيني إلى الهواء».
- «ماذا..؟! لم..؟! لقد انتهينا..!»
- «ثقي بي..!»

فكرت لحظة، ثم انحنت على الكاميرا، أشارت إليَّ:

أنت على الهواء.

سكان جمهوريَّة النَّعام..

الشيء الوحيد التي لم تكذب عليكم الحكومة فيه، هو موتي، نعم، أنا ميت، زائد أعدم في زنزانته وهو يضحي بنفسه من أجلكم، ذلك الخطاب السابق كان كلماته، وأنا فقط واحد يشبهه، أنا بالتأكيد لست ذلك البطل الذي وهب روحه فداء للحق، ولم أفكر أن أكون مثله في يوم من الأيام. أنا خالد يحيى، عالم

بالفيزياء النظرية، وهي أحد العلوم التي لا تعرفونها هنا في جمهورية النَّعام، لقد اشتبهت فيَّ قوات الأمن نظرًا للشبه الجلي بيني وبين زائد، اعتقلت ولازمت محجر ديجور حتى طُمست هويتي، وصرت زائدًا، صرت هو تمامًا، لم أرد أن تكون بداية ثورتكم هي الكذب، لذلك فضلت الاعتراف بهذه الحقيقة، ولعل زائدًا كان على حق فيكم، لا تتركوا حقيقتكم.. ولتكن تلك الأكذوبة الأخيرة لجمهوريَّة النَّعام».

لا تتركوها..

دخلت قوات الأمن الغرفة، وفي مقدمتهم الضابط ذو النياشين المُذهبة، وأمر جنوده بالقبض عليَّ وعلى دانية.. وذهبوا بنا إلى ديجور.

***

«٣»

بعد تسعة أعوام.. تأملت داليا.. أقصد دانية، تأملتها مليًّا تحت الشمس الخافتة، أول مرَّة أراها منذ أعوام، تصيغ شمس جمهوريَّة النَّعام الخافتة وجهها بنور الحرية، تتجلى من صفحته نشوة تحمل سنين من الكفاح، على الرغم من انحسار جلد خدودها للداخل حتى بان العظم، ظهر الشعر الأبيض في شعرها، وبالتأكيد، شاب شعري أنا الآخر. نقف بصعوبة، أجسادنا لا تتحمل خفتنا، تفحصنا محجر ديجور خلفنا وأنا أطرف عيون دانية السعيدة.

- «لا سور ولا حرَّاس، يبدو أقل رعبًا من الخارج».

- «لقد كان دومًا هكذا».

أنشأت دانية بعدها لحظة صمت وتفكير، ثم قالت:

- «لقد قُلت لك؛ سيعود الشعب إلى حقيقته، حتى إن طال الزمن».

- «لا أصدق أننا خرجنا من هناك».

قصدت ديجور.

- «ها نحن هنا بعد أعوام، نقف على أرض ترفض الخداع لأول مرَّة».

عبر سرب نَعَام ملون، أخذ عيوننا نحوه، هو الأحق بالتأمل من ذلك المكان الموحش الذي مُورس فيه كل أشكال العبوديَّة، ونزع الهوية.

قُلت:

- «لقد حان وقت الرحيل».

- «هل ستتركنا حقًا..؟» بملامح آسفة.

- «أنا لا أنتمي إلى هنا».

- «الشعب يريد قائد مثلك..!»

- «هل هذا حقًا هو السبب..؟»

أشاحت بعينيها بعيدًا نحو اللاشيء.

- «أتذكر زائدًا كلما نظرت إليك».

- «أعتقد أن هذا أناني كفاية».

- «آسفة».

- «لو كان الأمر هكذا، لمكثت معك، الأمر متشابه لدينا».

- «كيف..؟!»

تكاد دموعي تنهمر.

برقت لي داليا بفستانها الخوخي، تلثم قبلتها على شفتي كتذكار، تذهب، فأشدها، نعبث ونضحك.

- «لا يهم..»

تنهدتُ.. ثم رفعت نظري بعيون آملة نحو الطريق:

- «لنذهب من هنا».

***

- فصلٌ أخير -

«١»

اقتربت من دانية التي استندت إلى الشرفة المطلة على ساحة النَّعام، لاحت بعينها بعيدًا، لا تريديني أن أذهب، حين حكيت لها قصتي، وبتنا نتحدث كل الوقت الذي لا أعمل به على غرفة القفز، تقول دائمًا إنني زائد ولكن باسم مختلف.

- «روحك روح زائد..».

- «لست متأكدًا من ذلك..».

لا أفكر بالطريقة التي تفكر بها، كنت أراها دانية دائمًا، قليلًا ما رأيتها داليا، حتى وإن اتفق الشبه الشكلي، صرت أتفوق على أي خديعة شكليَّة أراها بعدما مررت بها مررت به في ديجور، حتى وإن كان محتوى الخديعة «داليا».

ربت على كتفها:

- «سأرحل الآن».

التفتت:

- «ألن تعود ثانيةً..؟»

- «لا أعلم».

- «هل لي أن أحتضنك..؟»

جذبتها إليَّ، احتضنتها، كانت تحتاج إلى ذلك.. بكيَّت.

- «أعلم أنك لست زائدًا.. لكني أحبيتك».

تذكرت داليا، فهطلت دموعي، كل منا نحمل جزءًا من الآخر، نحمل شيئًا محفوظًا من الروح التي أحبناها.

أوصلتني إلى بابا الغرفة، على وجهها الحذر.

- «هل متأكد من عمل ذلك الشيء..؟»

- «نعم، متأكد، بدليل أنني هنا..».

دخلت الغرفة، قفلت باباها، قرأت على شفتيها:

- «شكرًا يا خالد..».

تبسمت، ثم ضغطت الزر الأحمر، ظهرت فجوة دائرية، تخطَّفت ذراتي، وابيض كل شيء.

***

«٢»

بعض الأحداث المذكورة والمؤرشفة في بنك تأريخ الثورة والذي جمعها فريق تحقيق خاص بالصحافة المرئية والمكتوبة وقت ثورة الحقيقة.

***

بثت قنوات الجمهوريَّة بيانًا على لسان متحدثتها الرسمية «ماذلين» تدين به اقتحام الصرح الإعلامي، وتعلن القبض عن المدعو: «خالد يحيى» بعدما أفرجت عنه الحكومة من نفسها كما تدعي، ودعت مادلين الجموع إلى ضبط النفس وعدم الانصياع لتلك الأفكار الكافرة التي قيلت في الخطاب.

***

زادت الحشود في الميادين، واستمرت الاحتجاجات لأيام بعدما تغيرت المطالب بين الجموع من زيادة حصصهم من موارد الكذب، إلى محو الكذب كليًّا، ولم تجد قوات الأمن بدًا إلا استخدام العنف تجاه المتظاهرين.

***

قال أحد أفراد التحقيق، رفض ذكر اسمه، إن عشية اليوم الخامس بعد إلقاء الخطاب كان مأساويًّا، قال باكيًا: لقد كنت أتعثر بأشلاء القتلى، الساحات كانت بحر دماء بالمعنى الحرفي، شعرت وقتها أنني أخطأت في قرار معاينة الأحداث على أرض الواقع، خاصةً حين أُطلق النار عليّ من قبل قوات الأمن، لقد نجوت بأعجوبة.

***

استطاعت قوات الأمن مع الوقت السيطرة على الجماهير بالاعتقال والقتل، لم يعد هناك أحد في الشوارع ليمارس الحياة.

***

أجبرت الحكومة موظفيها على النزول إلى الشوارع كل يوم، لممارسة الحياة والبيع والشراء في مهمات تمثيليَّة.

***

بعد سبعة أعوام من الركود والتصحر، ظهرت حركة من المهندسين والأطباء صانعي اللقاح، تُعلن العصيان المدني، ورفضها للقاح، وأغلقت معظم مصانع الأكاذيب.

***

مكتبة بيت الحصريات

استجاب كُتاب الأكاذيب لمطالب الحركة، وانضموا إلى العصيان المدني، ورمى كلٌ منهم أقلامه في نهر الجمهوريَّة في مشهد مهيب.

***

لم تستطع الحكومة التعامل مع الموقف الاقتصادي، نزع موظفوها أرديتهم، وانضموا إلى العصيان، وهرب بعض القادة إلى أماكن نائية، والبعض الآخر انتحر في مكتبه.

***

في آخر سنتين، زادت أعداد المنتحرين من المتقنعين، وفئات من الشعب التي أدمنت الكذب.. لم يتحملوا الحياة تحت وطأة الحقيقة.

***

لم يعد هناك شخص ينتمي للحكومة. دخل الشعب على همَّاسه الأعلى للقبض عليه ومحاسبته، فوجدوه هرمًا، أعمى، أبكم، أصم، ميتًا سريريًّا.. فتركوه لحاله، وقرروا محاسبة أنفسهم.

***

فتحت كافة المعتقلات بما فيها معتقل ديجور الحربي، وأُعلن نجاح ثورة الحقيقة بعد تسعة أعوام من الكفاح كنتيجة للخطاب التاريخي للمدعو «خالد يحيى»، الذي لم يُستدل له على أثرٍ من وقتها.

***

«٣»

لم تمر ثوانٍ بعد زوال البياض تدريجيًا حتى عرفت أنني في ورطة كبيرة.. قفزت إلى معمل الكليَّة، غرفة القفز القديمة لا وجود لها، المعمل يبدو وكأنه لم يعمل منذ مدة، كنت على الأرض، أدرك أن النهايات ليس لها وجود، يقف أمامي موجهًا مسدسه إليَّ، يرتدي بذلة واقية، يتبسَّم رغم استيائه، كان على وشك الإطلاق، فُتحت فجوة أخرى على شكل مثلث، بُصق منها واحد آخر.. ابتعد الأول إلى الخلف موجهًا مسدسه نحونا، لنكون على مرمى بصره، تشهق أنفسنا، ننظر إلى ثلاثتنا بعيون شاخصة متعجبة.

ثلاثتنا خالد يحيى..

هؤلاء الاثنان أنا..

إننا.. ثلاثي مُحتمل الوجود..

إبريل ٢٠١٩

محمد الدمرداش بدر

من إحدى ضواحي الجمهوريَّة

***

الجميع، بما فيهم الزمن، يركض نحو النهاية، والنهاية وهم.

تُوَارَى..

***

تنبيه

يُصاب معظم من قرأ سابق الصفحات بمتلازمة الانتقاء الرصدي الخاص بالأرقام المتشابهة.

***

للتواصل مع الكاتب

البريد الإلكتروني:

Engmohamed_badr@hotmail.com

حساب الكاتب على الفيسبوك:

https://www.facebook.com/mohamed.badr.official

حساب الكاتب الرسمي على جودريدز:

https://www.goodreads.com/mohamed_badr_official

***

لإبداء الآراء والمراجعات في العمل يرجى زيارة صفحة الرواية على الجودريدز.

***

شكر

الكنزي. . سوسن بهاء . . مهند يحيى . . أسماء محمد . .

نور الجنابني . . عبد الرحمن طارق . . محمد عزب . .

طارق الجمّال . . محمد شريف . . مصطفى حبيب . .

***

حنا أردنت

جاك دريدا

ويل ديورنت

أفلاطون

***

شكر خاص

من بذلوا كامل الجهد لإخراج هذا العمل إلى النور، وبالأخص: «أمي»، وتلك الفتاة التي صنعت لحياتي رونقه الخاص، عزيزتي «آية» . .

***

سلام ربي على من يقرأ تلك الرقم الورقيّة، وجدت تلك الصفحات تحت مرتبة الزنزانة، كُنت أبحث عن شيء ولا أعلم ما هو، ويبدو أنني وجدته، يبدو من تلك الصفحات الصفراء أنني «خالد يحيى»، وعلى الرغم من أنني لا أعرف في تلك اللحظة الفارغة من هو «خالد يحيى»، إلا أنني أؤمن أن تلك الأوراق تنتمي إليّ، لستُ متأكدًا ما إذا كان هذا خط يدي أم لا، ولكن المكتوب على الأوراق يتحدث قلبي، يخاطب جزءً مضمورًا من عقلي، ليست تلك الحادثات الموحشات التي مرّ بها كاتب الصفحات، وإنما طريقة كتابته وذكرياته التي تدرت بين الرقعة والرقعة..

أنا ذلك الرجل، أنا خالد يحيى، وهذه كلماتي.

محمد الدمرداش بدر: مهندس وكاتب وروائي مصري، من مواليد المملكة العربية السعودية عام ١٩٩٤، حصل على بكالوريوس الهندسة شعبة قوى ميكانيكية عام ٢٠١٨، فائز بمسابقة عصير الكتب للقصة القصيرة ٢٠١٧ عن قصة «نسخ فرانشة» والتي نُشرت في ٢٠١٨، له العديد من المقالات بالمواقع والمدوّنات الإلكترونية.

الكنز
ALKANZ